بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي العدد

حين نحت المثال الفرنسي رودان تمثال « المفكر » وجعله يسند رأسه المتعب إلى ساعده وقبضته المتقلصة قال له بعض أصحابه : ولكنك جعلته كمن يفترس ذاته . فقال : وهل التفكير إلا افتراس للذات ؟ هذه الآلة الإلهية العجيبة في أعلى العمود الفقري من كل منّا ، لا تكف عن الحركة ولا عن الضجيج . إنها تفرز التفكير الذي يملؤنا بالهموم كما لو أن وظيفتها ملء ذلك الفراغ الذاتي الداخلي فحسب . وبأي شيء ! وإذا قال ديكارت ذات يوم : أفكر فأنا موجود فقد كان أحرى به أن يقول أفكر فأنا مهموم ! إن الوجود مرادف للهموم ومن لا هموم له .. لا وجود إنسانياً له . وثم دوماً كمية غير كافية من هذه الهموم لتملأ ذاته وتلتهمها !

هذا ما خطر في بالي وأنا أجمع أطراف هذا العدد لأقدمه للمطبعة . ففي كل بحث ، لو مضيت مع البحث ، هم كبير من هموم الإنسان ، أشياء تشغله وإنها لتتوالد بعضها من بعض . أرأيت تنين هرقل ذا الرؤوس السبعة ؟ لا يكاد يقطع رأساً منها حتى تنبت بدلاً منه سبعة رؤوس ! وتدور الأيام وتدور معها عجلة التفكير الإنساني لست تدري « أيان مرساها .... إلى ربك منتهاها » !

مقالة « ما لا يعلمه العلم » تلقي أمامك بالمشكلة التي أصبحت أبدية منذ بدأت ثورة العلم قبل خمسة قرون . وماذا بعد ؟ هذه المعرفة الحقيقية الوحيدة هل لها من بعد معرفة من نوع آخر ؟ وحين نضبط علمياً تلك الآليات المنظمة لشخصية الكائن الإنساني ضبط الساعة ، فماذا تراه يحدث لحرية الإنسان ؟ لآماله الوردية ؟ للشعر والنغم واللون في حياته ؟

مقالة « تحت رحمة الديون » تضع الإنسان على حافة أخرى من حافات التفكير . حافة الفقر ! ثم « طاعون مالي » يفتك بثلاثة أرباع البشرية ويزحف بها إلى القاع اسمه الديون !! وفي كفاح مستميت « لخدمة » بلايين الدولارات من القروض تنقلب اقتصاديات العالم

الثالث رأساً على عقب وتنزلق الأسر إلى الهاوية . فهي طفيليات تعيش في مدن « التنك » تلك المدن المفقودة حيث تتزايد المواليد وتشح لقمة الخبز وتروج سلعة الرقيق الأبيض ويقضي المنهكون من الجوع !

ملف العدد حول القلب ، هذا الخافق المعذب ، يفتح صفحة أخرى حول همّ الهموم ! هذه المضغة التي ان توقفت توقف الوجود الإنساني جميعاً ، ما كنه المؤثرات التي ترهقها وتوقفها عن الخفقان ، في هذا العصر الحديث ؟ الملف لا يتحدث عن الأطباء وتعليلاتهم البيولوجية وأدويتهم المركبة ولكن عما وراء ذلك من السلوكيات البشرية ومن الطباع التي تساندها ! إنها نفسية إذن هذه القضية القلبية بقدر ما هي (أو أكثر مما هي) بيولوجية ! ذبحة القلب لا تفجع إلا القلب المرهق ، لا بالكولسترول أو ارتفاع الضغط ولكن بالانفعال الذاتي ! إنها عملية انتحار ! فويل للمتعبين ! هذه خلاصة ما تقوله الصفحات التي تزيد على الخمسين في الملف !

بجانب هذه « الهموم » الكبيرة تأتي مشكلات صغيرة أخرى لتبرهن مرة أخرى أن التفكير الإنساني عملية موصولة الحركة حتى فيما استراح إليه الإنسان وانتهى منه . اخترع الإنسان البوصلة آلة يسترشد بها ولكنه ما انفك وراء هذه القوة المغناطيسية يحلل ويقدر حتى لتحس وأنت تفرغ من مقال « المجال المغناطيسي للأرض » أنك مطوق كالسجين بألف طوق وطوق من المغناطيسية والقوى المرعبة . وابتكر الإنسان منذ مائة سنة المصباح الكهربائي المتوهج والفلورسنتي بعد آلاف السنين من عصر الأسرجة الزيتية ثم الشموع المكلفة . فلكل نسمة في العالم اليوم قرابة ثلاثة مصابيح ... وعلى الرغم من أن هذا المصباح كان قفزة هائلة بالإضاءة الإنسانية فالفكر يفتش الآن عن بديل له ... إنه مكلف أجهزةً وصيانةً ونظيفا ... وثم في الأفق نور آخر يطلع محله ! وقد يكون له من بعده نور ثالث ورابع ... والفكر يعمل ويعمل دوما .

ألست معي في أن هذه الآلة العجائبية في أعلى عمودنا الفقري لا تكف لا عن تجميع الهموم ولا عن الحركة والضجيج ؟ لكن هل أنت مع رودان في أنها تفترس الإنسان ؟ أم أنها تمهد له طريق الحياة ؟

رئيس التحرير

● ما لا يعلمه العلم

بقلم : ميشال هنرى
ترجمة : محمد لمسوني

«إذا ظل تقدم العلم على هذا النحو ، فإن الأخلاق والميتافيزيقا والدين لن تصبح عما قريب سوى حل نهاية المطاف ـ هذا ما يقولون ـ أليس العلم هو المعرفة الوحيدة الحقيقية ؟» . هذا الاعتقاد الرائج تعزّزه التطورات الرائعة للبيولوجيا والاعلاميات ، إلى درجة أن بعض أصحاب الرؤى يعِدُوننَا بأنّه في يوم من الأيام سوف نعرف ونضبط علميا الآليات التى تنظم شخصية الكائن الإنساني نفسه . إذن ، ماذا سيحدث لحرية الإنسان لو اختصر تفكيره وشعوره إلى مواضيع معرفية في غاية البساطة ؟

ننشر هنا(*) وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي ميشال هنري 'Michel Henri' أستاذ الفلسفة بجامعة مونبولي الذي كتب مؤخرا كتابين «البربرية 'La Barbarie'» (منشورات كراسي ، 'Grasset' ، باريس ١٩٨٧) و«رؤية اللامرئي 'Voir L'Invisible'» (منشورات ف. بوران ، 'F.Bourin' ، باريس ١٩٨٨) حيث أكّد تكاملية العلم والفن التي لا تقبل الإختزال .

إيفون بولافال 'Yvon Belaval' ـ على طريقته في التعبير ـ كان يقول : «الله هو العلم» . يريد بذلك أن الثانى صار ـ لدى الكثيرين ـ متطابقا مع الأول لأنه الذي يمتلك المعرفة ،كل معرفة معقولة ، ويمتلك السلطة ، كل سلطة يتمكن منها الإنسان في هذا العالم بمقدار ما يعرف التأثير فيه وتغييره شريطة أن يعرف قوانينه . وفي هذا الصدد ، فإن تقدم التقنية الصاعق (بكل معاني الكلمة) والذي يُمدِدُ التطور العلمي معتمداً دوماً عليهِ لَهُوَ البيان المذهل لتحوّل نظري وعملي ينوي من الآن فصاعداً تفويض مصير الإنسان إلى المعرفة الموضوعية للطبيعة المادية . وإذا كان هناك فعلاً إعتقاد مستمر وسط إنهيار كلّ المعتقدات والقيم التي تميّز الحداثة ، فهو أن المعرفة العلمية تُكوّن الشكل الوحيد للمعرفة الصحيحة والحقيقية والموضوعية ، التي يستند بالتالي عليها ويهتدي التصرّف الإنساني .

---

* العنوان الاصلي للمقال :

" Ce que la science ne sait pas "
La RECHERCHE - No. 208 - Mars 1989.

غير أن هذه المعرفة المُستبدّة ، وبالضبط بالنسبة إلى علم الأخلاق ، تكشف عن نقائص غريبة . ذلك أننا نلتمس من الأخلاق شيئين على الأقل : على الصعيد الفردي ، نواة من اليقينيات تسمح للمرء بتسيير حياته ، وعلى الصعيد الجمعي ، وحدة تُقدِّم للإنسانية ، في بداية الأمر ، لكل زمرة إجتماعية ولكل أُمّة ، إمكانية تشكيل طائفة من السلوكيات وعادات موحّدة 'un ethos' تسمو فوق هذه الأرض ذات القناعات الرّاسخة والأفكار المشتركة .

فماذا نرى خلاف ذلك في عصر العلم والتقنية الجبارة ؟.. لا كائنات واثقة في نفسها وفي مصيرها ، متحركة في سعادة ورخاء في رحاب عالم أمْسَى مفهوماً لذهنها ومطمئنة لما ستعمله فيه ، بل أفراد مهجورون وغرباء عن كل تجمع متماسك لأنه في حالة فقدان الرباط الروحي لا وجود لأي تجمع من هذا النوع ، ولذا ، ليس هناك في الواقع غير منفذين لهذه الكائنات المستسلِمة التي لم تعثر على معنى لحياتها في قرارة النفس أو خارجها . فعلى قدر ما تنشغل بحياتها الشخصية ، تتوجهُ إلى الطبيب والمحلّل النفساني وطبيب الأمراض العقلية المكلف ليس بمنحها قيماً إيجابية لا يؤمن بها هؤلاء الاطباء الجدد أنفسهم ، بل بمساعدتها على «العيش» وتحمّلِ أنفسها في الوقت ذاته الذي تتحمل فيه مجتمعا لايطاق ، من المفروض عليها الإندماج فيه بالرغم من كل شيء .

لكن الحل الثاني يبدو أكثر إغراء وأكثر سهولة ، وهو الذي يفوز في كل مكان حولنا . ويتعلق الأمر بتهرّب كل واحد منا ، وذلك بإرتمائه خارج ذاته نحو مشهد ما ، مدهش وقادر على إبتلاعه تماما ، إلى حد أنه لا يفكر في نفسه ويقصّر في واجباته كلّياً ، على أن هذا المشهد ينبغي له أيضا أن يدور بلا توقف ، وهذا بالضبط ما حملتهُ التقنية للانسان الضائع في عصرنا : إمكانية الضياع بإستمرار . ونحن نعرف جيدا الكيفية : بجلوسه أمام التلفاز الذي يصب هذا السيل من الصور بلا انقطاع . متفرج منوَّم مغنطيسيا ، يستسلم . وهذه بالفعل هي وضعية الإنسان الحديث العجيبة ، المتحضّر زعماً . إن هذا المضمون الذي احتلّ تفكيره (صوره وأحلامه ورغباته وتخوفاته وغرامياته وأفكاره) لم يصدر عنه ولكن عن جهاز يُملي عليه كل ما يحس به ويفكر فيه . لم يسبق للإنسان في أي زمان ومكان أن كان بمَثل هذا الإستلاب الكامل ، وإذا كان المستلب هو ذاك الذي يصبح غريبا عن نفسه ، فهذا بالذات هو معنى الخلع من كل سلطة بالقياس إلى ما يجري في فكره .

فما الذي جاء يعلمه العلم هنا ؟ لماذا تكون نظرياته ، يعني هذه المجموعات المُبنْيَنَة من المثاليات التي تضفي الشرعية على نفسها ، موضوع إشكال ؟ إن هذه

النظريات ، والحق يقال ، أو بعضها ، هي التي سمحتّ بإنتاج الصور عن بعد ، كذا هذه الأجهزة التي حوّلت الإنسانية بأسرها إلى جمهور من المسعفين عقليا . ولكن المعرفة المدرجة في هذه النظريات ، هل قررت في وقتٍ ما بناء أجهزة من هذا النوع وأوكلت الناس (وهم الآن أطفال ثلاث سنوات ممن لم تعد الأم تهتم بهم) الى التجمع أمامها كمتفرجين أغبياء ؟ إن فيزياء نواة الذرة هي التي سوغت صنع القنابل النووية ، ولكن هل نصحت بها ؟ والبيولوجيا الحديثة بتقدمها الباهر هي التي يسَّرت التقليبيات في حقل علم الوراثة ، ولكن هل أمرت بذلك حتى ولو من زاوية التجريب ؟ وبكلمة واحدة ، هل قال العلم يوماً للإنسان ما يحقّ له القيام به ؟

ولكن من سيقول ذلك ؟ فإذا كان العلم هو المعرفة الوحيدة الحقة التي تمتلكها الانسانية ، فما هي السلطة العليا المغايرة التي تستطيع جيدا إفادتنا كدليل إذا لم يكن هناك في حقيقة الأمر أى معرفة أخرى ؟ إن هذه هي المشكلة . وهنا ليس المقصود قطعا «نقد» العلم وإنكار صلاحية نتائجة المعتبرة في مثاليتها وبالتالي في شمولية مبادئها ، تلك النتائج التي لا يمكن إلا أن تثير الاعجاب في كل الميادين ، وليس أي تشهير ، اذ سيكون تافها على الوجه الأكمل . إن ما يراد طرحه بكل صرامة هو : ١ ـ هل تحدد المعرفة العلمية حقا المعرفة الفريدة الموجودة في حيازتنا ؟ ، ٢ ـ هل هي تلك التي عليها يقتضي تأسيس فعلنا ؟

لقد أجيب عن الإستفهام الثاني نفيا . فالعلم ليس «بريئا» . القنبلة الذرية والتقنيات في حقل علم الوراثة منسوبة إليه لأنه متمسك بدقة بطبيعة الأمور . لم يلمح إلى أي هدف لفعلنا ، ولم يطالب أبدا بهذا الدور . ولكن سيكون لزاما علينا ، والحالة هذه ، الإعتراف بهذا : إذا كانت الإنسانية لا تحوز معرفة أخرى غير العلم فستجد نفسها في اضطراب تام ، غير عارفة بما يلزم القيام به وغير قادرة على معرفة ذلك . والإضطراب هذا هو بعينه ما نراه في عصرنا ، وهذا يطابق وضعنا المتناقض أي أن نكون سادة معرفة ضخمة تتسع دونما فتور بموجب تطورات أكيدة ومدهشة ، وفي آن واحد ، نعترف بجهلنا المطلق لغايات هذا العمل والقيم التي تتطلب تحديده . وهكذا بات من المستعجل طرح المطلب الأول الذي يشكّل الرهان الفريد لكل هذا التحليل : فيما يتعلق بالمعرفة ، أليس بحوزة الإنسان غير العلم بمعناه العصري ؟.

ما ماهيته ؟ هل ميدان إختصاصه يشمل ما هو موجود وكل ما نتكلم عنه بحق ما ؟ هل يحدد أخيرا كل معرفة حقة يستطيع الإنسان أن يعيها ؟ وللإجابة يليق أن

نرجع الى أصل هذا العلم في بداية القرن السابع عشر حينما وضع «جاليلي 'Galilee'»[1] و«ديكارت 'Descartes'»[2] بعده أُسُسَهُ الصريحة . ففي هذا الإجـراء الإفتتاحي الـذي يمكن تسميتـه الفعـل المؤسس الأول 'L'acte Proto-fondateur' للعلم الحديث ، اتخذت قرارات كان من شأنها قيادة التطور اللاحق لمعرفة صارت «علمية» ، وفضلا عن ذلك ، توجيه طرق تفكيرنا وإرتباطنا بالعالم الذي يحيط بنا وفهم طبيعته .

العلم الجاليلي يضع جانباً صفات العالم المحسوسة :

إن هذا العالم يمنح نفسه لنا في شكل تجلّيات محسوسة متغيرة من فرد إلى آخر ، وبهذا تكون تصادفية . غير أن هذه الطبقة المحسوسة للعالم ، هذه «الصفات المحسوسة» المتعذر حجزها والمتقلبة لا تشكّل غير ظاهر يقتضي غض النظر عنه تماما إذا شئنا معرفة الكائن الصحيح للعالم . فهذا الأخير مؤلف من أجسام محتملة الوجود بدون أن نتخيل لها صفات محسوسة ، فإنها وهي على العكس لا وجود لها بدون أجسام مادية تدعمها : الأولى هي العرض 'L'accident' والثانية الجوهر 'L'essence' ، هذا هو الكائن الصحيح للاشياء الذي رآه جاليلي . إلا أنه بينما تتفكك هذه الصفات المحسوسة اللاجوهرية في ذاتية مختلف الأفراد بحيث صار من المستحيل إمساكها ببعض التدقيق بطريقة تكون إفتراضات علمية دقيقة وشمولية إنطلاقا منها ، فان لدينا بالعكس ، فيما يتعلق بجوهر الأشياء ، طريقة معرفية صحيحة ومثالية جامعة مانعة صالحة لإعطائنا حقائق عقلانية قابلة لفرض نفسها على أي فكر . هذه المعرفة المثالية لأشكال الأجسام هي الهندسة .

هو ذا النص الفاصل من 'Saggiatore'[3] حيث يجزم جاليلي في الآن نفسه بالخاصية الجوهرية للقاعدة المادية للكون بتحديداته الهندسية ، وبالخاصية

(١) جاليلي Galilee (١٥٦٤ ـ ١٦٤٣) : فلكي ورياضي وفيزيائي إيطالي . يعتبر واضع اسس العلم الحديث . كان له فضل السبق في اكتشاف قوانين نيوتن Newton للحركة . صنع في عام ١٦٠٩ اول تلسكوب فلكي . نشر في عام ١٦٣٢ كتابه المسمى « حوار حول النظامين العالميين الرئيسين » والذي ايد فيه نظام كوبرنيكوس بدلا من نظام بطليموس ، مما اثار حفيظة الكنيسة فحاكمته واضطرته آخر الأمر إلى التراجع عن رايه . اول من قطع الصلة بالفكر القديم مدشناً طريقة جديدة في البحث ، هذه التي ندعوها اليوم بـ « المنهاج التجريبي » .

(٢) ديكارت Rene Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) فيلسوف ورياضي فرنسي ، يعتبر اب الفلسفة الحديثة . إليه يرجع الفضل في إكتشاف الهندسة التحليلية . يتلخص جوهر فلسفته في كلمته المأثورة : « انا أشك ، إذا أنا افكر ، وانا افكر ، إذا انا موجود » . من اشهر مؤلفاته الفلسفية : « مقالة في المنهج » . (المترجم) .

(٣) فصل من كتابه المترجم إلى الفرنسية : — Gallilee : Dialogues et Lettres Choisies - Paris - Herman.

وإلى الإنجليزية تحت عنوان : — Galileo : Dialogue on the Great World System Chicago, University of Chicago Press.

اللاجوهرية للصفات المحسوسة التي عليها تأسس من قبل العلم المدرسي 'La science scolastisque'[1] والذي سيتخلّى عن مكانه للعلم الحديث . إنني ملزم جدا وفقا للضرورة حالما أتصور مادة أو عنصرا جسمانيا ، أتصور في الوقت نفسه أنه مُحدّد وذو شكل كذا أو كذا ، وأنه بالنسبة لأشكال أخرى ، كبير أو صغير ، موجود في مكان كذا أو كذا ، متحرك أو جامد ... وبدون أي مجهود خيالي ، لا أستطيع فصله عن هذه الشروط ، ولكن أن يكون أبيض أو أحمر ، رنّانا أو أخرس ، ذا رائحة لطيفة أو كريهة ؛ فإنني لا أستطيع إكراه الفكر على لزوم ضبطه بشروط كهذه ... «وهكذا يتسنى لنا معرفة الكائن الصحيح للطبيعة أو كما يقول جاليلي ، القراءة في «الكتاب الأكبر للكون» بشرط حيازة لغته التى من سماتها المثلثات والدّوائر وأشكال هندسية أخرى ، هذه الوسائل التي بدونها من المحال ، إنسانيا ، فهم كلامها» .

ففي التحليل الشهير لقطعة شمع العسل ، في «التأمل الثاني 'La deuxieme meditation'» ، سيستعيد ديكارت بعبارات مماثلة هذا التمييز المحسوس /هندسة ، مختزلا كجاليلي واقع الأشياء إلى تحديدات مثالية . أما أن يكون ، علاوة على هذا قد أبان عن مهارته بإنتاجه صيغة رياضية لهذه الخصائص الهندسية ، فبذلك قد ولد العلم الحديث والمقاربة الفيزيقورياضية للطبيعة .

كل علم ينشأ بإختزال . فمن بين كل الموجودات ، لا يحتفظ إلا بما سيكوّن الموضوع 'theme' الواضح لبحثه ـ العلاقات بين الأفراد ، الأحداث الانسانية المُعتبرة من زاوية تاريخيتها ، الخاصية التي بموجبها تعرِض إنتاجات الفكر نفسها علينا كـ «عمل فني» ، إذا تعلق الأمر بعلم الإجتماع أو التاريخ أو علم الجمال الخ ... ولكن العلم بالمعنى الذي نطلقه اليوم على هذه الكلمة ، العلم الجاليلي وما بعد الجاليلي تألف في اختزال مكثف لم يستغن فقط عن ملامح الظواهر بغية التركيز على أخرى ، بل إن ما يستبعده ، هو بالجملة الخاصية المحسوسة لهذا العالم الذي نعيش فيه ، خاصية تصيّرُه عالما إنسانيا ، عالم ـ الـ ـ حيا ـ ة 'Le Lebenswelt' .

ينبغي قياس هذا الإختزال الجاليلي الذي سيفتح مجال الحداثة . فبوضعه جانباً الصفات المحسوسة للكون (زرقة السماء، خضرة الأشجار،صقة ما لمشهد

(١) La scolastique (السكولاستية) : نسبة إلى المدارس الفلسفية الشهيرة في العصر الوسيط حيث سادت فلسفة ارسطو وإبن رشد وهيمنت طريقة في التدريس من القرن ١١ إلى ١٥ اساسها تبعية الفلسفة والديالكتيك لعلم اللاهوت . من ابرز ممثلي هذه الحركة القديس توما الأكويني Saint Thomas d'Aquin تدور فلسفته حول التوفيق بين العقل والدين . (المترجم)



بموضوعيته الجذرية ، ينزع عالم التقنية الى إقصاء كل ما يصنع إنسانية الإنسان : أحاسيسه ورغباته وهواه . فسنة بعد ظهور كتابي : « البربرية 'La Barbarie'» ظهر كتابي : « رؤية اللامرئي 'Voir L'invisible' » يثبت أن بإمكان الفن انتزاع الإنسان من إضطرابه بإرجاعه ما ضاع منه . ولذا فإن الرسم التجريدي ، حسب كاندينسكي 'Kandinsky' لا يسعى ثانية الى تقديم الأشياء التي نحيا معها بل حياتنا الداخلية . كيف نرسم اللامرئي ؟

إن كتابات كاندينسكي النظرية تجيب على هذا السؤال . هنا ، الوثبة الهائلة لهذا الفارس تعبير مباشر عن قدرة يحس بها كل واحد في أعماق كينونته .

طبيعي سواء أكان هادئا أم مهدَّدا ، عذوبة الروائح ، جمال أشكال المدن القديمة أو بشاعتها في ضواحي مدن عصرنا الفظيعة) لم يحذف الجانب الخارجي للأشياء المحيطة بنا لا غير ، ولكن حذف حياتنا نفسها لكون الاحساسات التي تجعل العالم (وهذا صحيح حسب الحدس العبقري لديكارت) يهب نفسه لنا في هيئة عالم محسوس ليست في الأشياء ولكن فقط فينا ، في ذهننا . فالأشياء لاتحس وليس بوسعها إذن أن تكون سخينة أو تتألم أو تكون حزينة أو هادئة . إنما وحده الذي يحسّ نفسه ، من يشعر باطنيا بإمكانه الإحساس بشيء ما كالحرارة أو البرد ،



كل خط حصيلة قوة واحدة أو أكثر . الرسم المستقيم ينجم عن قوة فريدة تؤثر في نقطة وتحولها إلى اتجاه ثابت . هذا الخط يتقوس لو آن قوة اخرى تمرست عليه جانبيا . لقد سبر كاندينسكي كل الطاقات الكامنة الديناميكية لكينونتنا والتي يتوخّى الفن تحسيسنا بها بشدة .

الألم أو الفرحة . إن الذي يحس نفسه يحس باطنيا وفوراً نسميه الذاتية أو الحياة ـ لا الحياة البيولوجية ولكن الحياة بالمعنى الشائع كأن نقول مثلا : الحياة قصيرة، الحياة حزينة ، أو أيضا كـ « موبّاسان 'Maupassant'»(١) : «ليست الحياة جيدة جدّاً أو سيئة جدّاً كما يقال .» ـ لأن الناس كافة تعرف ما هي الحياة ، ذلك انها تعرف نفسها بنفسها ، تشعر باطنيا وحالا . باطنيا : خارج

(١) جي دوماباسان Guy De Maupassant (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣) ، كاتب فرنسي اشتهر بقصصه القصيرة الواقعية .
(المترجم)

العالم وضوئه ، خارج التصوّر ، في اللامرئي . من الذي سبق له أن رأى حياته ، ضجرها ومرحها وقلقها ؟ ومع ذلك فهذه التحديدات اللامرئية هي من الثوابت الأكيدة . فعندما كان ديكارت يبحث عن يقين مطلق بدأ شاكّاً في كل شيء ، ولهذه الغاية تخيل أن الكل ليس غير حلم ، وكان هذا بدقة هو ما احتفظ به كيقين مطلق بالرغم من أنه ليس غير حلم : الجزع أو كل «شهوة» أحس بها في هذا الحلم («شهوات الروح» ، الفصل ٣٦) لان من يحس نفسه باطنيا بطريقة الجزع أو القلق أو المتعة أو احساس ما ، ففي هذا حقيقة ما لا يمكن الشك فيه .

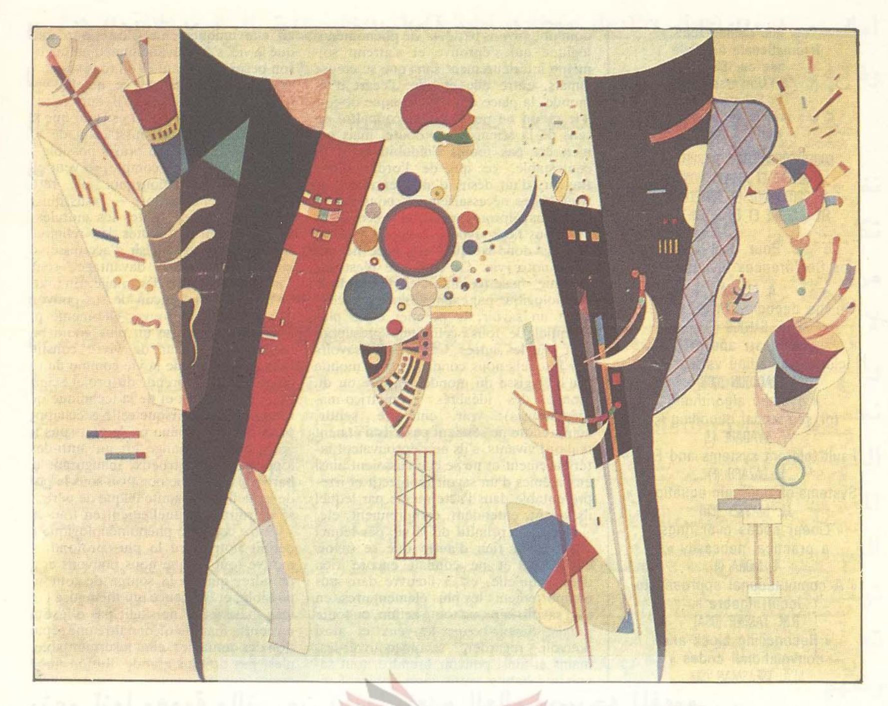
أليست الحياة الذاتية سوى وهم يمكن إرجاعه إلى المادة :

في الواقع أن تلك الحياة الظاهراتية (Phenomenolgique) المطلقة (الإحساس الفوري الحاضر بنفسنا بكل هلع ، بكل فرح ، بكل شعور الخ ...) هي التي أقصاها العلم الجاليلي من بحثه العلمي بتهميشه لصفات العالم المحسوسة . وهنا نرى جيدا سبيلين ينفتحان أمام الفكر الإنساني ، فإن يختار هذا أو ذاك ، فإنه لن يبحث سوى في مصيره ، حياته أو موته .

فإما أنْ نعطي للإختزال الجاليلي دلالة منهجية محضة ـ نقول : لكي نعرف واقع الكون المادي ينبغي ألا نأخذ في الحسبان مظهره الحسي في التجربة الذاتية التي لدينا عنه . وهذا معقول إذا كان صحيحا أن الحسيات والإنطباعات والرغبات والعواطف وكل ما هو ذاتي عموما يصبح مستبعدا عن الشيء المادي وغير قابل للإختزال . فبهذا المعنى ، الروح هي ما نسميه الحياة الظاهراتية التي تختلف بعمق عن الجسم ، حسب ديكارت .

وإما أن نمنح الإختزال الجاليلي دلالة أنطولوجية[١] (Signification ontologique) . فما يُمَوضعه خارج اللعبة ـ أي هذه الحياة الذاتية بكل أنماطها ـ سنعدّه لا شيء ؛ أو على أبعد تقدير ، مظهرا بسيطا للغاية ، نوعا من نسخة عجيبة للواقع ، هذا الواقع الذي هو بالتحديد موضوع العلم الجاليلي والتي ستتبدّى ، في غضون تطور هذا الأخير ، في شكل جسيمات الفيزياء الحديثة . الحياة الذاتية من جهة ، والواقع الفيزيقي من جهة أخرى ليسا كميداني وجود متباينين متساويين في الكرامة . الثاني وحده يشكّل الواقع الصحيح ، وهو الذي يُحدد الأولى التي ليست غير حصيلته ، بوصفها ظاهرة حقه ، أو بالأحرى

(١) ONTOLOGIE ـ من اللاتينية (انطولوجيا) . علم الكائن ـ منذ أرسطو حتى ديكارت ، علم الكائن ككائن وقد أوّلت كعلم لاهوت Theologie ومن ديكارت إلى كانط وما بعده ، تجددت الأنطولوجيا كعلم أسس المعرفة . وأخيرا ، من فيخته Fichte وشيلينغ Schelling ، توجهت نحو معرفة كائن الإنسان (هَيْدْجِرْوسَارْتر) . (المترجم)



بالمقلوب ، أشكال مثلثة فاخرة بالألوان الروسية والآسيوية تدور ببطء على طرفها اللامادي . إن توازنها الخارق يثير فينا ، كما يشير إلى ذلك العنوان (وفاقا متبادلا accord reciproque الذي منحه كاندينسكي إلى هذه التاليف المتأخرة ، ١٩٤٣) إحساسا بوفاق عميق وسعيد .

فوق الظاهرة . (epiphenomene) لن ننكر قسرا وجود الحسيات والرغبات والعواطف . انها ليست غير استتباع أو نتيجة . لو تعلق الأمر بالألوان والأصوات ، فسوف نسلم بأنها انطباعات معايشات (des vecus) ، ولكنها لن تؤلف سوى المظهر الذاتي الموهم لحقيقة مؤلفة من حركات مادية تطرحها فيزياء ـ الأصوات والألوان ـ بالتحديد في نظرية صارمة تعرّيها على حقيقتها .

ولكن ، هاهنا ، وبإنزلاق لا محسوس ، يتخلى العلم عن مكانه لأيديولوجية ، هي الإيديولوجية العلموية التي يوقظها في غالب الأحيان من غير أن تورطه إطلاقا .

إن معاملة حياتنا الذاتية كظاهر ، وأكثر من ذلك ، كظاهر وهمي ، ليست فقط تعبيرا عن أعظم قذف إزاء الإنسان وإنسانيته لأن ما يصوغ هذه الإنسانية ، خلاف الشيء ، هو تماماً الإحساس والإحساس بنفسنا ، إنها الذاتية فوجودنا يبدأ وينتهي بحياتنا الظاهراتية ،(١) وخليق بنا أن نتعود على هذا . فلو كانت هذه

(١) الظاهراتية phenomenologique من الظاهراتية La phenomenologie : الدراسة الفلسفية للظواهر الحاضرة في فكرنا ، وصفها ووصف بنيات الشعور التي تعرفها ، وهذا هو الهدف الرئيس لفلسفة هوسرل . ظهر هذا المصطلح أول مرة عند لامبير Lambert (١٧٦٤) ثم كانط وهيجل من بعده .

الحياة الذاتية لا شيء ، فنحن كذلك لا شيء ؛ ولو كانت هذه الحياة ظاهرا وهميا ليس إلا ، فنحن كذلك لسنا سِوَى وهم من الممكن إلغاؤه دون المس بالواقع . إن النفي النظري للذاتية يتضمن التقويض العملي للإنسانية ، أو على الأقل ، يُمكّن من ذلك .

وليس هذا لأنه يخرب علم الأخلاق (L'ethiqe) ، فلبواعث نظرية ، لا بدّ من رفض الإيديولوجية العلموية لأن تعيين الظاهر كوهم ، هو الوهم في أقصى درجاته ، وذلك لِكَوْنِ كل ظاهر يقدم الرهان من ذاته بظهوره ، فهو في ظهوره ، أساس كل إثبات وكل حقيقة محتملة . وهكذا فقد بيّن هوسرل (Husserl)[1] في كتابه الكبير ،[2] والأخير أن المثاليات وكل مفهومات (conceptualisations) العلم تردُّنا حتما إلى هذا العالم المحسوس،وهي التي من مهامها شرحه ، وتتبني فوق أرضه المغطاة بادىء ذي بدء ، وتفترضه إذْ لا معاني لها إلّا بالنسبة إليه . وأكثر من هذا ، هذه المثاليات وهذه المفاهيم لا وجود لها في الطبيعة : ليس فيها مثلا لا دائرة ولا مربعا ، ولكن حلقات وخطوطا محسوسة من حيث أن أشكالها الهندسية تتصرف بسيرورة التفاكر (Ideation) . وهذا فعل شعوري من هذه الذاتية التي يزعم أنها وهمية والتي من دونها ينعدم العالم وصرحه المفهومي .

هناك المزيد . فبإحداثه الأس المعقول إنطلاقا من معطيات العالم المحسوسة التي سيوضحها ، نما العلم بكامله داخل تجربة العالم هذا الذي يفترض بنياته الأساسية : الفضاء ، الزمان ، السببية .. وبكلية قصوى ، يفترض العالم نفسه ، يعني فضاء الضوء هذا الممتد أمام أنظارنا ، وأفق الرؤية هذا الذي بداخله ينكشف لنا كل ما هو قابل للرؤية إما بأعيننا الجسمية أو الفكرية . وبعبارات أخرى ، نمت التجربة العلمية على امتداد تجربة الإدراك الحسّي ، وكهذه الأخيرة لم تعرف غير ـ (des ob-jets)[3] ـ (Ob-jet) معناه : وضع قدّام ... يصير مرئيا ، يظهر نفسه لنظرة متوقعة على نمط مؤداه أن « الوضع

---

(١) إدموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) : فيلسوف الماني ولد بـ « بروسنيز ـ Prossniz » منظّر « الظاهراتية المحضة » أو علم الجوهر . من مؤلفاته : « فكرة الظاهراتية » (١٩٠٧) ، « أفكار توجيهية من أجل ظاهراتية محضة وفلسفة ظاهراتية » (١٩١٣) ، « التجربة والحكم العقلي » (١٩٣٩) .

(٢) كتاب : أزمة العلوم الأوروبية والظاهراتية المتعالية

La Crise des sciences europeennes et la phenomenolohie tanscendentale, Gallimard, 1976 - Paris.
منشورات « كاليمار » ، باريس ، ١٩٧٦ . (المترجم) .

(٣) لا يقصد هنا جمع مصطلح Objet : الموضوع سيشرح هذا التقسيم Ob-jet بنفسه في الجملة الموالية .
نشير إلى أنّ المصطلح اللاتيني Objectum من Objicere يدل على معنى Jeter devant : « رمى إلى الأمام » . (المترجم) .

أمام ... » هو (L'obj-ectivie de l'ob-jet) أي خارجانية العالم خالق الرؤية وظاهرية كل ما يوجد على حال الموضوع (l'objet) هذا .

فماذا نقول عندئذ عن تجربة لا موضوع ولا عالم بها والتي تتخلص حمولتها من نظرة الإدراك الحسّي ومن نظرة العلم ؟ ومع ذلك ، فهذا هو جوهر الحياة التي تكلمنا عنها سالفا : الحياة الظاهراتية التي تحس وتدنو من نفسها ذاتيا وباطنيا من غير أن يتجوّف بينها وبين ذاتها فارق علم أو محل (Ob-jet) كائنا ماكان . حياة لا يتسنى رؤيتها ومعرفتها بالمعنى العلمي ولا ريب ، ولكنها على أي حال ، الأكيدة والصريحة مما يترتب عليه أن كل حب أو رغبة أو حس هو بالضرورة على قدر ما نحسه . هذا إذًا ما لا يعلمه العلم : حياتنا . هذه الحياة التي ليست شيئا (كما الحياة البيولوجية) بل هي المعرفة بعينها ، الأولى والجوهرية ، تفترضها سائر المعارف التي نعرف بها العالم (سواء أكان العالم المحسوس أو عالم المثاليات الهندسية ـ الرياضية) : فالرؤية والسماع والشم والفهم ما كان بوسعها أن توجد لو لم تكن قبل كل شيء أحياء ، لو لم يشعر بها باطنيا ولو لم تكن بالتالي تعرف ذاتها المعرفة اللاموضوعية واللامتخيلة في الفعل ذاته الذي به ترى وتسمع وتفهم ...

إن معرفة الحياة البدائية ، هذه لا تفعل شيئا آخر غير معرفة ذاتها ، لا غير في سلوكياتها البسيطة جدا ، في كل مهارة وفي كل فعل وفي كل تطبيق عملي (Praxis) .[١] فمعرفة تحريك العيون والأيدي وكذا القدرة على النظر والتناول ، كل معرفة تسكن جسدنا الذاتي الحي والمطابِقة لسُلطته هي من صميم الحياة . أما أن تكون هذه المعرفة الأولية البسيطة أساسية جدا وتمكّن من الأخريات ، فهذا هو ما يقتضي الاعتراف به ، إذ كيف نقرأ مؤلَّفا متطورا في الفيزياء أو البيولوجيا إذا لم نعرف أولا كيفية تقليب الصفحات بأيدينا وتصفّح النص بتحريك أعيننا ؟ إلا أن هذه المعرفة الساكنة في أفعالنا كافة لا تُدِين بأي شيء إلى المعرفة العلمية ، إنها تسبقها كشرط خفي غير ممكن تفاديه لكونها تلك التي أجازت للإنسانية أن تعيش وأن تبقى آلاف السنين على الأرض منذ البدء ، وقبل اختراع جاليلي للمعرفة العلمية في القرن السابع عشر .

إن هذه المعرفة الأساسية هي كذلك مصدر الثقافة بكل أشكالها والفن وعلم الأخلاق وشتى تعابير الروحانية ، في أسمى تطوراتها . فالفن مثلا يُدرج ثانيا ما

---

(١) Praxis :
أ ـ في الفلسفة الماركسية ، مجموع الأنشطة التي تسعى إلى تغيير العالم ، وبخاصة وسائل الإنتاج .
ب ـ في الوجود السارتري ، ما به يظهر الكائن في التاريخ . (المترجم)

وضعه العلم الجاليلي بين قوسين : الإحساس ، الذي يبحث في أكثر طرق إنجازه الأكثر قوة . أما علم الأخلاق ـ الغريب تماما عن ميدان العلم ، بحيث أن هذا الأخير ليس له بالتحديد ما يُعلّمنا حول ما يستوجب القيام به ـ فينبع من الحياة ، ومنها فقط . ولذا فبقدر ما نحس الحياة حالا باحتياجها المؤلم وفي كل معاشاتها فإنها تعرف ماهيتها ، ما تبتغي وما تنشد فعله وكيفية ذلك ، إذا صح التعبير أن معرفتها الفورية هي كل مهارة وكل تطبيق عملي ممكن .

الحياة ، أخيرا ، ترغب في ذاتها بذاتها (ولهذا ترفض الموت بقسوة ، هذا الرفض الذي هو أسّ كل الأخلاقيات ، وعلى الأرجح كل الأديان) . إنها تريد العيش أكثر ؛ الإحساس والفهم والحب أكثر، وفقا لرغبة الزيادة التي تتوطنها . ففي كل ما تقوم به ، في كل قدراتها ، تتوق إلى تحسّس نفسها بشدة وتسعى إلى سعادة كبرى . وسعادة العيش هذه تشكّل غايتها الوحيدة في كل مسعى ، وفي المشروع العلمي بخاصة ، والتقنية التي تجعلها ممكنة . أما حينما تنفلت هذه الغائية من قبضتها كما نرى ذلك الآن ، فإنها تتحول إلى تَطَوُّر وَحْشِي ذَاتي يُدشِّن بربرية من طراز جديد توشك الإنسانية أن تنقرض تحت ثقله ، أن تنتحر روحيا على أي حال .

فبين هذه الحياة الظاهراتية التي تحدّد وجودنا الأعمق والتي تحفز كل ما نستطيع القيام به والتي هي مَصْدَر كل معنى ممكن ، وبين العلم الذي يجعل من الكون المادي موضوعا (theme) ، لا يتعلق الأمر بإنشاء صراع ولكن مجرد الإقرار بفصل ميادين . وليس ثمّة وهم كبير أكثر من الاعتقاد بأن العلم سيتجاوز هذا الحد لو أن حياتنا اللامرئية أمسكت ذاتها كاملة خارج العالم حيث العلم يبحث ويعثر على كل ما يمكن العثور عليه . أما كيف نقدر على تناول خطاب (حول حياة غامضة لايمكن أن تشكل موضوعا ـ Objet) يتخلص من فهم العلم الجاليلي رغم ما يقدمه من صرامة تُقارن ومن حقائق ضرورية وقبلية على نمط الهندسة ، فهذه قضية أخرى ، لم تعد قضية هذا العلم وإنما قضية الفلسفة

● ● ●

● تحت رحمة الديون

بقلم جون شتاينبيرج

ترجمة : حسن عبدالمقصود حسن

في كفاح مستميت لخدمة[1] بلايين الدولارات من القروض ، تنقلب اقتصاديات العالم الثالث رأسا على عقب وتنزلق الأسر الى الهاوية

عادة ماتناقش أزمة دول العالم الثالث بلغة المال ـ بلايين الدولارات المدين بها ، وما يبدو في الأفق من عجز عن أدائها ، وأسعار الفائدة الخيالية ، وأخيرا ، فإن هذه المسألة تهمنا ، بطبيعة الحال ، لأنها تؤثر في اقتصاديات اليوم على الناس ـ كلنا أجمعين . إن أسوأ الأخطار المحدقة بالأمريكيين أمر محتمل ، ولكن بالنسبة لمئات الملايين من الناس في العالم الثالث ، فإن الإنهيار قد وقع فعلا ، مؤديا الى نتائج مدمرة ، ولا سيما للنساء من ربات بيوت ، وعاملات مصانع ، وفلاحات

لم يحدث ، في يوم من الأيام ، أن وجدت نساء العالم الثالث الحياة أمرا هينا ، فالفلاحات ، وهن الأغلبية الساحقة ، يقمن بالطهي والنظافة ، والمشي لساعات يوميا ، لجلب الماء والحطب ، ثم هن يرعين الأطفال والمسنين ، ويزرعن معظم المواد الغذائية لاستهلاك الأسرة ، ويبعن الفاكهة والخضروات ، والمشغولات اليدوية ، والدواجن أيام السوق ، ولأنهن لا يتقاضين أجرا لقاء هذا العمل المضني المتواصل ، فهو دائما ، عمل غير منظور في الاحصائيات الاقتصادية .

تروي لنا يو جويس ، المديرة السابقة لمجلة «المرأة» ، والمستشارة ببرامج هيئة الأمم المتحدة ، هذه الحقيقة : «في أمريكا اللاتينية وأجزاء من آسيا حيث المزارع الكبيرة ، يُستأجر رجل ، وليكن اسمه ، مثلا ، جوان فالديز ، لجمع البن ، فتتبعه الأم والأطفال يعملون خلفه . ولكن الأكياس هى أكياس «جوان» ، وهو الذى يقرر كيف ينفق المال الذى يحصل عليه . وقد يجتزىء بعضا من معاش أسرته ، لينفق

العنوان الأصلى للمقال :

AT DEBT'S DOOR by Jon Steinberg' Ms' Magazine November' 1989.

(١) المقصود هنا هو خدمة الديون . و(خدمة الدين : اصطلاح يقصد به اداء الفائدة عن دين تم الحصول عليه ، زائدا أية أقساط من الأصل حل أجل سدادها) ـ الموسوعة الاقتصادية ، د. راشد البراوى ص ٢٤٤ .

منه على مواصلاته وقضاء وقت فراغه خارج بيته ـ انه ليس مبذرا ، فنحن لا نتحدث عن آلاف الدولارات» ، مجرد زيادة طفيفة في تدخين «سجائر لف» في الهند ، مثلا ، ينجم عنها تخفيض كبير في الاحتياجات الغذائية للزوجات والأبناء .

وتقوم أسر آسيوية برمتها بصنع منتجات متقنة كالمظلات أو عجلات القيادة في أكواخها الريفية ، ولكن الزوج الذى يحصل على المال هو الوحيد الذى يوظَّف رسميا . وقد قصر مشروع للبنك الدولي في مالاوي «وظيفة» «مدير مزرعة» على الرجال حتى ولوكانوا بعيدين عنها يمارسون أعمالا تتطلب التنقل والترحال ، بينما تقوم زوجاتهم بالعمل من أوله الى آخره .

وقد بدأ المزيد والمزيد من الزوجات في القيام بكل العمل في السبعينات عندما تدفقت القروض على اكبر مدن العالم الثالث ، واتسعت مساحة نيروبى ، وبومباى ، ومكسيكو ، حينما تدفق المعدمون من الفلاحين للبحث عن عمل في المصانع الحديثة ، والورش الخلفية او للالتحاق بخدمة المحظوظين ، وذلك بغية الحصول على وظيفة ثابتة . وكان بعض هؤلاء «المغتربين» يعودون في العطلات الى قراهم ، ومعهم المال ، وربما راديو ترانزستور لزوجاتهم واولادهم الذين خلفوهم وراءهم ، ثمّ توقف الملايين منهم عن ارسال نقود لذويهم ، ولم يعودوا أبدا .

لقد تم «تأنيث» المجتمع الريفي على نحو كامل في بعض المناطق حتى ان قرى بأكملها لم يبق بها ، فعلا ، رجال اصحاء . وبحلول الثمانينات ، كان النساء يزرعن نصف الارض في العالم الثالث ، على الرغم من انهن يمتلكن أقل من ١٪ منها .

لقد زادت ، بحق ، كميات الطعام في كل انحاء العالم في السبعينات ، وشيئا فشيئا ، تقاطر مال كاف من قروض دولية للعيادات والمدارس والخدمات الأخرى ، فانخفضت معدلات وفيات الأطفال انخفاضا كبيرا ، وتلقى المزيد من الاطفال ، قل على الأقل ، بعض نصيب من التعليم . حقا لا نستطيع ان نسمي هذه الأوقات أوقاتا طيبة ، ولكن كان من الممكن أن تصير الى أسوأ . فعندما طفرت الديون المتزايدة ، أضيفت الى أعباء النساء التقليدية ضغوط جديدة لتطوير الصادرات ، وزراعة المحاصيل النقدية ، فاذا بالأسر التى كانت تقف على شفا الهاوية تبدأ في الانحدار الى أعماقها .

وفي ١٢ أغسطس ١٩٨٢ ، استدعى جيسس سيلفا هيرزوج ، وزير خزانة المكسيك ، آنذاك ، رئيس البنك الاحتياطى الفيدرالى الأمريكي ، ووزير الخزانة

الأمريكي ، ورئيس صندوق النقد الدولي ، لإبلاغهم أنه لم يكن أمام المكسيك من سبيل لتقديم ما يربو على ١١ بليون دولار قيمة الفائدة المستحقة على ديونها خلال ذلك العام ، ثم علق فيما بعد ، على تلك المحادثات وسلسلة الأحداث الناجمة في عبارة مقتضبة «لقد اختلف كل شيء ، بعد ذلك» .

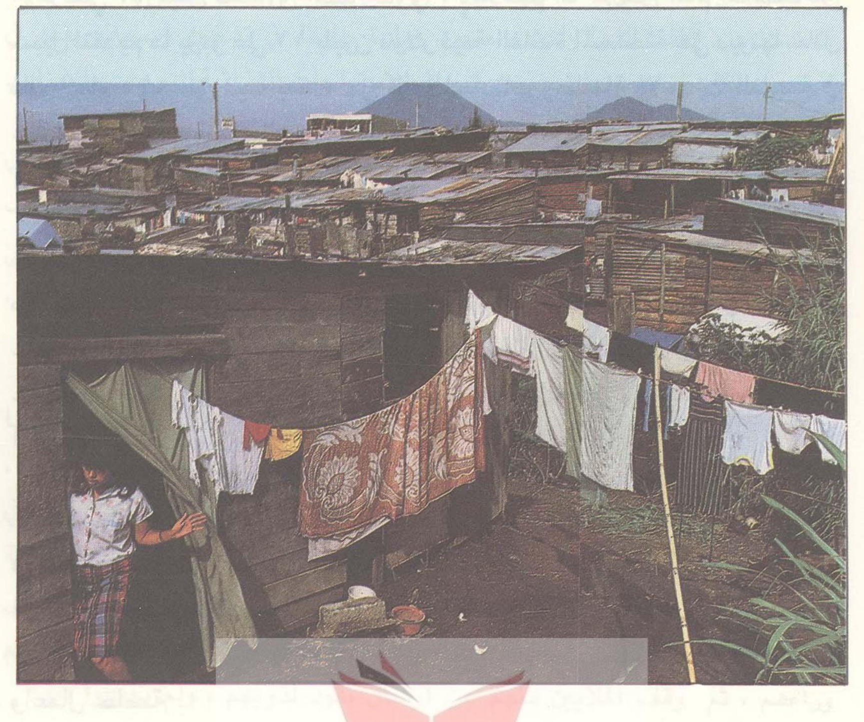
وكانت قلة قليلة من الدول الصغيرة قد عجزت تماما ، إلا من الناحية الاسمية ، عن اداء ديونها ، ولكن المكسيك ـ التى تضمّن دينها البالغ ٨٠ بليون دولار قروضا من أكبر تسعة بنوك أمريكية ، تقدر بنحو نصف حصة حملة أسهمها ـ أعلنت عجزها . ولم يكن وزير الخزانة المكسيكية بحاجة الى أن يذكرهم أن عجز المكسيك عن الوفاء يمكن أن يؤثر تأثيرا سيئا على تلك البنوك ، بل وقد يتبعها ، في ذلك ، اقتصاد العالم بأسره .

وعندما بدأت الديون الباهظة تتراكم على المكسيك وغيرها من دول العالم الثالث في السبعينات ، كان الأمر ، بالنسبة لها ، سهلا ـ تماما كمن يضيف قيمة فاتورة الى كشف حساب جديد . ونشطت البنوك المتخمة بفائض نقدها في إرسال ممثليها الى كل مدينة من مدن العالم الثالث يوجد بها ميناء جوي للترويج لأعمال حكومية وأعمال خاصة .

وراحت الأوساط المالية الدولية تقول لحكومات البلدان الاستوائية «أسعار الشيكولاته مرتفعة . ازرعوا المزيد من أشجار الكاكاو . سنقرضكم المال اللازم . يمكنكم أن تسددوا لنا من حصيلة أرباحكم من المحصول» . وفعلا رفعت دول العالم الثالث انتاجها من الكاكاو ، والنحاس ، والأحذية ، والسكر ، للتصدير .

وأخذ أصحاب البنوك يحثون المسئولين فيقولون «ولم لا تقترضون المزيد حتى تستطيعوا شراء السيارات أو الحافلات المستوردة التى تريدونها ـ أو الدبابات ؟» ولم يتوقف المقرضون عن تقديم القروض بمعدلات فائدة أقل بكثير من معدل التضخم عندما أتمت القروض الفنزويلية «جولتها السريعة» عائدة الى حسابات شخصية ببنوك نيويورك وجنيف ، بل ولا هم طالبوا بتخفيضات في الانفاقات العسكرية الفليبينية شرطا لتقديم أموال جديدة .

تقول كريستين بينديرت بمؤسسة «شيرسون ليهمان» المالية : «البنوك لا تقرض المال لتسترجعه ، لو أنها فعلت ذلك لبارت تجارتها . أفضل شيء بالنسبة لها هو أن تستمر أنت في دفع نسبة فائدتك البالغة ١٨ أو ٢٠ بالمائة . المشكلة تنشأ فقط عندما لا تستطيع حتى أن تفعل ذلك» .



ولقد بدأ هذا الأمر فعلا في عام ١٩٨١ حين رفع البنك الاحتياطي الفيدرالي أسعار الفائدة الدولية الى عنان السماء ، فإذا بالدول الصناعية تغوص في أسوأ كساد حدث بعد الحرب فتخفِّض واردات كل شيء بدءاً من النبيذ الجزائري الى الكوبلت الزائيري .

كانت المكسيك ، باعتبارها دولة مصدرة للنفط ، أسعد حظا من معظم الدول ، ولكنها كانت قد أفرطت في الاقتراض ، على افتراض أن عائدات البترول ستتوفر لسداد ديونها ، فعندما عاد سعر النفط الى الهبوط سعت الحكومة المكسيكية ، جاهدة ، الى الحصول على قروض اضافية للوفاء بأقساطها على تلال الدين الخارجي الذي بلغ في عام ١٩٨٠ ، ١٠٠٠ دولار على كل مكسيكي سواء أكان رجلا أم امرأة أم طفلا .

وكانت المكسيك ، شأنها في ذلك شأن الدول الأخرى التى تعاني عجزا ، قد لجأت الى صندوق النقد الدولي ، وهو مؤسسة إقراض ، وتشرف عليه وتموله ،

بشكل كبير ، الولايات المتحدة وكبريات حليفاتها من الدول الصناعية . والى جانب منح القروض ، فإن صندوق النقد الدولي يمنح شهادة بسلامة مركز الدولة من الناحية الائتمانية ، وبدون هذه الشهادة ، يصعب العثور على بنوك خاصة مستعدة للإقراض وبخاصة بأسعار فائدة قريبة من سعر السوق .

وعندما استدعى سيلفا هيرزوج ، وزير الخزانة ، ممثل صندوق النقد الدولي ، كان يعلم ان أى اعتمادات جديدة لا بد ان تكون رهينة بالتزام أكثر صرامة من الالتزام العادى ببرنامج الاصلاح الهيكلى الذي يفرضه صندوق النقد الدولي والبنك الدولى : تشجيع الصادرات ، وتخفيض المعونات الحكومية للأغذية وشركات القطاع العام ، والسماح بالاستثمار الأجنبي وتخفيض العملة لإصلاح الميزان التجاري .

على أن هذا النهج له آثاره الجانبية ، فقد رفع تخفيض قيمة العملة سعر الواردات ، الأمر الذى تمخض عن احداث تضخم . وقد أدت الاجراءات التقشفية التى حث عليها صندوق النقد الدولى الى إفلاس المئات من الشركات المكسيكية ، وبطالة عشرات الألوف من الناس . وخفضت الحكومة الواردات على نحو صارم حتى ان المكسيك حققت فائضا تجاريا لذلك العام ، ولكنه كان ما يزال أقل ببلايين الدولارات مما كانت تحتاجه لخدمة الدين . كان ذلك أشبه شيء بمحاولة صعود سلم آلي يتحرك الى أسفل بسرعة فائقة .

وفي الأيام التالية بدا للعيان ، أن صانعي السياسة المكسيكيين على استعداد لمقاومة شروط صندوق النقد الدولى . أطلق الرئيس جوزيه لوبز بورتيلو على الأزمة اسم «الطاعون المالى» ، وذلك في خطاب فترته الرئاسية الأخيرة حول «أحوال الدولة» : ان هذا الوباء ، كما كان يحدث في العصور الوسطى ، يصيب البلد تلو البلد . انه ينتقل بواسطة الجرذان ، ونتائجه هى البطالة ، والفقر ، وافلاس الصناعة ، والإثراء القائم على المضاربات . على أن أوزيه بورتيلو كان عليه ان يتخذ قرارا سريعا : أن يقبل الشروط الجائرة أو أن يأخذ الطريق الجذري ـ الغاء الدين .

لم يكن هناك بالنسبة للمحافظين ، مجال للاختيار ، فالانفكاك من الولايات المتحدة أمر صعب كصعوبة انفصال ولاية مينيسوتا ، مثلا ، عن الولايات المتحدة ، وكانت أصداء العبارات الشعبية مازالت تدوي ، ولكن جاء صوت صندوق النقد الدولى .... فكان الرد أن المكسيك تقبل شروطه .

ولكن صندوق النقد الدولى أراد أن يتأكد من أنه لا يمنح المكسيك بلايين الدولارات لمجرد أن تسدد قروضها المصرفية . وفي تحرك لم يسبق له مثيل ، طلب مدير عام صندوق النقد الدولى ان تسهم البنوك الخاصة المقرضة بتقديم ٥ بليون دولار اخرى بهدف التنمية ، بالاضافة الى موافقتها على تأجيل أقساط الديون القائمة ، وإلا انسحب صندوق النقد الدولى تاركا اياها غارقة في صكوك ديون معدومة . وقدمت البنوك ٥ بليون دولار ، ومنذ ذلك الحين ، تم ابرام اتفاقات لعشرات من الدول ، وكان كل اتفاق جديد يترتب عليه مزيد من إحكام قبضة الاجراءات الاقتصادية .

وتبين احصائيات مروعة بعض ما اعقب ذلك من معاناة وكبد ، فقد بلغ التضخم في الأرجنتين ١١٤٪ في شهر واحد ، وذلك في يونيه ١٩٨٩ ، وانخفض دخل الفرد بالمكسيك بنسبة ٤٠٪ منذ عام ١٩٨٢ . على أن مثل هذه الأرقام لا تظهر سوى انهيار الأسرة ماليا ، أما الدمار الأكثر قسوة فهو ما يحدث داخل الأسرة .

قد لا يكون معظم الفلاحين المكسيكيين قد سمعوا ، مجرد سماع ، عن اتفاق حكومتهم عام ١٩٨٢ مع صندوق النقد الدولى . ولكنهم سرعان ما لمسوا جميعا أن أسعار الأحذية وزيت الطعام كانت في ارتفاع متواصل ، بينما بقي الثمن الذى كانوا يحصلون عليه مقابل غلالهم ، كما هو . كان عليهم ، كى يرفعوا الانتاج ، أن يشتروا الأسمدة ، ولم يكن باستطاعتهم الاقتراض لشرائها ، اذ كان تمويل الحكومة يوجّه لمحاصيل التصدير . هؤلاء الفلاحون يظلون يرتدون ملابسهم حتى ينحل نسيجها وينحل الى درجة أن إبرة وخيط يحدثان به ثقوبا أكثر مما يستطيعان رتقه . وعندما تتضاعف أجرة الحافلة ، فإنهم يذهبون الى السوق مشيا على أقدامهم لبيع دجاجهم الذى لم يعودوا قادرين على تذوقه ، ثم يعودون الى بيوتهم خاويي الوفاض من علب الصلصة التى كانوا يشترونها من الجمعيات الاستهلاكية ، لأن السعر قد تضاعف مرات ومرات .

وتظل الأمهات يوزعن بعضا من نصيبهن من الطعام على صغارهن حتى يصيبهن الجوع بالسقم والدوار ، ولكن الاطفال الرضع يصبحون أكثر هزالا وأشد مرضا . وكل ما تستطيع الأم عمله هو أن تنظر وتبتهل - ثم تأخذ مزيدا قليلا من طعام بناتها لتضعه في أطباق أولادها . فلا غرو إذ تسود سوء التغذية ، في العالم الثالث ، بين البنات بأربعة أمثالها بين البنين . وقد أغلقت العيادات أبوابها نتيجة ما أجري ، في ميزانياتها ، من تخفيضات . وبعد سنوات من التدهور بدأ معدل وفيات الأطفال ، في العالم الثالث ، في الارتفاع . وطبقا لما تقوله بيجى

انتروبص عالمة الاجتماع ، بجامايكا ، فإن الأثر النفسى على المرأة وهى تشاهد هذه الآثار على أفراد أسرتها ، موضع تجاهل كبير من قبل صانعى السياسة والمخططين من الرجال .

كما أن للآباء ، في هذه المأساة ، نصيبا كبيراً ، ولكنهم غالبا ما يجدون مخرجا بالسفر الى الخارج عندما تبدأ الاحوال في التدهور ، ويُذكر أن معظم المكسيكيين الذين قد انسلوا عبر الحدود الى الولايات المتحدة هم رجال مستميتون لإطعام أسرهم .

وعندما يرحل الرجال ، فإن الأسرة تبقى ، إذ تمثل النساء كيان الأسرة وروحها ، فهن الحافظات للأواصر الاجتماعية التى تجعل الحياة آمنة ذات معنى ، فاذا ما تركن قرية آبائهن وأجدادهن ، فلا بد أن يكن مضطرات لذلك ، كما يفعل الآلاف منهن سعيا وراء عمل زراعى - حيث يواجهن الأجر المنخفض والعساليج التى قد تقتل صغارهن الذين يتعين عليهن أن يأخذنهم معهن الى الحقول - لا بد أن هؤلاء النسوة يعتقدن أن البديل الأوحد هو رؤية أطفالهن يتضورون جوعا .

إن الكثرة المتزايدة للنساء في المزارع لهي جزء من ظاهرة عالمية ، فالأزهار التى تشتريها في فيلادلفيا ، قد تأتيك من مزارع كولومبية تمثل فيها النساء نسبة ٧٠٪ من القوة العاملة . كما تبلغ نسبة النساء العاملات في زراعة التبغ بهندوراس نحو ٩٠٪ .

ومن المؤسف أن الكثيرات من الفتيات دون العشرين بالمكسيك ، وفي العديد من دول العالم الثالث ، يبدأن حياتهن الحضرية في ماخور . ولدى تايلاند البالغ عدد سكانها ٥٠ مليونا ، ٣٠٠٠٠٠ من البغايا ، وهن يساعدن ببلايين الدولارات في خدمة الدين الأجنبى .

تقول يوجويس «تمثل السياحة أكبر مصدر للعملة الأجنبية هنا ، وتقوم ، بمعنى الكلمة ، على أجساد النساء» . وتتعامى الحكومة ، وتروج للصورة السياحية في «أرض الابتسامات» . والبغاء منظم تنظيما دقيقا ، فالسياح يقابلهم مندوب وكالة سياحية «خدوم متفانية» ، فينقلهم بسرعة الى فندق فخم على الطراز الغربي حيث تجلب لهم النساء في غرفهم ، أو يذهبون الى غرفة بها منظار أحادي استقبال الصورة لينظروا ويقولوا «أريد رقم ٤٨» .

وقد وجدت ملايين نساء العالم الثالث الأكبر سنا بقليل ، خلال العقدين الماضيين ، عملا في تجميع أجزاء أجهزة الكمبيوتر أو اللعب في المدن أو في «مناطق

التجارة الحرة» ذات الرسوم الجمركية المخفضة . وكثيرا ما تخلو وظائف جديدة ، لأن تدهور النظر ، وتحريم عمل النساء المتزوجات ، والأجر المنخفض ، والتوتر الدائم ، يفُقد معظم العاملات وظائفهن عندما يبلغن سن الثلاثين . وعلى الرغم من ذلك ، تتنافس الشابات على هذه الوظائف . تقول باربارا آدامز ، وكانت عضوًا بمكتب خدمة الأصدقاء الأمريكى التابع لهيئة الأمم المتحدة : «يقينا لن يُرحَّب بي إن أوحيت اليهن أن أعمال التجميع هذه عملية مريعة ، وأنه ينبغى عليهن ألا يؤدينها . لو قلت ذلك لإحداهن لقالت لى : «ماذا تقترحين ؟ أيمكّننى أن آتى وأقوم بأعمال وظيفتك ؟ »

وتنزع الإجراءات المتخذة لزيادة الصادرات الى تضييق نطاق الاختيار الهزيل المتاح ، فقد أثقلت برامج الإصلاح التى يطالب بها صندوق النقد الدولى ، كاهل المصانع الصغيرة ، وأخرجتها من حلبة العمل ، وسرّعت خطى سير العمل في

حياة الصغار في مهب الريح

بعد العام العالمي للطفل الذى نظمته هيئة الأمم المتحدة بعشر سنوات أخذ عبء دين العالم الثالث والكساد ، يقع ، بثقل بالغ ، على كاهل الأطفال ويقول تقرير اليونيسيف بعنوان «حالة أطفال العالم عام ١٩٨٩» انه على الرغم من الاستخدام المتزايد للقاحات ، وعلاجات محلول الجفاف ، لمكافحة الآثار المميتة للإسهال ، واستعمال أساليب اطالة الفواصل الزمنية بين المواليد ، فإن ١٤ مليون طفل سيموتون ، دون داع ، هذا العام . ومازال أكثر من مليوني طفل يموتون سنويا بعدوى أمراض الجِهاز التنفسي الحادة التى يمكن اتقاؤها بسنتات زهيدة ثمنا للمضادات الحيوية لكل طفل . ومن المشاهد في الكثير من دول العالم الثالث أن متوسط وزن صغار الأطفال آخذ في الهبوط . يقول بيتر أدامسن ، محرر تقرير اليونيسيف ، أن انقاذ حياة الأطفال قضية عالمية ، وأن متطلبات الدين العالمي ، بالإضافة الى ما يسميه أدامسن «الظلم الفاحش» للتفاوت بين الأغنياء والفقراء ، وتقليص الحكومات لبرنامج الصحة والتعليم في الوقت الذى تعزز فيه النفقات العسكرية ـ كل هذه العوامل مسئولة ، إلى حد كبير ، عن الحالة المتدهورة لصحة الأطفال ، فقد انخفض الإنفاق على الصحة في ٣٧ من الدول الأكثر فقرا في الثمانينات بمعدل ٥٠٪ . ويؤكد ادامسن «ان السبيل الذى لا غنى عنه لإنقاذ حياة الملايين ، هو ، حتما ، الالتزام السياسي» .

تمارا زويك

المصانع الباقية . وتعلق كارين كراون الباحثة في الشئون النسوية بقولها «في الثمانينات صار عمل النساء أكثر ضعة ، وأقل تأهيلا للانتقال الى وظيفة أخرى . وعندما تتوفر فعلا ، برامج إعادة تدريب ، فإنها عادة ما تقتصر على العمال المهرة ـ الرجال .

أما بالنسبة لمن يستطيعون الاحتفاظ بوظائفهم ، فقد هبطت الأجور الحقيقية بنسبة ٢٠ أو ٣٠٪ ، بل وحتى بنسبة ٥٠٪ في دول كثيرة . ففي بيرو كان ثمن كيلو الارز في عام ١٩٨٠ يتطلب ١٧ دقيقة عمل ، وذلك بمقياس الحد الأدنى للأجور ، ثم صار ذلك يتطلب ، بعد أربع سنوات ، أكثر من ساعتين .

ويقول مارجورى ويليامز ، رجل الاقتصاد الجامايكى : ويرتفع سعر الدجاج ليتراوح بين دولارين وثلاثة للرطل الواحد في جامايكا ، بينما يبلغ متوسط الأجر الأسبوعى ١٢ دولارا لمن يحظون بعمل ما . هذه الأسعار ، مضافا اليها استبعاد الخدمات الاجتماعية ـ تضطر معها الأمهات الى البحث عن عمل في القطاع غير المشروع ـ بما في ذلك البغاء الذى ازداد على نحو كبير للغاية» .

وتهاجر آلاف الأسر ، أسبوعيا الى العاصمة مكسيكو ، غالبا للحاق بمهاجرين سابقين من قريتهم في مدينة من مدن الأكواخ . وكلمة «مدينة» ، هنا ، تسمية غير صحيحة لتجمعات من سكان يصل عددهم الى مليونين ونصف المليون نسمة ، وتعرف هذه المدن في عاصمة المكسيك باسم «المدن المفقودة» . وقد تضخم عدد سكان العاصمة الكبرى الى ١٨ مليونا ، ومن المتوقع أن يصل هذا العدد الى ٣٠ مليونا بحلول عام ٢٠٠٠ .

وعندما تصل أسرة قروية الى إحدى هذه المدن الضخمة في العالم الثالث ، يتوجب على كل فرد قادر على كسب أى شىء ، أن يبحث عن عمل له ، وسرعان ما تحيل الدخول البائسة ، والساعات الطويلة ، والأماكن المتباعدة التى يجدون فيها عملا ـ كائنا ما كان ـ تحيل الأسرة الى كيان هامشي لا يدعمه سوى حب الأم .

وتقول زليخا لوبيز كافالكانتى دى أوليفيرا ، عالمة الاجتماع البرازيلية : «يكاد يكون الشارع دائما مكان عمل الأطفال ، وأساسا ، مكان عمل الصبية ، بينما تبقى الفتيات بالبيت بديلا لأمهاتهن في الأعمال المنزلية والعناية بصغار الأشقاء» . وقد تخرج الأم الى الشارع لبيع الأطعمة البيتية ، ثم تقضى أمسياتها تكد وتكدح في أداء أى عمل تقدر عليه قبل أن تنهار تحت وطأة الإجهاد ، أو إن كانت الابنة

سعيدة الطالع ، فإنها تلتحق خادمة مقيمة بأسرة من الطبقة المتوسطة يكون فُتاتها أشهى من وجباتها بمنزلها هى . بيد أن العثور على العمل كخادمات صار امرا أصعب وأصعب ، ففى كل دول العالم الثالث تعرف النساء ـ اللاتى كن ، حتى عهد قريب ، في عداد الطبقة الوسطى معرفة مباشرة حياة فقراء المدينة .

أما بالنسبة لمن كانوا فقراء أصلا ، فقد جرّدهم التدهور في مستوى المعيشة لا من حياتهم التقليدية فحسب ، بل ومن كل المقتنيات التى أدخرتها الأسر على امتداد عشرات السنين ، «بدءا» ـ كما تقول الباحثتان البرازيليتان تيريستيا دى باربييرى وأورلاند نيادى أوليفيرا ـ «بالأجهزة المعطلة أو التى تعتبرها غير ضرورية ثم شيئا فشيئا يمكن الاستغناء عن كل شيء تقريبا : المقاعد ، والمناضد ، والموقد ، وأنابيب الغاز ، والأسرّة ، والملابس ، والأحذية ، والكهرباء ، والماء» .

وعلى الرغم من أن ذلك يبدو الآن أمرا لا يطاق ، فإن هذه المعاناة تتزايد باطراد يوما بعد يوم ، ولم تستطع سوى قلة قليلة من دول العالم الثالث خفض ديونها ، بل إن ما حدث ، فعلا ، هو النقيض تماما .

وفيما بين عام ١٩٨٢ ونهاية عام ١٩٨٨ دفعت المكسيك ٥٠ بليون دولار للدائنين بينما تزايد دينها البالغ ٨٠ بليون دولار ، ابّان ذلك ، الى ١١٠ بليون دولار . وتتكرر هذه المأساة نفسها في دولة إثر دولة ، وتهبط كل مؤشرات الصحة الاقتصادية والاجتماعية والبدنية والعقلية ، وتصبح الصناعة المتنامية الوحيدة هى حرفة البغاء ، أو في بعض البلدان ـ المخدرات .

● ● ●

وقد دفعت الولايات المتحدة هى الأخرى ثمنا للتقشف الذى طالب به صندوق النقد الدولى ، فقد تمخض نقص القدرة الشرائية في العالم الثالث عن انكماش السوق بالنسبة للمنتجات الأمريكية ، مما كلف الأمريكيين ضياع ١,٦ مليون وظيفة في عام ١٩٨٦ وذلك طبقا لبيانات اللجنة الاقتصادية المشتركة بالكونجرس .

وتقول كريستين بينديرت بمؤسسة «شيرسون ليهمان» المالية : «بصراحة ، لقد أذهلنى أن الشركات متعددة الجنسيات ، لم تستطع ممارسة المزيد من الضغوط على واشنطون لإيجاد حلول لذلك . وقد علق مايكل كامديسس قبيل تعيينه مديرا عاما لصندوق النقد الدولى في مقال له بقوله : إن كل أزمة دين خلال الـ ٢٥٠ سنة الماضية انتهت بالتضخم أو الإفلاس أو الحرب .



فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية يزدهر التنظيم الذاتى على يد النساء وسط ركام البنيات الاجتماعية التي دمرتها أزمة الديون . وقد طالب اتحاد «لاس بارتوليناس» ، وهو الاتحاد القوى لفلاحات بوليفيا ، نقابة العمال الوطنية بالاعتراف بمطالب المرأة . وقد حدث في مطار بامجكوك ان تظاهر جمع من النساء قوّمتهن مجموعة من الراهبات بأوسلو ، للتشهير بجولة سياحية جنسية قام بها رجال نرويجيون ، بأن حملن لافتات تحتج على استغلالهم لنساء تايلاند . وتقوم «نوادى الأم» في شرق أفريقيا بتقديم برامج تدريب تأهيلى ، وجمع المعلومات عن الأدوية العشبية قبل أن يغشاها النسيان . وقد نظمت النساء بمدن الأكواخ في ليما فروعا محكمة التنظيم لتوزيع الأغذية .

كما استعارت نساء بيرو وأخريات غيرهن أساليب تستخدمها حركة أنصار المرأة التى تشجع كل عضو على سرد خبراتها للمساعدة في صياغة الأهداف المنشودة ، وذلك على الرغم من استبعاد فكرة قراءة إحداهن لمقالة من مقالات الحركة النسائية الغربية ـ فكثيرات لا يستطعن القراءة إطلاقا . وقد بلغت هذه الجماعات من التلقائية حدا يتعذر معه حصر عددها .

وتهب ، أحيانا ، جماعات منهن ، في لحظة عنيفة متفجرة ، الى العمل ، بعد سنوات من الجلد الصبور . فعندما هز زلزالان مروّعان مدينة مكسيكو ، عام ١٩٨٥ ، سمع العمال الذين هرعوا لبعض المصانع لتقدير حجم الخسائر ، صرخات نساء دفنّ أحياء ، ورأوا فرق الإنقاذ تعمل مجموعة ـ لإنقاذ الآلات : ولقيت ٤٠٠ حائكة مصرعهن .

فكان أن كوّنت عاملات الأزياء الناجيات «نقابة حائكات التاسع عشر من سبتمبر» للإصرار على إنقاذ شامل ، ثم للمطالبة بظروف عمل أفضل . وانضمت اليها عاملات الأزياء ، بالآلاف ، وفازت النقابة باعتراف الحكومة . كان انتصارا نادرا لنقابة عمالية مستقلة في المكسيك ، ونصرا تاريخيا كبيرا إذا علمنا أن النساء لا يدرن سوى النزر اليسير من النقابات في أى مكان بالعالم .

وقد دفع الخلل الاجتماعى والفقر المدقع المزيد والمزيد من النساء المهاجرات من الريف الى اعتناق آراء راد يكالية مماثلة ـ آراء ماكن يفكرن فيها من سنوات قليلة خلت ، فإن لم تلق مطالبهن أذنا صاغية ، فقد لا يكون الزلزال القادم زلزالا جيولوجيا .

ووعدت حكومة ريجان بمنح المزيد من القروض العامة والخاصة للدول التى تبيع شركات القطاع العام ، وتفتح اقتصادها للأستثمار الأجنبي ، وحينئذ تستطيع هذه الدول ـ هكذا قيل ـ أن تنمو بسرعة كافية تمكنها من سداد ديونها .

وفي صورة أكثر تطورا ، تضمنت هذه الاستراتيجية النهوض بتغيير هيكلى لتحسين ظروف المرأة . وقد علقت باربارا هيرز رئيسة قسم المرأة والتنمية التابع للبنك الدولى ، والمنشأ منذ عامين بقولها : إذا أعطيت النساء فرصة التعليم ، والرعاية الصحية سيعود ذلك بالخير العميم على كفاءة الاقتصاد ، وعلى أطفالهن ، وعلى المجتمع .

على أن مثل هذه النتائج تستغرق سنوات وسنوات ، ولما كان الأمر يستلزم اجراءات جذرية ، فقد وضع نيكولاس ف . برادى وزير خزانة الرئيس بوش خلال شهرين من تولى منصبه ، الولايات المتحدة ، في جانب تخفيض الدين لأول مرة . وتتطلب خطة برادى من البنوك الخاصة المقرضة ان تختار بين إلغاء جزء من ديونها ، أو تخفيض معدلات فوائدها ، أو إقراض أموال اضافية ، فتحصل ، في هذه الحالة ، على الدعم لديونها المتبقية ، من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى اللذين يحصلان على الكثير من أموالهما من دافعى الضرائب الأمريكيين ـ ومن اليابان .

وطبعا ، مع الدين العالمي البالغ ١,٢ تريليون دولار ، والآخذ في التزايد ، لا تستطيع كل دولة أن تحصل على ضمانات الولايات المتحدة . ومرة أخرى بدت المكسيك المرشح الأول ، فقد واجه الرئيس المكسيكى كارلوس ساليناس دى جورتارى ، وهو من أشد أنصار تغليب القطاع الخاص ، وصلات أوثق بالولايات المتحدة ، واجه أقساط ديون مستحيلة . وحتى على الرغم من ذلك ، فقد استغرق الأمر عدة أشهر قبل أن توقع في النهاية ، الحكومتان المكسيكية والأمريكية ومفاوضون يمثلون نحو ٥٠٠ بنك خاص اتفاقا في يوليو .

وتتلقى المكسيك معاملة تفضيلية ، ولديها البترول لتصديره ، لذا إن لم ينجح تنفيذ خطة برادى في المكسيك ، فلا أمل في تقديمها حلاً عالميا ، ومن ثم تكون الدلالة غير طيبة .

وحتى على الرغم من أن اقساط المكسيك من الفائدة على ديونها ستنخفض ، فإن المكسيك ستواجه وقتا عصيبا في الوفاء بها ، ذلك لأن اقتصادها مازال متأزما ، فكما هو الحال في بلدان أخرى ، فإن خفض النفقات الحكوميةتضر

بالشركات الخاصة المكسيكية ، وتثبط همة المستثمرين الأجانب ...... ففى عام ١٩٨٦ لم تستثمر الشركات متعددة الجنسيات سوى نصف ما حولته من أرباح خارج البلاد . ويكاد يقتصر كل الاستثمار الأجنبى الجديد على توسيع أعمال السياحة والتجميع القائمة ـ وهذا لا يمثل أساس اقتصاد قوي متزن .

ولسوف يكون لزاما على الرئيس ساليناس أن يظهر لشعبه نتائج أفضل ، فلو فرض وكانت الأصوات في انتخاب العام الماضى قد فرزت بعدالة ، لكان من المحتمل أن يكون الفائز هو جوتيموك كارديناس ، وهو وطني يساري يطالب بتأجيل سداد الدين وإعادة توزيع الثروة القومية .

وفي هذه المرحلة يعتبر الكثيرون تأجيل سداد الدين أمرا مفرطا في اعتداله ، فهم يطالبون بالإلغاء الفورى ، وقد عبرت دومينجا فالاسكويز رئيسة اتحاد ربات البيوت من سكان مدن الأكواخ في لاباز ببوليفيا عن مشاعر الملايين بأمريكا اللاتينية بقولها «أنا لم أقترض المال ، ولا أريد أن أسدده» . ومع ذلك ، فإن دومينجا وآخرين يدركون جيداً أن فقرهم لم يبدأ بأزمة الديون ، وأن انهاء الأزمة لن يقضي عليه .

وتشير تشريل بيير ، خبيرة الاقتصاد السياسى الى الحل قائلة : «لن يستفيد فقراء دول العام الثالث إلا من التنمية الاقتصادية ، أو الإعفاء أو الإقلال من ديونها ، وذلك إن أولت حكوماتهم هذا الأمر اهتماما كافيا ، وإن استخدمت الشعوب قواها» .

ونستطيع أن نؤكد أن الكثيرين سيستخدمون قواهم تفاديا لدمار حضارتهم وحياتهم ، أما عن الصور التى ستتخذها وسائل دفاعهم فستقررها ، بقدَر ، استجابتنا نحن ، لحالتهم المؤلمة .

● ● ●

● المجال المغناطيسي للأرض

بقلم : نينا مورجان
ترجمة : أحمد وجيه حجازي

يوفر المجال المغناطيسي للأرض درعاً يحمي الحياة على كوكبنا من غائلة الإشعاع الشمسي الهائل . كما أن هذا الدرع المغناطيسي يوفر إحدى وسائل التوجيه لكل ما يدب عليه من حيوان وانسان .

يعتبر المجال المغناطيسي لكوكبنا في حالة تغير دائم ، ومن جهل هذه الحقيقة من الملاحين ، كان عرضة للمتاعب . ذلك أن الاضطرابات الكبرى التي تحدث في المجال المغناطيسي للأرض قد تكون سببا في تضليل الرحالة لاعتمادهم على البوصلات ، كما قد تكون سببا في جعل الطائرات تحلق خارج مسارها . فضلا عن هذا فإن مثل هذه العواصف المغناطيسية قد تلحق الدمار بتمديدات محطات القوى الكهربائية والاتصالات اللاسلكية .

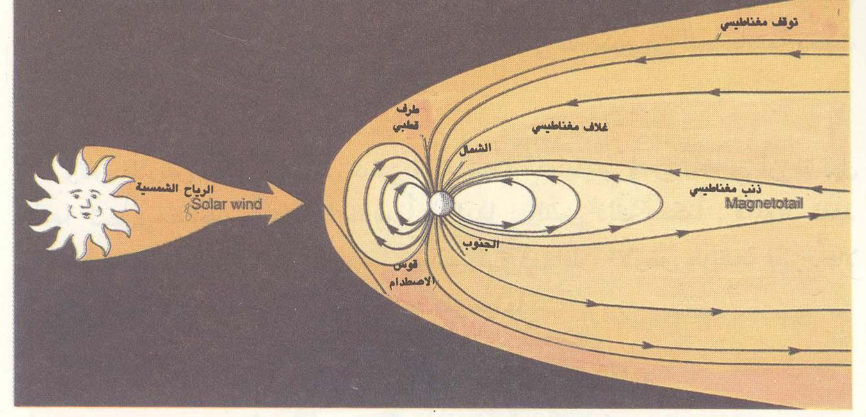
والمجال المغناطيسي للأرض هو السبب في جعل القطب الشمالي لإبرة بوصلة ما يتجه إلى الشمال ، والقطب الجنوبي لها يتجه إلى الجنوب . ومن طبيعة المغانيط أن القطب الشمالي منها يتجاذب مع الجنوبي ، والجنوبي يتجاذب مع الشمالي .

وتذكر لنا السجلات أن المجال المغناطيسي للأرض قد فقد من قوته ، خلال الأعوام المائة والستين الماضية ، ما نسبته ٧٪ ، ولو أن نسبة الفقد ، استمرت على هذا النحو ، لتلاشت القوة المغناطيسية في غضون ألفي عام . غير أن شيئا من هذا القبيل قد حدث من قبل . فهاهم علماء الفيزياء الأرضية (geophysicists) يذهبون إلى أن الاضمحلال الحالي قد يكون بداية دورة أخرى من دورات الانعكاس القطبي التي استقرؤوها من خلال السجل الجيولوجي للأرض ـ وفيها ينعكس المجال المغناطيسي للأرض فيصبح القطب الشمالي قطبا جنوبيا والجنوبي شماليا .

وقد اتخذت كلمة « المغناطيسية » مسماها هذا من معدن « المغنتيت » ـ وهو ضرب من أكسيد الحديد المغنط بطبيعته ـ اكتشفه اليونانيـون في بلدة

العنوان الأصلي للمقال :

The Earth Magnetic Field , by : Nina Morgan , New Scientist , 23 Sept . 1989 .



تشتت الأرض معظم الجزيئات المشحونة والاشعاعات الآتية من الشمس أو الرياح الشمسية بفضل المجال المغناطيسي الأرضي وتصل بعض الجزيئات الى الغلاف الجوي الأرضي فعلا عن طريق الأطراف القطبية .

« مغنسيا » (الواقعة حاليا في الأراضي التركية) . أما أقدم ما توفر لدينا من سجلات مدونة عن المغناطيسية فيعود تاريخه إلى ستمائة عام تقريبا قبل الميلاد . فلقد أدرك الصينيون أن القطع الصغيرة من معدن « المغنتيت » تتخذ اتجاها ثابتا إذا ما أتيحت لها حرية الحركة . وحين وضعوا قطعة من هذا المعدن على قش محزوم في غير إحكام ، كانوا بذلك أول من صنعوا أول بوصلة في التاريخ . وقد تطورت هذه الاداة إلى إبرة مثبتة من منتصفها على محور داخل صندوق . ذلك ما تقول به السجلات الصينية التي تعود ـ على أقل تقدير ـ إلى القرن الأول للميلاد .

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان الملاحون الغربيون يستخدمون البوصلة . وفي العام ١٦٠٠م ، وليس قبل ذلك ، تسنى للفيزيائي البريطاني ويليام جلبرت (William Gilbert) أن يدرك بأن الأرض نفسها تتصرف على نحو تبدو معه كما لو كانت مغناطيساً .

وللأرض مجال مغناطيسي شبيه بذلك الذي لقضيب مغناطيسي بسيط ، ويسمى المجال ثنائي الأقطاب ، لأن له قطبين مغنطيسيين على طرفيه المتقابلين . ويمكننا تخيل المجال باستخدام خطوط القوة التي تنبعث بين القطبين .

تقاس شدة المجال المغناطيسي للأرض بمقدار القوة المطلوبة للإحتفاظ بإبرة البوصلة في زوايا قائمة بالنسبة لاتجاهها الأصلي ، ذلك بأن تشير إلى الشرق والغرب بدلاً من الشمال والجنوب . وحتى في أقصى درجات شدته فإن المجال المغناطيسي للأرض يبلغ حوالي ٠,٠٠٠٠٥ تسلا (التسلا هي الوحدة الدولية لقياس كثافة التدفق المغناطيسي). وذلك أضعف مئات المرات من المجال بين قطبي

مغناطيس صغير على شكل حدوة حصان . إن مقاييس المغناطيسية (magneto meters) ، المستخدمة في قياس مجال الأرض ، لعلى قدر كبير من الحساسية بحيث أن ساعة اليد تصيبها بالاضطراب .

ولأن الأرض تعمل ، بسبل شتى ، كقضيب مغناطيسي فمن المغري أن نتخيل أنها تحوى مغناطيساً عملاقاً مدفوناً في لبها . وليس ذلك ممكناً : فالمواد تفقد مغناطيسيتها لدى إرتفاع حرارتها ، والحرارة في باطن الأرض مرتفعة بدرجة لا يمكن معها لأي مادة أن تحتفظ بمغناطيسيتها .

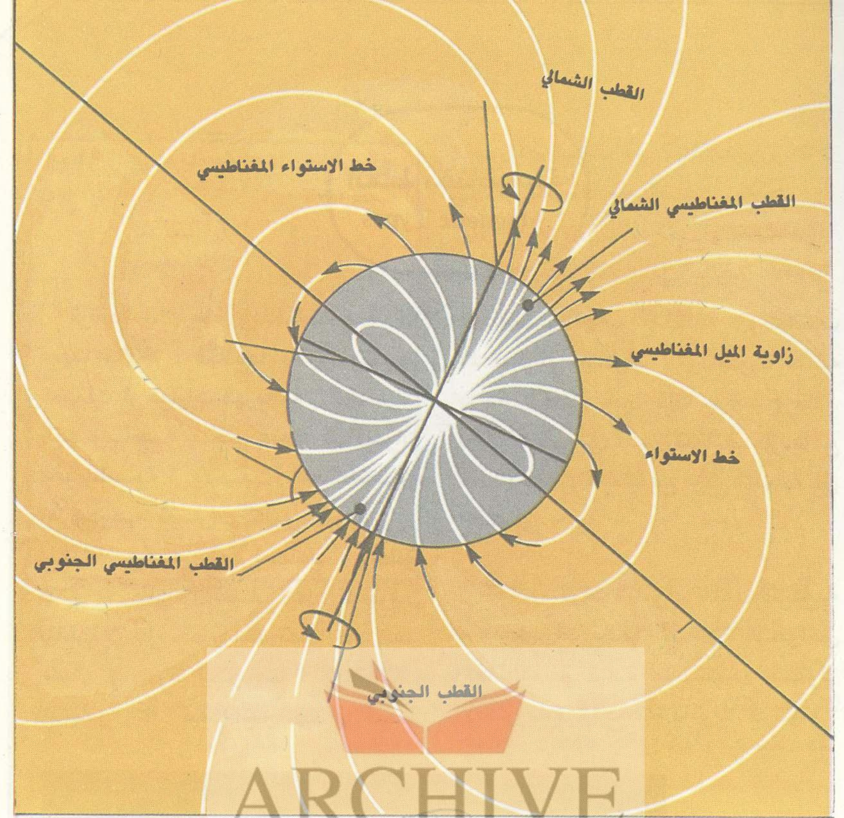
مولِّد عملاق بداخله تيارات كهربائية

إذا لم يكن هناك مغناطيس عملاق في باطن الأرض ، فما الذي يسبب المجال المغناطيسي إذن ؟ يعتقد العلماء أن الأرض تعمل كمولِّد عملاق ـ المولد الأرضي مُحَوِّلة الطاقة الحركية إلى طاقة كهربائية ، وأن المجال المغناطيسي للأرض يتَولَّد عن طريق التيارات الكهربائية العميقة في باطن الكوكب .

ومن المحتمل أن مجالنا المغناطيسي ينجم عن كتلة بطيئة الدوران ، وهي عبارة عن سبيكة من النيكل والحديد ، يعتقد الجيولوجيون بأنها تشكل اللب الخارجي للأرض ويبلغ سمكها ٢٢٠٠ كيلومتر ـ طبقة سائلة محصورة بين اللب الداخلي الصلب ووشاح الأرض الذي يقع تحت القشرة الأرضية .

إن اللب الخارجي السائل يتدفق على صورة تيارات حمل مدفوعاً بالاختلاف في الكثافة ودرجة الحرارة بين وشاح الأرض السفلى واللب الداخلي الصلب . وتتأثر الحركة في هذا الجزء من اللب بدوران الأرض والجذب « المد / جزرى » للقمر والشمس . وبالرغم من أن المادة المصهورة على قدر كبير من الحرارة لا يمكن معها أن تكون مغناطيسية بشكل فعلي ، فإنها موصل كهربائي مقارب للكمال .

ويعتقد العلماء أن المجال المغناطيسي الأرضي نشأ عن المجال الشمسي عندما تكَوَّن كوكب الأرض من سحابة غبارية تدور في حركة دوامية حول الشمس . وعندما مرت المادة الموصلة خلال خطوط القوة للمجال المغناطيسي الشمسي فإن الألكترونات اكتسبت قوة ، وبدأت في الحركة مولدة تيارا كهربيا ، وخلق التيار بدوره مجالاً مغناطيسياً ، الذي ربما كان بداية المجال الذي نعرفه الآن . وربما كان تدفق المادة الموصلة في اللب الخارجي ، هو الذي يولد المجال المغناطيسي الأرضي ويصونه ، والذي يقي الكوكب (الأرض) من المجال الشمسي حالياً .



يقع المحور المغناطيسي للأرض ، حاليا ، على زاوية مقدارها إحدى عشرة درجة (١١) بالنسبة لمحور دوران الكوكب . ومن ثم فإن القطبين المغناطيسيين الشمالي والجنوبي وكذا خط الاستواء المغناطيسي المتناظر معهما يختلفون عن نظرائهم الجغرافيين . وتتفاوت زاوية الميل ، أو الزاوية بين خطوط القوة وبين سطح الأرض ، عند خطوط العرض المختلفة . فعند خط الاستواء المغناطيسي تكون زاوية الميل صفراً ، وتكون عند القطبين المغناطيسيين ٩٠° درجة . ويختلف الحدور المغناطيسي أو الزاوية بين اتجاه القطب المغناطيسي الشمالي (أو الجنوبي) والقطب الجغرافي المناظر ، أيضاً بحسب مكانك . ذلك لأن المحورين المغناطيسي والجغرافي للأرض لا يتطابقان ولأن القطبين المغناطيسيين يتنقلان باستمرار .

والعلماء على ثقة من أنهم يفهمون التقنية الأساسية للمولد الأرضي . وللتوصل إلى ماهو أبعد من ذلك فإنهم في حاجة إلى المزيد من المعلومات عن باطن الأرض . ومن أسفٍ أنه ليس بمقدورهم أن يقوموا - كما أراد لهم « جول فيرن* » برحلة إلى مركز الأرض . ويحاول الباحثون فهم المولد الأرضي من خلال ملاحظة الكيفية التي يتغير بها المجال المغناطيسي عند السطح .

---

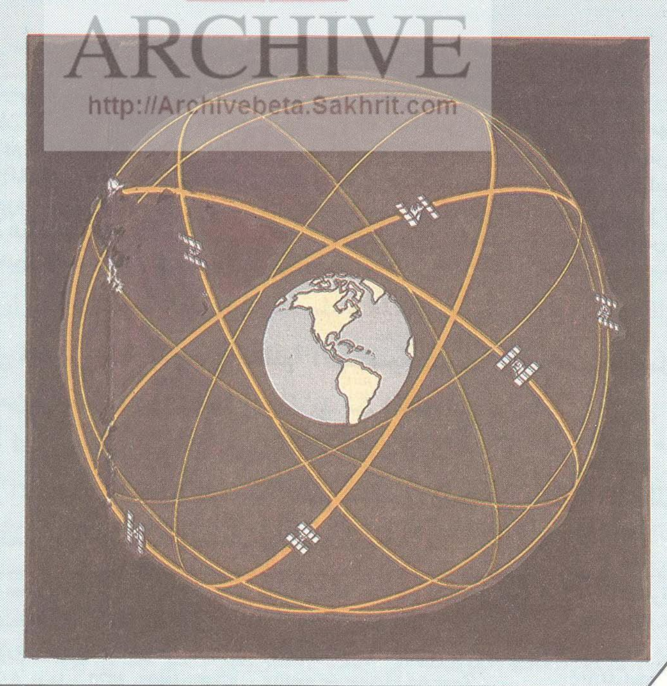
* جول فيرن Jules Verne (١٨٢٨ - ١٩٠٥) قصاص فرنسي ، وله عدد من القصص مزج فيها بين المغامرة والأفكار العلمية الشعبية . ومن هذه القصص :
١ - رحلة في مركز الأرض - . Voyage au Centre de la Terre
٢ - حول العالم في ٨٠ يوما . Tour du Monde en quatre - Vingts Jours, 1873

(المراجع)

أنماط مغناطيسية :
Magnetic Types:

ترتبط الكهرباء والمغناطيسية كلا منهما بالآخر . فكلاهما يقترن بتحريك شحنات أو تيارات كهربائية . فالتيارات الكهربائية تنجم عنها تأثيرات مغناطيسية ، وتُحدِث المغناطيسات المتحركة تيارات كهربائية . إن المغناطيسية هي قوة إتجاهية . وتطلق كلمة مصطلح الأقطاب على الطرفين المتقابلين على خط واحد تماماً كما صدر الحال في إبرة البورصة ، والأقطاب المتشابهة* على مغناطيس تتنافر فيما تتجاذب الأقطاب المختلفة . والقضيب المغناطيسي المألوف ، والمنثورة عليه برادة الحديد يبين ذلك بوضوح تام . فقوة الجذب بين قطبين تتناسب طرديا مع شدة المجال وعكسيا مع مربع المسافة بين القطبين .

تعمل ذرات المواد المغناطيسية كمغناطيسات بالغة الصغر . فالخواص المغناطيسية لمادة ما تتحدد بسلوك الالكترونات المحيطة بأنوية ذراتها .



فالكترون يتحرك حركة مغزلية حول نواة ذرة يشكل مغناطيسه الخاص ثنائي القطبين .. والالكترونات المزدوجة ذات الحركة المغزلية المتضادة تلغي التاثير المغناطيسي لبعضها البعض. وتنشأ الخواص المغناطيسية القوية فقط عندما يكون للذرة الكترون واحد على أحد مداراتها الداخلية، والذي لا يكون مزدوجا مع الكترون آخر له حركة مغزلية مضادة.

توجد ثلاثة انواع رئيسة للمواد المغناطيسية. وتعتبر المواد عالية الانقاذية المغناطيسية (Lenomagnetic) كالحديد والنيكل افضل المواد المغناطيسية المعروفة. فهي تصبح ممغنطة عندما توضع في مجال مغناطيسي، وتحتفظ معظمها بدرجة تمغنطها حتى بعد أبعادها عن المجال. أما المواد القابلة للمغنطة Paramagnetic كالنحاس والأكسجين فأنها تتمغنط فقط إذا ما وجدت في مجال مغناطيسي. أما المواد ضعيفة الانفاذية المغناطيسية (Diamagnetic)، التي تحتوي على موصلات فائقة فإنها تصبح ممغنطة في إتجاه مضاد للمجال المفروض عليها. في أي مادة ممغنطة، تنتظم الذرات في مساحات صغيرة للغاية أو حقول، فيها تصطف المجالات المغناطيسية للذرات. ومن الطبيعي أن تكون اتجاهات ممغنطة الحقول عشوائية. ويستوجب الأمر قدراً من الطاقة لنقلها حتى تصطف. إذا ما طرقت قضيباً حديدياً حال وجوده في مجال مغناطيسي، فانه يصبح أكثر تمغنطاً. وتشكل المادة التي لها بعض الحقول المغناطيسية المصطفة مغناطيسيا أفضل من أخرى تكون بها الحقول عشوائية الاتجاه. تفقد المواد مغناطيسيتها عند تسخينها، ذلك أن تصادم الذرات يخرج الحقول عن اصطفافها.

تتميز المواد عالية الانقاذية المغناطيسية بدرجة حرارة مميزة تسمى بنقطة كوري Curie Point، والتي إذا ما تعدتها فإنها تفقد مغناطيسيتها أو تغيرها. وتلك هي الكيفية التي بها عرف العلماء أن لب الأرض المكون من النيكل والحديد لا يمكن أن يكون مغناطيسيا بنفسه. فهو أعلى حرارة بكثير من نقطة كوري بسبيكة النيكل والحديد.

الشدة المغناطيسية ، زاوية الميل المغناطيسي والحدور المغناطيسي (الزاوية المتشكلة بين موقع الأبرة المغنطيسية والشمال الصحيح) ، كلها يعتريها التغير على مدار اليوم الواحد ، وعلى مدار فترات أكبر تغطى عشرات ، مئات أو حتى ملايين السنين . وترجع تلك التغيرات طويلة الأجل أو التغيرات القرنية إلى الحركات المتعلقة بالحمل الحراري ، التي تزود المولد الأرضي بالطاقة .

وقد تكون التغيرات في الحدور المغناطيسي مثيرة حتى وان كانت على فترات قصيرة نسبياً . فعلى سبيل المثال ، تبين القياسات التي أجريت في لندن خلال الأربعمائة عام المنصرمة أن الحدور المغناطيسي قد تغير من الشرق إلى الغرب وبالعكس ، تغيراً كلياً يربو على ٤٠ درجة .

الاستدلال على الطريق باستخدام البوصلة

Finding the way with a compass

أن تستدل على طريقك باستخدام البوصلة المغناطيسية لهو أسهل أسلوب للملاحة تم ابتكاره حتى الآن . وبإمكانك أن تستخدم البوصلة ليلاً أو حتى في الضباب ، والخرائط المغناطيسية هي المعيار الذي على أساسه بنيت الأدوات الملاحية للأقمار الصناعية وكذا الأجهزة اللاسلكية . ليس مهماً مدى الدقة في معرفة مواقع البداية والانتهاء ، فمن الجوهري استخدام بوصلة مغناطيسية لتحديد مسار من نقطة الى أخرى في جميع الأحوال .

تعتمد حتى الأنظمة الملاحية الحديثة والمتقدمة على المجال المغناطيسي للأرض الى حد ما . فالبوصلات الدوارة (gyro compasses) على سبيل المثال تحتوي على بوصلة مغناطبسية ضمن أنظمة تحكمها لتثبيتها ولمقاومة القوى التي يحدثها دوران الأرض . وربما تفتقر لأجهزة الارشاد الملاحية المعقدة - التي تعمل بمقارنة أشكال الاشارات اللاسلكية الصادرة عن اثنين أو أكثر من أجهزة الارسال الثابتة . قد تفتقر إلى الدقة عندما تؤثر العواصف المغناطيسية على الطبقة الأيونية وتبدل من شكل الاشارات اللاسلكية . لذا كان من الضروري بالنسبة لكل سفينة يتجاوز وزنها ١٥٠ طناً أن تحمل بوصلات مغناطيسية وخرائط . وتتطلب نظم النقل الجوي من الطيارين أن يكونوا قادرين على قيادة الطائرة بواسطة البوصلات المغناطيسية بدقة تصل إلى نصف درجة . وعلى أية حال ، فإن خطأً قدره درجة واحدة يعني أن الطائرة قد تحلق خارج مسارها بمقدار ٣٠٠ متر بعد دقيقة واحدة فقط .

وتتكون البوصلة المغناطيسية في أبسط صورها من إبرة مغناطيسية مثبتة بحيث تدور على محورها بحرية على مدى ٣٦٠ درجة . وأن يتاح لطرف الإبرة

ويحتاج الملاحون ؛ قاطبة - بدءاً من متسلقي الجبال إلى قائدي الطائرات - إلى الدراية بالحدور المغناطيسي . فالخرائط الجيدة توضح إتجاه الشمال المغناطيسي بالنسبة إلى الشمال الجغرافي كجزء من بيان المصطلحات في الخريطة . فإذا لم تضبط الحدور المغناطيسي على بوصلتك بشكل سليم عند بدء الرحلة ، فمن الممكن أن تجد نفسك في ذات الوضع المحرج الذي وقع فيه مظليو حلف شمال الأطلسي الذين استولوا بطريق الخطأ على القرية غير المقصودة خلال إحدى المناورات العسكرية .

أما التغيرات ذات المدى الأقصر ، في المجال المغناطيسي للأرض والتي يصعب كثيراً التنبؤ بها ، فتنجم عن التقلبات العنيفة والعواصف المغناطيسية في الفضاء .

الباحث عن الشمال أن يشير بحرية إلى الجنوب المغناطيسي . وترجع القيمة العظمى للبوصلة المغناطيسية إلى إمكانية الاعتماد عليها وتلك ميزة أصيلة فيها - ، وتحررها من كل أشكال التشوش ، وبساطتها .

بالرغم من أن إبرة البوصلة سوف تشير دائماً ، وبشكل يعول عليه ، إلى الشمال المغناطيسي فإن موضع الشمال المغناطيسي يتحرك دائماً كنتيجة للتقلبات التي تعتري المجال المغناطيسي للأرض فإذا شئت أن تصل الى موقع جغرافي محدد ، يتعين عليك أن تعرف القيمة المحلية للحدور المغناطيسي . ومن هنا كان لخريطة دقيقة للمجال المغناطيسي قيمتها الجوهرية .

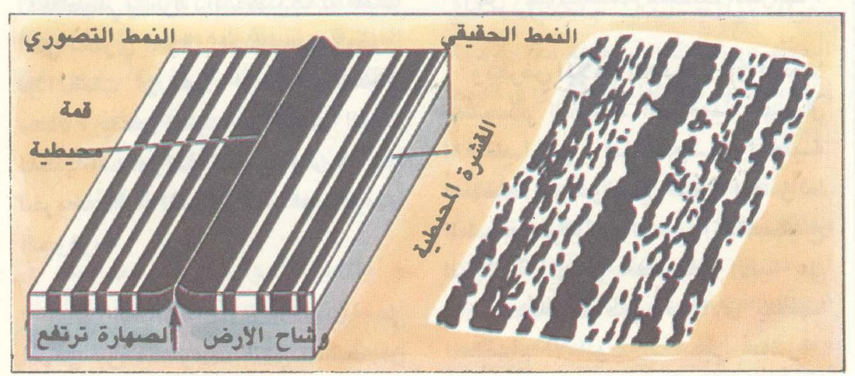
تبنى الخرائط المغنطيارضية على أساس من المعلومات التي تستمد من شبكة مراصد عالمية الانتشار ، والتي تقيس القيمة المطلقة للمجال المغنطيارضي كل بضعة أيام وتسجل التغيرات التي تعتوره بشكل مستمر . ويتم وضع الخرائط العالمية للمجال المغنطيأرضي مرة كل خمس سنوات ، ولكن حيث أن المجال المغناطيسي يتغير باستمرار ، فإن الخرائط الرئيسة للمجال تصبح عتيقة الطراز قبل نشرها . وتستخدم نماذج للتغيرات القرينة والتغيرات طويلة المدى والتي تحدثها التغيرات في تيارات الحمل في باطن الأرض ، كما تستخدم لتحديث الخرائط .

وبغرض الملاحة العادية ، فإن أحدا لا يستخدم الخرائط الواقعية للمجال المغنطيأرضي . فالمعلومات المحلية تُستخلص وتوضع ضمن الخرائط الطوبوغرافية والبحرية كتصحيح للبوصلة . ولكن الحاسبات الآلية على متن الطائرات بعيدة المدى يمكنها استخدام الأسلوب الحسابي مباشرة . ويستخدم ذلك النظام الملاحي على متن مكوك الفضاء الأمريكي .

ويمتد المجال المغناطيسي للأرض مسافة تصل إلى ٦٠,٠٠٠ كيلومتر في الفضاء الخارجي . غير أن المجالات المغناطيسية لبعض الكواكب ـ كالمشتري ـ أقوى من المجال المغناطيسي الأرضي بعدة مرات وتفوقه من حيث الانتشار ، بل ويمكن أن تؤثر عليه . وللشمس ، أقرب النجوم إلينا ، التأثير الأعظم على المجال المغناطيسي الأرضي . وتقوم الطبقة المغناطيسية ، وهي المنطقة التي تخضع لتأثير المجال المغناطيسي للأرض ، على حمايتنا من الإشعاعات الشمسية الضارة وذلك بإبعاد سيل الرياح الشمسية التي هي فيض من الألكترونات والبروتونات المتدفقة من الشمس في سرعات تفوق سرعة الصوت .

تدور الشمس حول نفسها مرة كل ٢٧ يوما ، وكذلك مجالها المغناطيسي ، ربما بسرعة دوران أكبر قليلاً ، كما أن البقع الشمسية والانفجارات الشمسية تبث





يتأتى مجالنا المغناطيسي من النيكل والحديد في اللب الخارجي . وعلى السطح تتكون الحمم على قمم في أواسط المحيطات . وتبين الخطوط البيضاء والسوداء تفجر الصخور في عصور المغناطيسية « العادية » و« المنعكسة » ؛ ان ذلك النموذج متطابق تقريبا .

إشعاعات إضافية وجزيئات مشحونة تتخذ سبيلا لولبيا في ابتعادها عن الشمس ، تماماً كاندفاع الماء من خراطيم دوارة . وحين تصل هذه الإنفجارات الإضافية في الرياح الشمسية إلى الأرض ، تحدث إضطرابات في الطبقة المغناطيسية للأرض .

وقد تسفر الاضطرابات التي تقع أثناء عاصفة مغناطيسية عن نتائج مثيرة مثل إبتلاج الفجر في سماء المناطق البعيدة عن خط الاستواء . أما الاضطرابات الضخمة فتفسد الاتصالات الهاتفية واللاسلكية وخطوط القوى الكهربائية ، كما تفسد البث التلفزيوني وأنظمة الملاحة الرادارية واللاسلكية . ففي مارس من عام ١٩٨٩م أدت عاصفة مغناطيسية عاتية إلى قطع التيار الكهربائي عن ستة ملايين نسمة في « كويبك » (Quebec) بكندا ، والى تعطيل إحدى محطات الطاقة النووية لمدة ٤٢ ساعة .

ويمكن للاضطرابات المغناطيسية أيضا أن تؤدي إلى انحراف البوصلات بمقدار درجات عديدة متسببة في خروج السفن والطائرات بعيدا عن مساراتها . أما بالنسبة لسفن الفضاء ، المكشوفة في الفضاء ، فإن العواقب غالباً ما تكون شديدة الدمار : فالعواصف المغناطيسية قد تقطع الاتصالات ، وتحرق الالكترونيات وتعمل على اثارة مجموعة الدارات الكهربائية المسؤولة عن القيادة على نحو زائف ، بالاضافة إلى تعريض رواد الفضاء إلى معدلات عالية من الاشعاع . ويمكن للعواصف المغناطيسية أيضاً أن تجعل الغلاف الجوي للأرض أكثر كثافة ، الأمر الذي يؤدي إلى تخفيف سرعات الأقمار الصناعية وتغيير مداراتها . ويمكن أن يؤثر ذلك تأثيراً خطيراً على دقة أي أنظمة ملاحية تعتمد على مسارات الأقمار الصناعية . خلال العواصف المغناطيسية العاتية فإن الأقمار الصناعية في نظم الملاحة والتي تستخدمها الخطوط الجوية التجارية لدى الهبوط ، تتباطأ وتفقد مواقعها الدقيقة .

بالرغم من عجزنا عن اتخاذ أي إجراء تجاه تلك التغيرات الخطيرة الكامنة في المجال المغناطيسي الأرضي ، فإنه ينبغي لنا أن نأخذ الحذر ، فرب حذر منع من قدر .

ففي بريطانيا ، على سبيل المثال ، تقوم هيئة المسح الجيولوجي البريطانية ، وحتى لحظتنا هذه بتزويد العلماء ورجال الصناعة بأدق المعلومات المتعلقة بالمجال المغناطيسي الذي يتغير بصفة دائمة ، فضلاً عن تزويدهم بالتنبؤات اليومية خلال مستوى النشاط الجيومغناطيسي .

المغناطيسية القديمة : مفاتيح اللغز في الصخور :
Palaeomagnetism : Clues in the Rocks :

ومع أن التغيرات قصيرة المدى التي تطرأ على المجال المغناطيسي الأرضي قد تكون مفجعة ، إلا أنه من الضروري التوصل إلى أكثر عمقا لمواجهتها ، وفي هذه الحالة لابد أن نعود إلى الوراء ونأخذ بعين الاعتبار المجال المغناطيسي البدائي Palaeomagnetic أو المجال المغناطيسي الضارب في القدم ، والمحفوظ في الصخور العتيقة .

إن المعادن التي تحتوي على الحديد تصبح ممغنطة وحاملة لنفس قطبية المجال المغناطيسي الموجودة فيه حال تكونها . فعلى سبيل المثال ، معدن المغنيتيت ، وأكثر أكاسيد الحديد مغنطيسية ؛ يتبلر داخل الصخور البركانية لدى برودتها . وجدير بالذكر الصخور التي تبرد وتتصلب سريعا (قريبة كانت من سطح الأرض

الملاحة الحيوانية
Animal navigation

تعتمد الحيوانات أيضاً على المجال المغناطيسي الأرضي ملاحياً . ويقترح العلماء بأن الحمام يستخدم المجال المغاطيسي في الاستدلال على طريق العودة الى موطنه ، وتسترشد انواع اخرى من الطيور بالمغناطيسية لتحديد إتجاه هجرتها إذا لم يتوفر لها مرشد آخر ، كما في الحالات التي تتوارى فيها الشمس خلف السحب .

ولبعض الحيوانات ، بما فيها النحل والحمام وسمك السلمون حبيبات من المغنيتيت داخل أجسامها . وقد ظن العلماء في بادىء الأمر أن تلك الحبيبات تعمل كبوصلات مصغرة . ولكن حاليا فإن الأمر الذي يبدو اكثر ترجيحا أن تلك الحبيبات تتيح للحيوانات إدراك شكل التغيرات المغناطيسية ، أو الشذوذ المغناطيسي ، على سطح الأرض . وتستغل اوجه الشذوذ المغناطيسي هذه كنوع من الخرائط .

وجد علماء الأحياء أن لدى الطائر المسمى بـ « آكل الذباب » المرقط حساسية للتغيرات المحلية الحادة في المجال المغناطيسي للأرض . وقد دلت التجارب التي أجريت على النحل والحمام انه إذا ما شُوِّشَت أجهزة الحس المتضمنة فيها من جراء عاصفة مغناطيسية على سبيل المثال ، فإنها تضل طريقها بالفعل .

وعلى الرغم من أن العلماء لم يثبتوا بعد وبشكل قاطع كيف يعمس « الحس » المغناطيسي لدى الحيوانات فإن جميع الشواهد تشير إلى وجودها . ومن الممكن ان يثبت في النهاية أن لكل موقع على الأرض « بصمته المغناطيسية » .

وفوقه) ـ كالحمم البركانية تعطينا أدق صور فوتوغرافية للمجال المغناطيسي في العصور القديمة. وتبرد الصهارة أو الصخور المنصهرة، على نحو أكثر بطئا عندما تتصلب عميقاً في باطن الأرض، حيث تكون منضغطة بين الصخور الأخرى. وتسجل مثل هذه الاسترسابات (الصخور المقحمة في طبقات صخور أخرى) العميقة، معدل الاتجاه للمجال المغناطيسي لدى تجمد الصهارة. ويمكن للصخور الرسوبية، كالأحجار الرملية، أن تعطي دلالة على المغناطيسية القديمة. فإذا ما استقرت الجزيئات المغنطيسية في الثفالة (المادة المترسبة) فإنها تميل إلى ترتيب نفسها حسب الأقطاب المغناطيسية في شكل مواز لخطوط المجال في ذلك الوقت.

اكتشف العلماء القائمون على دراسة المغنطيسية القديمة إنعكاسات في قطبية المجال المغناطيسي الأرضي، بحيث أصبح الشمال المغناطيسي جنوبا والعكس بالعكس. وقد حدثت هذه التغيرات القطبية مرات كثيرة نسبيا على مدار العصور الجيولوجية. وقد كان هناك تسع تغيرات قطبية رئيسة على الأقل على مدار الأعوام الثلاثة ملايين وستمائة ألف (٣,٦ مليون سنة) الماضية.. وقد وقع أحدثها منذ ٧٣٠,٠٠٠ سنة فقط. وتقع الانعكاسات القطبية في الشمس أيضا. فدورة النشاط الشمسي التي مقدارها ١١ عاماً (كالبقع الشمسية) ليست في الحقيقة سوى دورة انعكاس في المجال المغناطيسي للشمس.

وبالرغم من أن التغيرات القطبية على الأرض قد حدثت مرات عديدة في العصور الجيولوجية الماضية، فإنها لا تحدث على نحو فوري. وحاليا يقدر علماء فيزياء الأرض الفترة التي يستغرقها إنعكاس نموذجي بحوالي ١٠٠٠ عام. ويكون المجال المغناطيسي الأرضي خلال هذه الفترة غير مستقر، ولكن لا أحد يعرف على أي شكل يبدو المجال أو كيف يتغير على وجه الدقة. وتشير القياسات التي أجريت على المجال من خلال الصخور المتكونة خلال إنعكاسات قديمة، إلى أن قوة المجال قد تصل إلى ١٠٪ فقط من قوته عندما تكون القطبية في حالة استقرار.

لماذا تحدث الانعكاسات؟ ماذا يحدث للمجال المغناطيسي للأرض الآن؟ في السنوات الحديثة قام علماء فيزياء الأرض بتحليل المعلومات التي تتعلق بالمجال المغناطيسي والتي سجلت بين ٣٠٠ إلى ٢٠٠٠ سنة مضت. وهذه المعلومات تدعم الفكرة التي بحثها عالم الفلك البريطاني «ادموند هالي» (Edmund Halley) في أواخر القرن الخامس عشر. وعلى ما يبدو فإن المجال المغناطيسي للأرض ينحرف في اتجاه الغرب بمعدل درجة واحدة كل خمسة أعوام. ويعتقد علماء فيزياء الأرض

الآن بأن هذا الانحراف قد يكون مرتبطا بتدفق مصهور لب الأرض الخارجي غرباً بالنسبة لوشاح الأرض. ويوحي المعدل الذي به يتغير المجال المغناطيسي بأن مصهور لب الأرض يتحرك بسرعة تبلغ ٩٠ مترا في اليوم. وتوضح قياسات الكثافة أن المجال المغناطيسي للأرض آخذ في الضعف وأنه قد تناقص بمقدار ٧ ٪ منذ عام ١٨٤٥م.

ولقد كانت الانعكاسات في المجال المغناطيسي في العصور الجيولوجية الماضية تعقب نوبات ضعفـــه. ويؤكد سجل التغير على مر القرون أن المجال المغناطيسي للأرض آخذ في الضعف حالياً كما ويقدم الدليل على الآلية التي بوسعها تغيير قطبية الدينامو الأرضي: اضطراب في تدفق لب الأرض الخارجي.

ترى هل نواجه مثل هذا التغير في وقتنا الحاضر؟

إذا كان الأمر كذلك، فما الذي سيحدث لدرعنا الواقي ضد الرياح الشمسية؟ شيء واحد مؤكد من خلال السجل الأصفوري، ألا وهو أن الحياة على الأرض قد اجتازت مثل تلك التغيرات في الماضي. أمّا ما سوف يحدث للحياة الانسانية ولحضارتنا لدى التغير المقبل فلا يمكننا أن نكون على يقين منه.



• • •

● موجهات الضوء ذات الشق

بقلم : يو ايزنبرغ
ف بياتيغورسكى
غ . بوشمان
ترجمة د : مظفر شعبان

من المألوف ان يلاحظ الانسان الأشياء التي يعتاد عليها . وأحد هذه الأشياء هو الانارة الكهربائية (Electrical Lighting) التي أصبحت جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من الموجودات المحيطة خلال أقل من ١٠٠ سنة منذ أن أكتشف المصباح المتوهج (Incandescent Lamp) . وشبكات الانارة الكهربائية هي الأنظمة المستعملة اليوم انتشاراً وتشعباً . وهناك أكثر من ٢,٥ مصباح لكل نسمة في العالم و ٣ ـ ٥ مرات هذا الرقم في الدول المتقدمة . والانارة الكهربائية تستهلك ١٠ ـ ٢٠ بالمئة من كل الطاقة الكهربائية المولدة ، أو بشكل تقريبي تمثل ٤ ـ ٥ بالمئة من الطاقة الأولية الاجمالية للوقود المستعمل .

يستهلك الاتحاد السوفياتي سنوياً أكثر من ٢٠٠ مليار كيلووات ساعي من الطاقة الكهربائية في أغراض الانارة . وهناك أكثر من ٢,٥ مليار مصباح وأكثر من ٨٢ مليون جهاز انارة (Luminaire) تصنع سنويا . وبالرغم من ذلك فإننا لم نصل بعد إلى المستوى الفيزيولوجي المثالي للانارة الذي يجب ان يكون في معظم الحالات ٥ ـ ١٠ مرات المستوى الحالي . وهذا يعني ان المخزون الحالي من أجهزة الانارة ، الذي بلغ حالياً ١,٣ مليار جهاز ، يجب توسيعه أكثر ، كما ويجب توظيف رأس مال اضافي في صناعة أجهزة جديدة وتركيبها وصيانتها وهذا هو الأهم . ومهما كان العمر المفيد للمصابيح الحديثة طويلاً فلابد من استبدالها بمصابيح جديدة فأجهزة الانارة تجمع الأوساخ والغبار خلال التشغيل مما يستوجب تنظيفها دورياً . فالعملية هذه يجب اجراؤها ـ غالباً ـ على ارتفاعات عالية أو في أماكن يصعب الوصول إليها . وكما بينت الحسابات فإن القطاع الصناعي السوفياتي وحده يحتاج إلى ١٧٥ ألف عامل لخدمة معدات الانارة فقط .

العنوان الأصلي للمقال :
Slit Lightguides, by : Yu, Eisenberg, V. Pyatigorsky and G. Buchman, " Science In The USSR" July — August, 1988.

إن العدد الهائل - والمتزايد باستمرار - لأجهزة الانارة (تحتوي المنشأة الصناعية المتوسطة ١٥ - ٢٠ ألف جهاز إنارة ، بينما تحتوي المنشآت الضخمة مثل معمل سيارات لادا مثلاً ٢٥٠ ألف مصباح) ، يتضارب مع امكانية صيانتها وخدمتها . والوضع يكون أسوأ ما يمكن حيث ينتشر الغبار والرطوبة أو المواد الضارة كيميائيا بالاضافة إلى الأماكن المعرضة لخطر حدوث الانفجار أو نشوب الحريق . وتحت مثل هذه الشروط فإن الخدمة السيئة تؤدي إلى تعطل أجهزة الانارة ، ويتلازم ذلك مع ظهور حالات طوارىء جدّية للغاية .

ماهو المخرج من مثل هذا الوضع ؟ كيف يمكننا انقاص عدد أجهزة الانارة والحد من اتساع الشبكات الكهربائية ومنع التزايد الهائل في التكاليف المبذولة على الانارة ؟

المخرج

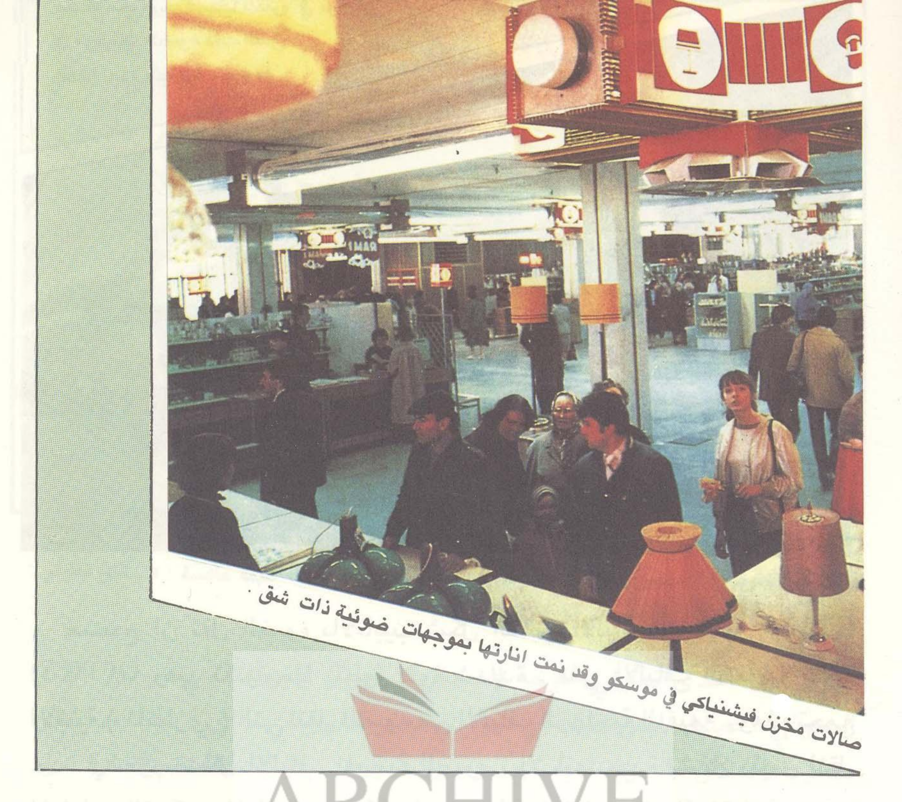
إن الطرق التقليدية لا تنجح بتقديم الحل للمسألة المطروحة . فإذا أنقصنا عدد المصابيح فعلينا أن نزيد استطاعة كل مصباح ، فتزداد الاضاءة الصادرة عنه فنزيد المسافة الفاصلة بين مصباحين متجاورين . إلا أن ذلك سيؤدي إلى نقصان حاد في نوعية الاضاءة ومردودها (كفاءتها) كما تؤدي زيادة الضوء إلى زوغان البصر ، ويقل انتظام الانارة كمّاً ، وتقل قدرة تجهيزات الانارة وبالتالي انتقاص مدة صلاحية المصابيح .

من حيث المبدأ فإنه يمكن حل المسألة كما يلي :

إن الضوء الناتج عن عدد قليل من المصابيح القوية يجب إعادة توزيعه في الفضاء بحيث يتم الحصول على الاضاءة المنتظمة الخالية من الوهج . وبالتالي فإن منابع الضوء الجديدة يجب ان تكون ذات سطوح اضاءة واسعة وذات وهج منخفض ، وان تكون المصابيح المستعملة مركّزة في عدد صغير من النقاط التي يمكن الوصول إليها بسهولة .

والحل غير التقليدي يستدعي أيضاً استعمال أنواع جديدة من المصادر الضوئية ، ويتطلب موادا جديدة وطرقا مبتكرة في الانتاج .

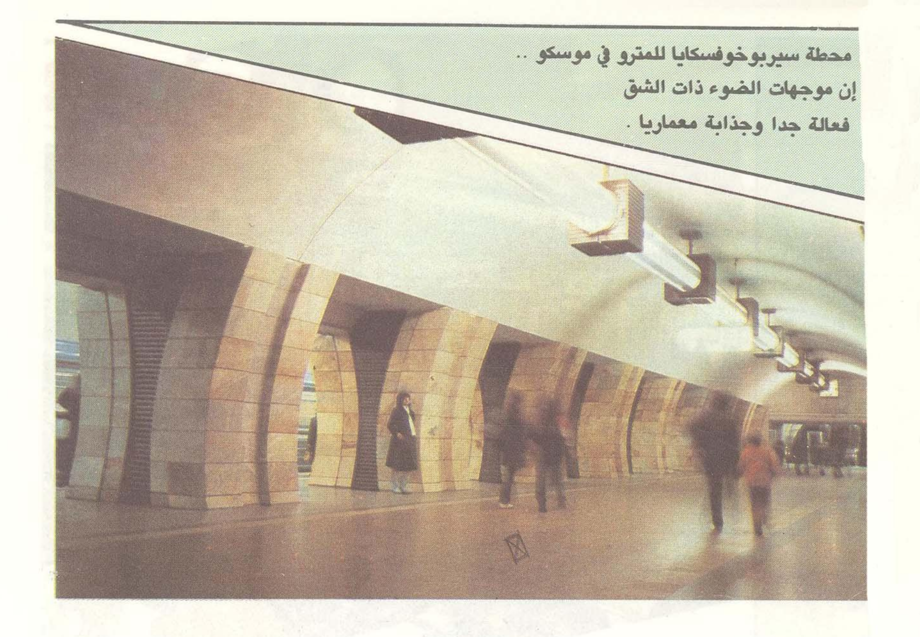
والغريب في الأمر أنّ ف . شيكوليف ، وهو مهندس كهربائي روسي ، فكر بحل للمسألة في القرن الماضي مقترحاً في عام ١٨٧٤ فكرة « الانشطار الضوئي للضوء » . وأساس الفكرة يعتمد على « شطر » الضوء الصادر من منبع قوي إلى



صالات مخزن فيشنياكي في موسكو وقد نمت انارتها بموجهات ضوئية ذات شق .

عدد من التدفقات الصغيرة . وقد أنجز شيكوليف ذلك باستعمال الطريقة ذات المجرى (Chanelling) أي نقل الضوء عبر أنابيب على شكل مرايا مفرغة (موجهات الضوء Lightguides) . وفي جهاز شيكوليف استعمل قوس فحمي قوي كمنبع للضوء . وقد تم تركيز الاشعاع بواسطة عدسة بحيث انطلق الضوء على شكل حزمة متوازية إلى أحد طرفي الأنبوب حيث انتقلت منه إلى الأجسام التي يراد اضاءتها . وقد كان للأنبوب عدد من الأنابيب الفرعية الأصغر والتي تنتهي بموزعات ضوئية . وقد تم توزيع التدفق الضوئي بين الأنابيب الفرعية بواسطة جملة من الأغشية العاكسة المائلة . وبهذه الطريقة ، نجح شيكوليف في حل مسألة الانارة في المباني المعرضة لخطر الانفجار ، إذ استعمل الميزة الهامة لموجهات الضوء في عام ١٨٧٧ وذلك عندما صمم نظاما للانارة في مركز «أوختا» لصناعة البارود بالقرب من بطرسبرغ .

إلا أن التطور التالي لتكنولوجيا الانارة اتجه نحو تطوير المنابع الضوئية ومنابع الطاقة ، وهكذا نسي الجميع فكرة شيكوليف لفترة طويلة .

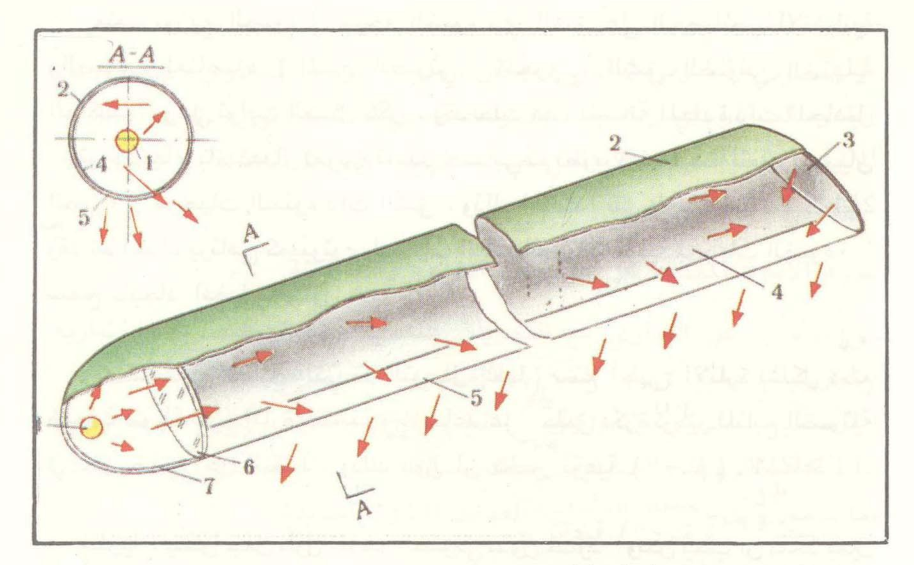

محطة سيربوخوفسكايا للمترو في موسكو .. إن موجهات الضوء ذات الشق فعالة جدا وجذابة معماريا .

صحيح ان نقل الضوء بالأنابيب شكّل أساس الألياف الضوئية (FIBER OPTICS) وهي تكنولوجيا تتطور بقوة شديدة : ففي الألياف الضوئية تكون الأقنية (المجاري) التي تنقل الضوء هي الألياف الزجاجية الرفيعة ، وهذه تجمع عادة في حزم تشكل الألياف الموجهة للضوء ، إلا أنها معدة بشكل رئيس لنقل اشارات التحكم والمعلومات . وكأدوات ضوئية فإنها مستعملة فقط في بعض الحالات الخاصة النادرة ، وعلى الأخص لاضاءة بعض الفجوات الصغيرة التي لا يمكن الوصول إليها بسهولة . إن تطبيق الموجهات الضوئية ذات الألياف من أجل أغراض الانارة الداخلية ، حيث يجب نقل الضوء وتوزيعه على مساحات واسعة ، يمثل عملية غير فعالة ومكلفة للغاية .

وقد أعيدت فكرة شيكوليف إلى الوجود ثانية في ستينات القرن الحالي فقط ، وذلك عندما اقترح المهندس السوفياتي غ . بوشمان تصميما محسنا للموجهات الضوئية ذات المرآة المجوفة باضافة شق ضوئي طولي إليها (الشكل رقم ١) . تدعى موجهات الضوء هذه بموجهات الضوء ذات الشق (Slit Lightguides) .

موجهات الضوء ذات الشق

الموجه الضوئي ذو الشق هو أنبوب طويل شكله اسطواني غالبا ، والسطح الداخلي للأنبوب كله ـ باستثناء شريحة طولية ضيقة ـ مشابه للمرآة . والحزمة الضوئية الصادرة من مصباح قوي (أو من عدة مصابيح) تغذى عن طريق نسق



المخطط الضوئي لموجه ضوئي ذي شق :
١ ـ منبع ضوئي ؛ ٢ ـ مجرى الموجه الضوئي ؛ ٣ ـ عاكس نهاية ؛ ٤ ـ طبقة عاكسة ؛ ٥ ـ شق ضوئي ؛ ٦ ـ زجاج شفاف ؛ ٧ ـ نظام ضوئي ذو مرآة .

ضوئي إلى احدى نهايتي الموجه الضوئي (أو إلى كليهما) ، وتمر عبر الشق الضوئي . عملياً ، ليس هناك أي شق ـ بالمعنى الفيزيائي ـ أي ان الأنبوب ليس مقطوعا في مكان ما ، وإنما يصنع جزء من سطحه ـ بكل بساطة ـ من مادة تمرر الضوء وتنثره .

إن مردود (كفاءة) موجه الضوء ذي الشق يعتمد بشكل رئيس على الخصائص الضوئية للمواد المصنوع منها . والشكل الهندسي لموجه الضوء ذو أهمية عظيمة ، وهذا يحدد العلاقة بين طول الأنبوب وقطره والحجم الزاوي للشق الضوئي . كما ان طريقة تَشَكُّل الحزمة الضوئية عند مدخل الأنبوب مهمة فيما إذا كانت هناك مرآة في الطرف المعاكس كي تعكس الضوء الى القناة أم لا .

وباستعمال النماذج الحسابية والفيزيائية تم التوصل الى القيم المثالية لثوابت الموّجه الضوئي وذلك بغية الحصول على أفضل خصائص الاضاءة والطاقة فيه . إن انتشار الضوء في موجهات الضوء ذات الشق يوصف بقوانين الضوئيات الهندسية (Geometrical Optics) فكل حزمة مائلة تدخل موجه الضوء تتحرك على طول المجرى (Channel) وتدور بالنسبة لمحور المجرى ، وتتعرض إلى عدد معين من الانعكاسات وتسير عبر المجرى قبل ان تصل إلى الشق ، وبهذه العملية فإن شدة الضوء تتناقص بالطبع .

يعتمد توزيع الضوء في موجه الضوء ذي الشق على الخصائص الانشائية والضوئية لعناصره (المنبع الضوئي ، المجرى ، الشق الضوئي ، النهاية العاكسة) وعلى ثوابت الشكل ككل . وقد حلت هذه المسألة المعقدة ذات المجاهيل الكثيرة بنجاح باستعمال نموذج تمثيلي حسابي تم تطويره خصيصا لتمثيل سريان الضوء في موجهات الضوء ذات الشق ، وذلك اعتمادا على طريقة مونت ـ كارلو . وقد تم اعداد برنامج كمبيوتري لحساب الخصائص الضوئية لموجهات الضوء مما سمح بايجاد أفضل الحلول .

وقد سمحت النتائج التي تم التوصل إليها بصنع أجهزة الانارة بشكل قطع ضوئية طويلة تنتج إنارة منتظمة مما ساعد على تحقيق فكرة تركيز المنابع الضوئية في عدد صغير من النقاط ، وذلك دون ان نخسر نوعية (جودة) الاضاءة .

نظريا ، يمكن جعل طول الموجه الضوئي بدون حدود . ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار انه يتم امتصاص الضوء عند الانعكاسات المتكررة ، وانه يجب تأمين توزيع منتظم للبريق على طول الشق الضوئي . ومن أجل موجهات الضوء فإن النسب الأمثل للطول على القطر (من أجل أبعاد زاوية خاصة للشقوق وخصائص المواد المستعملة) هي ضمن ٣٠ : ١ إلى ٥٠ : ١ . فعلى سبيل المثال إن طول الانبوب ذي القطر ١م يجب ان يكون أقل من ٣٠ مترا . يمكن مضاعفة هذا الطول إذا أدخل الضوء عند النهايتين .

عملياً ، يبقى المجرى في موجه الضوء ذي الشق باردا ولا يحمل أي جهد كهربائي . تغلق الأداة بإحكام وتكون غير معرضة للعوامل الخارجية المحيطة .

وتتم تغذية الضوء إلى موجهات الضوء ذات الشق من مصباح قوي وحيد أو من مجموعة مصابيح ذات استطاعة كبيرة ... أيهما أفضل . وفي الحالة الأخيرة وباستعمال مجموعات مختلفة من المصابيح ذات طيوف ضوئية متعددة ، من الممكن تغيير لمعان الشق الضوئي و/ أو تغيير لونه . ويقدم هذا الحل مزايا أخرى ، منها على سبيل المثال ، ان المجموعة يمكن أن يكون لها مصابيح اضافية لتحسين صلاحيتها وزيادة فترات الخدمة الزمنية . كذلك ، يمكن توفير الطاقة الكهربائية باستعمال العدد اللازم من المصابيح فقط بدلا من استعمال المصابيح كلها .

إن موجهات الضوء ذات الشق مصممة بحيث يمكن تدويرها حول محورها الطولاني ، وهكذا يمكن تغيير مكان الشق واتجاه الضوء . وبصورة عامة يمكن

ترتيب الموجه الضوئي في أي وضع كان وحتى في الوضع الشاقولي . ويمكن تغيير الضوء الصادر بأي برنامج مرغوب وذلك بوضع مرشحات لونية عند طرف الدخل للأنبوب . أخيرا ، فمن الواقعي جدا استعمال الحرارة المنطلقة من المصابيح ، كأن تستعمل لتسخين الماء مثلاً .

نظام الانارة المعتمد على موجهات الضوء ذات الشق

أجريت ـ على التوازي مع التحريات النظرية ـ أعمال هندسية واختبارية (تجريبية) بغية ايجاد أفضل التصاميم للتجهيزات ككل ولعناصرها (المصابيح ، المجرى والعواكس ... الخ) ولاختبار المواد والطرق لصنع قشرة (SHELL) الموجهات الضوئية . وهناك مسألتان رئيستان تم حلهما في هذا العمل مما سمح ببدء الانتاج الصناعي لمعدات الانارة الجديدة .

المسألة الأولى كانت مرتبطة باختيار المادة المناسبة من أجل القشرة الخارجية إذ ان استعمال الأنابيب المصنوعة من المعادن والزجاج والمواد البلاستيكية أو أية مادة صلبة أخرى سيقود إلى استهلاك المواد النادرة مما سيزيد كتلة الجهاز وكلفته. ولهذا السبب فقد تقرر استعمال غشاء رقيق (بسماكة ٣٠ ـ ٤٠ ميكرومتر) وخفيف (٥٠ غرام/ م^{٢}) ولكنه قوي . وقد صنعت القشرة الخارجية على شكل كمّ (sleeve) طري من نوعين من الأغشية . أحدهما كان شبيها بالمرآة ويصنع بواسطة الترسيب في الفراغ لطبقة رقيقة من الألمنيوم على أحد طرفي المادة (غشاء رقيق) . والثاني كان يمرر الضوء (من أجل الشق الضوئي) . وقد تم وصل الغشاءين مع بعضهما بواسطة لحام فوق صوتي أو كيميائي ـ حراري في مركز مصمم خصيصا لهذه الغاية .

وقد صنع المجرى الغشائي بدون اطار وكان متصلا مع وصلات النهاية . وقد بلغ وزن موجه الضوء ذي الطول ١٨ مترا والقطر ٠,٦٥ مترا حوالي ٢ كغ وكانت كلفته منخفضة .

والمسألة الثانية كانت متعلقة بالمنبع الضوئي ، وهذه كانت حاسمة لتحديد مردود الجهاز .

في الأجهزة الأولى استعملت مصابيح الهالوجين قوة ٢٠٠٠ وات و ٣٥٠٠ وات . وقد أدخل ضوؤها إلى المجرى بواسطة عواكس ذات مرايا على شكل قطع مكافىء مع فتحة الخرج المطابقة لقطر المجرى . إلا أن مدة الصلاحية لمصابيح الهالوجيني القوية قصيرة نسبيا ، والقطر اللازم لعواكسها كبير اجمالاً مما يجعل استعمالها معقداً للغاية ومكلفاً . والحل الأكثر مردوداً كان باستعمال مصباح

تفريغ غازي خاص قوة ٧٠٠ وات صمم فيما بعد لهذه الغاية . وقد تبين ان مجموعة من هذه المصابيح أكثر صلاحية من مصباح واحد قوي . وبالاضافة إلى ذلك ، فعندما تعمل عدة مصابيح معا بشكل غير متفق بالطور فان « نبضية pulsation » الضوء يمكن ان تنقص بشكل كبير . ويضاف إلى ذلك انه يمكن فصل بعض المصابيح عندما تكون شدة الاضاءة عالية (مثلاً بنتيجة الاضاءة الطبيعية) مما يحسّن المردود .

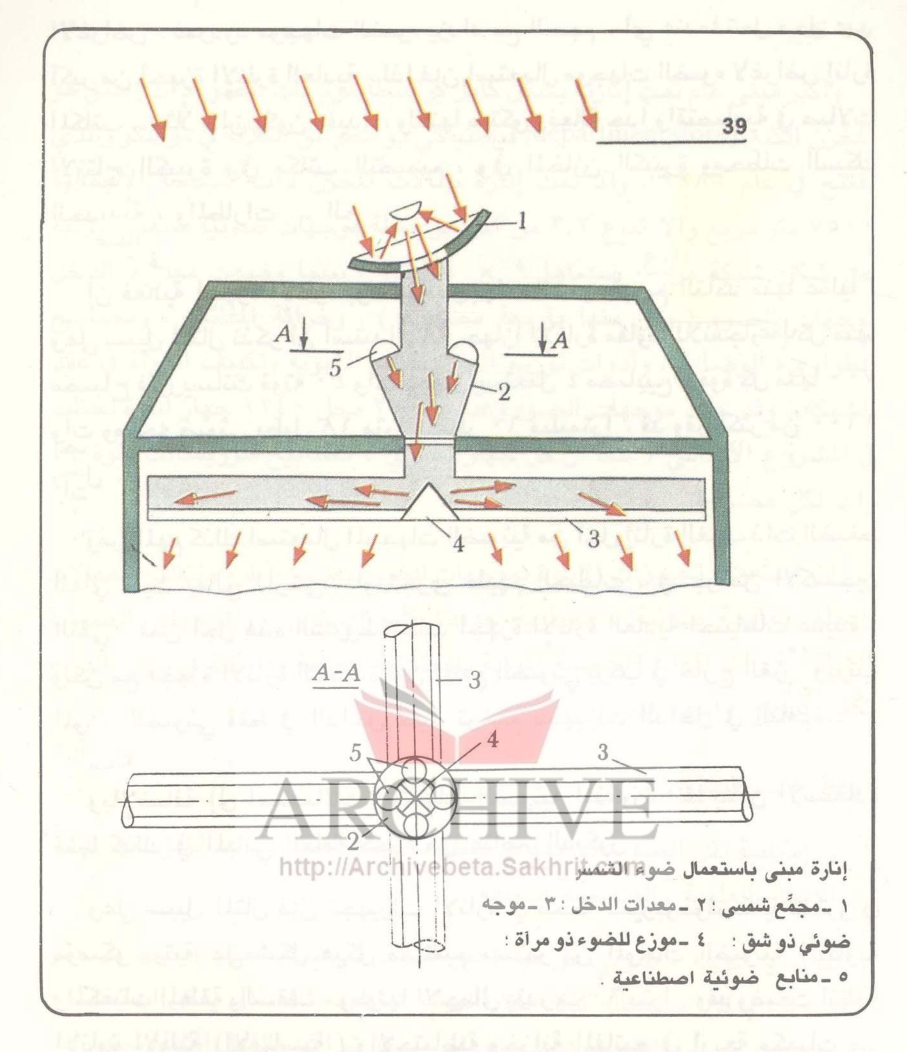
ومنذ ٦ سنوات تقوم شركة فاترا (Vatra) في تيرنوبول بتصنيع أجهزة انارة كاملة ذات موجهات للضوء بطول ٦ أمتار و ١٨ مترا وبقطر ٠,٢٧٥ متر و ٠,٦٥ متر . ولكل جهاز مصباح الى أربعة مصابيح بقوة إجمالية قدرها ٠,٧ ـ ٢,٨ كيلووات . وأجهزة الإنارة المنتجة هي بشكلين : من أجل التركيب في الداخل ، ومن أجل التركيب في الشق على أن تركب معدات الدخل في الخارج .

وقد أعدت أجهزة الإنارة المتوفرة من أجل أنواع مختلفة من الأماكن يتراوح ارتفاعها من مترين ونصف إلى ١٠ أمتار وعرضها من ٦ إلى ٣٦ متراً . والعرض محدود فقط من أجل الغرف المعرضة لخطر الانفجار حيث يجب أن تركب معدات الدخل مع المصابيح في الخارج . أما من أجل الغرف الأعرض من ١٨ متراً فإن معدات الدخل توضع في الطرفين ، بينما لا توجد أية حدود على عرض الأماكن النظامية (غير المعرضة لخطر الانفجار) .

وكما تبين من التحليل الفني ـ الاقتصادي فإن جهاز الإنارة الواحد من هذا النوع يمكن أن يحل محل ٩ إلى ٥٨ جهاز إنارة بمصابيح متوهجة أو محل ١٠ ـ ٥٥ جهاز إنارة بمصابيح وضاءة (luminescent) (فلوريسانتيه) مقاومة للانفجار وذلك حسب حجم جهاز الانارة الجديد . وهذا يجعل موجهات الضوء ذات الشق فعالة تماماً من الوجهة الاقتصادية . فكمية المعدن اللازمة لموجهات الضوء أقل بـ ١,٥ ـ ٤,٣ مرة وهي تستهلك قوة كهربائية أقل بـ ٣,٧ مرة بالمقارنة مع المصابيح المتوهجة (أو ١٠ ـ ٢٠ بالمئة أقل بالمقارنة مع المصابيح الوضاءة) كما أن كلفة خدمتها أقل بـ ٦٠ ـ ١٠٠ مرة وشبكاتها الكهربائية أقصر بـ ٣ ـ ٤ مرات . ومن أجل مستوى الإضاءة ذاته فإن النفقات السنوية الكلية المبذولة على جهاز الإنارة الجديد أقل بـ ٢ ـ ٢,٥ مرة من أي نوع آخر من أنواع الإنارة .

التطبيقات :

وهكذا ، فإن المزايا الرئيسة لموجهات الضوء ذات الشق هي العدد الأقل من النقاط التي تستوجب الخدمة ، والطول الأقصر للشبكة الكهربائية ، والإنارة



إنارة مبنى باستعمال ضوء الشمس
١ ـ مجمِّع شمسي ؛ ٢ ـ معدات الدخل ؛ ٣ ـ موجه ضوئي ذو شق ؛ ٤ ـ موزع للضوء ذو مرآة ؛ ٥ ـ منابع ضوئية اصطناعية .

الآمنة كلياً ، والأثر الأصغر للوسط المحيط على الإنارة ، والقوة المركبة الأصغر ، وتكاليف الصيانة الأقل . ومن أجل هذه الأسباب يمكن استعمال أجهزة الإنارة ذات موجهات الضوء ـ بالدرجة الأولى ـ في الأماكن المعرضة لخطر الانفجار وحيث يكون من الصعب ضمان سهولة الوصول إلى أجهزة الإنارة . أضف إلى ذلك أنها قد تكون فعالة في الحالات التي تتطلب تحكماً ديناميكياً بالإنارة .

ولكن ، يجب أن لا يجعلنا ذلك نظن أن موجهات الضوء ، استنادا إلى خصائصها الجيدة ، يجب أن تحل محل جميع أجهزة الإنارة الموجودة . فمع أن مجال استعمالها واسع تماماً ، إلّا أنها ليست جيدة كلية من أجل جميع

الأغراض . فمردود موجهات الضوء يزداد مع الحجم ، أي عندما تحل محل عدد أكبر من أجهزة الإنارة العادية . لذا فإن استعمال موجهات الضوء لأغراض إنارة المكاتب ـ مثلاً ـ لن يكون مفيداً ، ولكنها ستكون فعالة جداً واقتصادية في صالات الإنتاج الكبيرة وفي مكاتب التصميم ، وفي المخازن الكبيرة ومحطات السكك الحديدية ، والمطارات ... الخ .

إن فعالية أجهزة الإنارة بواسطة موجهات الضوء قد تم التأكد منها عملياً ، وعلى سبيل المثال نذكر أن استبدال ٥٨ جهازا للإنارة مقاوما للانفجار في كل منها مصباح فلوريسانت قوته ٤٠ وات بجهاز يستعمل ٤ مصابيح ، قوة كل منها ٧٠٠ وات وموجه ضوئي بطول ١٨ متراً وبقطر ٦٠ ميليمتراً ، قد وفّر أكثر من ١١٠٠ روبل .

ومن المهم كذلك استعمال الموجهات الضوئية من أجل إنارة الغرف ذات الضغط العالي حيث يعالج المرضى ، أو تجرى عليهم العمليات ، في جو من الأكسجين النقي . فمن أجل هذه الشروط تتطلب أجهزة الإنارة العادية احتياطات عديدة . ولكن مع أجهزة الانارة الجديدة فإن المنبع الضوئي يركب في خارج الغرفة ويرتب الموجه الضوئي فقط في الداخل حيث توضع تجهيزات الداخل في النافذة .

وبالإضافة إلى استعمالات الموجهات الضوئية المذكورة آنفاً يمكن الاستفادة منها كذلك في المباني العامة كجزء من عناصر الديكور .

وعلى سبيل المثال فإن تجهيزات الإنارة في محطة سيربوخوفسكايا للمترو في موسكو مرتبة على شكل هيكل مستقيم مستمر من الموجات الضوئية المتناوبة والمكعبات المعلقة بالسقف ، وطولها الإجمالي يقدر بـ ٦٠ متراً . وقد وضعت أنظمة الإنارة الأولية (الأساسية) والاحتياطية وخزانة المفاتيح في أربعة مكعبات من المكعبات الـ ١٢ ، بينما استعملت المكعبات المتبقية لأغراض الديكور . وقد صممت المكعبات الفعالة المتوسطة بحيث يتوجه التدفق الضوئي الصادر عنها باتجاهات متعاكسة عبر الموجهات الضوئية التي تألفت من خمسة شقوق طولية ذات عرض مختلف : فالشقان العلويان مخصصان لإنارة السقف . والشقان الجانبيان والشق السفلي مخصصة من أجل إنارة الجدران والأرضية . وهذه الموجهات الضوئية تقدم وضوحاً معمارياً بالنسبة للمنظر الداخلي للمحطة . ويضاف إلى ذلك أن عدد النقاط الضوئية أقل بـ ٣٠ مرة بالمقارنة مع الإنارة العادية (وعلى سبيل المقارنة ، فقد أُنيرت القاعات الجانبية للمحطة باستعمال ٣٥٠ مصباح فلوريسانت في كل قاعة رتبت على شكل U) وطول الشبكة الكهربائية

(الخطوط والنواقل) أقصر بـ ٣ مرات ، مما جعل صيانة معدات الإنارة أبسط إلى حد كبير .

وأكبر مبنى عام تمت إنارته بشكل كامل بواسطة موجهات الضوء ذات الشق هو المخزن الكبير (department store) فيشنياكي ذو الطوابق الثلاثة في موسكو والذي افتتح في عام ١٩٨٥ . وقد تمت إنارة صالات المخزن ذات المساحة الإجمالية ٧٥٠٠ متر مربع والارتفاع ٣,٢ من المتر بواسطة موجهات ضوئية صغيرة مرتبة على شكل شبكة مربعة ضلعاها ٩ × ٩ أمتار ، بينما وضعت معدات الدخل لموجهات الضوء (وكل منها بأربعة مصابيح) ، وخزانة المفاتيح ، ومصابيح الطوارىء الوضاءة ، وأدوات توزيع الهواء لنظام التهوية وتكييف الهواء في عقد الشبكة . وقد حلت موجهات الضوء وعددها ٢٧٠ محل ١٢٤٠ جهاز انارة لحظت في المشروع الأساسي ، علماً أن كل جهاز يحتوي ٤ مصابيح فلوريسانت بقوة ٤٠ وات لكل مصباح .

إن استعمال تجهيزات الإنارة بموجهات للضوء يضمن إنارة منتظمة للصالات ويخلق معالجة ضوئية ـ معمارية جديدة كلية للمخزن . والموجهات الضوئية الشاقولية ذات المرايا المسطحة المرتبة باتجاهات مختلفة والمركبة في بيوت الدرج تكمّل بنجاح واجهة المبنى .

الآفاق المستقبلية :

إن إمكانية نقل الضوء وتوزيعه بواسطة موجهات الضوء ذات الشق تثير عدداً من الأفكار العلمية والهندسية الشيقة .

فبما أن الموجه الضوئي هو عبارة عن أنبوب ذي قطر معتبر (يصل إلى متر واحد) لذا يمكن استعماله كذلك لنقل الهواء النقي ـ مثلا ـ أي يمكن استخدامه في وقت واحد كموجه للضوء وكمجرى هوائي . وقد تم الآن بالفعل إنشاء تجهيزات اختبارية للتحقق من الفكرة ولتعيين مجال تطبيق مثل هذه الأنظمة الهندسية المشتركة .

وهناك فكرة واعدة أخرى تتضمن وضع عناصر لتركيز الإشعاع الشمسي تركب على السطح أو على جدران الأبنية لجمع الضوء الطبيعي وتحويله إلى مجاري موجهات الضوء ذات الشق ، فتقوم هذه بتوزيع الضوء إلى الغرف خلال ساعات النهار (الشكل رقم ٢) . ويقوم نظام آلي للتحكم بالمحافظة على مستوى الإنارة المطلوب باستعمال الأشعة الشمسية فقط أو بإضافة بعض المصابيح عند اللزوم .

ان جمع الضوء الطبيعي مع الضوء الاصطناعي يمكن أن يقلل بشكل حاد استهلاك الطاقة الكهربائية (من ٢٥ ـ ٤٠ بالمائة في المناطق ذات خطوط العرض المتوسطة) وبخاصة في المباني الصناعية حيث يتم إبقاء تجهيزات الإنارة الكبيرة مضاءة طوال الليل والنهار . ويمكن أن تبنى الموجهات الضوئية ذات الأغلفة الصلبة أو نصف الصلبة ضمن هياكل كل الأبنية مما يسمح بالتخلص من الطوابق المتوسطة (الهندسية) ، علماً أن هذه الطوابق المتوسطة ذات الارتفاع ٢م ، التي توضع بين الطوابق الرئيسة تستعمل حالياً بشكل رئيس لخدمة مئات وآلاف أجهزة الإنارة .

وهناك منحى آخر في البحوث يهتم بموجهات الضوء المنبسطة الفعالة جداً على شكل اسفين (خابور) وهي تقلد الإنارة الطبيعية التي تكون مناسبة من أجل نمو النباتات . والتجارب التي أجريت في أكاديمية العلوم الزراعية في موسكو ومعهد تصميم الصناعات الزراعية في ارول ، بيّنت ـ مثلاً ـ أنه يمكن زيادة محصول الخيار في المستنبتات الزجاجية من ٣٠ ـ ٦٠ بالمئة بواسطة طريقة الإنارة هذه . واستعمال هذه التكنولوجيا في شمالي الاتحاد السوفياتي وفي مناطق الشرق الأقصى السوفياتية يمكن أن يحسِّن تزويد الناس بالخضار والفاكهة الطازجة .

وفي الختام ، لنلتفت الى تطبيق آخر لموجهات الضوء ذات الشق . ففي الآونة الأخيرة انتشر استعمال المنشآت والأبنية غير المنبسطة كما في الملاعب الرياضية والورشات الصناعية والمخازن والمستودعات وغيرها . إن القشرة المرنة للبناء غير المنبسط تحافظ على شكلها نتيجة لضغط الهواء الإضافي في الداخل . وتمثل إنارة مثل هذه المباني مسألة صعبة نظراً لأنه ليس من السهل ولا المأمون وصل الأسلاك إلى القشرة الخارجية وتعليق المصابيح بها . وفي هذه الحالة يمكن استعمال موجهات الضوء ذات الشكل القوسي غير المنبسط (وهذه تشكِّل مباشرة مع القشرة باعتبارها جزءاً من الهيكل الحامل للبناء) .

والتطورات الرئيسة في حقل موجهات الضوء ذات الشق ، التي أنجزها العلماء والمهندسون السوفيات ، حصلت على ٢٥ شهادة اختراع سوفياتية و١٦ براءة أجنبية في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة والمانيا الاتحادية وفرنسا واليابان وايطاليا والسويد . وقد منح ترخيص إنتاج جهاز الإنارة باستعمال الموجهات الضوئية إلى شركة يابانية مختصة في الهندسة الكهربائية .

● تعلم القراءة

بقلم : جان كلود بومبُونياك
ترجمة : مديحة محمد السيد

كتب روسو في اعترافاته يقول : « لا أعلم كيف تعلمت القراءة . يخيل إلي أنّي كنت دائما أتقنها » . فعلاً ، كيف يتعلم الناس القراءة ؟ كيف يتأتّى لمن لم يلتحق بالمدرسة أن يتعلم[1] ؟ وكيف تعلم المدرسة القراءة ؟ إن هذه الأسئلة لتفترض التمييز بين مختلف أساليب القراءة والأنشطة التي يتم من خلالها ممارسة القراءة . وحتى في إطار المدرسة ، لا يشكل التدريب على القراءة عملية استقبال سلبي أو تطبيقا آليا لنوايا المعلم ومختلف مراحل شرحه أو مختلف مراحل أسلوب تعليم القراءة ، وهو ما تبرزه هذه المقولة التربوية والمتفائلة على نحو يخلو من المغالاة في الوهم ، إنها المقولة القائلة بأن « أي أسلوب للتعليم ـ أيا كان نوعه ـ لم يكن في يوم من الأيام يشكل عائقا أمام من يرغب في تعلم القراءة » .

●ان ذكريات طفولة « فرانسواز دولتو »[2] التي اختارت موقفاً وسطاً بين المشوار العصامي لتعلم القراءة (وهو المشوار الذي تعرض ج . هبرار لدراسته بدقة في كتابه) وبين الأسلوب التعليمي المدرسي العادي ليبرزُ بوضوح مختلف مراحل التوصل إلى فن القراءة والتعرف على أساليب المعلم . وتسترسل « فرانسواز دولتو » في ذكرياتها عن علم القراءة قائلة : « هنا يدرك المرء إلى أي مدى قد تكون أساليب تعليم القراءة عنيفة وما تشكله مرحلة التدريب الأولى من معاناة ، على الأقل لما تمثله من استسلام للواقع . والأمر يتعلق بالفعل بتقبل « هذا التدرج القاسي من الكتب الخيالية إلى التفاهة الموضوعية التي تميز الرواية حين يكتبها البالغون لأطفال يستسلمون لهم » .

المنهج المدرسي :

بدءاً من الرغبة في القراءة :

قضت فرانسواز صيف عامها الخامس ـ عام ١٩١٣ على شاطىء البحر . وتروي لنا كم تعجبت من الصور الساحرة التي تضمنها كتاب ذو غلاف أحمر

العنوان الاصلي للمقال

Apprender a lire, par Jean - Claude Pompougna.C., Autrement No 97, Mars 1989

1. JEAN HÉBRARD, « Comment Valentin Jameray-Duval apprit-il à lire ? » in *Pratiques de la lecture*, Rivages, 1985.
2. FRANÇOISE DOLTO, *La cause des enfants*, Laffont, 1985.

يحمل عنوانا مدهشا وهو « **بابوج أبوالقاسم** » . وكانت والدة فرانسواز قد استعانت في تلك الفترة بمعلمة شابة من لكسمبرج كي يكون لديها متسع من الوقت للعناية بأبنائها الأكبر سناً . ولقد راقبت المعلمة « فرانسواز » وهي تقرأ وتطلق العنان لخيالها أثناء مطالعتها الصور ، فاقترحت عليها أن تعلمها القراءة .

وهكذا حلّ كتاب صغير وغير سميك ـ هو كتاب « تعلم أسلوب القراءة » ـ محل الكتاب الأحمر . ومن خلال إسترجاعها لتلك القصة الحقيقية التي عاشتها وهي طفلة تستعرض فرانسواز معنا مختلف مراحل تلقين القراءة ، وكأنها تستعرض نوعاً من الدراما التربوية .

● في البداية تنبع الرغبة في تعلم القراءة من سحر الصورة .

● استبدال الكتاب ذي الصور الجميلة بالكتاب المدرسي ، وإكتشاف صورة الحروف [الحروف الكبيرة والصغيرة والحروف المتحركة والساكنة والحيل الأخرى الكامنة في سديلة* مثلا أو في همزة الوصل الخ ...] تقول فرانسواز دولتو « حقا لقد كان أسلوب قراءة المدرسة بارعا ولكن ليس لفترة طويلة .

● البحث عن مطابقة الحرف باللفظ ، وهنا تقول فرانسواز « إن إحساسي المتيقظ كان يشبه إلى حد كبير ذلك التركيز الشديد من أجل إكتشاف خدعة أو حل لغز » .

● نظام التدرج الاجباري لفهم الصعوبات . تقول فرانسواز : « كنت متلهفة لإكمال القصة ومطالعة بقية الصور ولكن دون جدوى ، فقد وقف في طريقي إلى تحقيق هذين الأمرين مجموعة من الحروف كنت أجهلها ، فانجذبت بعنف إلى الوراء ، وفتحت الكتاب على الصفحة التي تحمل عنوان « منهج القراءة » ، وتعلمت منها كيفية التعرف على هذه الحروف والربط بين شكلها ونطقها ـ أي التدرب بصورة متوازية على الكتابة من خلال تمارين للكتابة »

● عدم إدراك الطالب للضغوط التي يفرضها أسلوب تعليم القراءة . تقول فرانسواز دولتو : « لم أكن أرى إطلاقا الصلة القائمة بين هذا المجهود والأمل البعيد دائماً في قراءة قصة هذا الكتاب الرائع المغلق والموضوع فوق ركن من الطاولة .

● عملية التعرف على الحروف ونطقها وهي عملية شاقة جدا . ومتى وصلنا إلى الحرف الأخير من حروف الأبجدية الفرنسية ـ حرف Z المقترن بصورة الحمار الوحشي (Zebre) ـ نكون قد توصلنا إلى أول تمارين للقراءة . وأخيرا أصبح بإمكان فرانسواز فتح قصة « بابوج أبو القاسم » من جديد تمهيدا لقراءتها .

---

* رمز يوضع تحت الحرف (Ç) هكذا : C كي ينطق كالحرف (S).

تقول فرانسواز : « هاأنذا أردد الحروف وأتجاهل أحيانا قراءة حرف غريب حتى أصل إلى نهاية الكلمة » .

... إلى خيبة الأمل

ـ نطق الحروف دون تفهم معناها .

قالت المعلمة لفرانسواز : « لقد أحسنت في القراءة والآن اسردي عليّ ما قرأت » .

فأشارت فرانسواز إلى الفقرة قائلة : « كل ذلك » .

وتجيب المدرسة : « نعم ماذا قرأت وما هي القصة التي قرأتها ؟ » .

وانطلقت فرانسواز لتختلق من خيالها رواية عما تثيره الصورة الموجودة على الصفحة اليمنى في خيالها . ومرة أخرى تجيبها المعلمة بمنتهى الجدية والهدوء :

ـ لا إن ما ترويه من نسج خيالك ، وليس ما هو مكتوب وما قرأته عليّ بإتقان .

وتتساءل فرانسواز عن معنى « ما قرأته عليّ باتقان » .

ـ مرحلة فهم الكلمات المكتوبة عن طريق سماع نطق الحروف المقروءة .

وتستأنف المعلمة حديثها قائلة : « هيا أعيدي القراءة من جديد وتوقفي عند الفواصل وأنصتي إلى ما تقرئينه » .

وتبدأ فرانسواز من جديد . وأخيرا تتحقق المعجزة . تقول فرانسواز : « كنت أنصت إلى قراءتي . وكانت الجملة تتخذ معنى جديدا بالنسبة لي . وبدا الأمر رائعاً ، كنت أشعر أنني لا أريد التوقف أبدا لولا أنهم أعلنوا عن موعد تناول الغذاء . هل هذا هو معنى القراءة ؟ إن للجمل والفقرات معنى ، نعم ولكن ... »

وسيطر شعور من الحيرة وخيبة الأمل على نفس الفتاة الصغيرة التي قالت لمعلمتها : « أود أن أتعلم أسلوب القراءة الصحيح » . وهكذا أدركت فرانسواز أن القصص الرائعة التي تلهب خيالها لمرأى الصور الجميلة لا يوجد بينها وبين أدبية النص سوى ارتباط بعيد .

تقول فرانسواز دولتو : « لم يكن تدفق هذه الصور الرائعة في خيالي بفعل مطالعتي لها سوى فخ وجدتني أسيرة له ، وكأن القصة التي أردت معرفتها تشكل طعما دفعني إلى الرغبة في تعلم القراءة وبفضلها تعلمت سريعاً . إلاّ أنها قد أثارت

بالرغم من ذلك خيبة أملي ، والآن لم نُعد في عام ١٩١٣ . كما أن وضع التدريس قد تغير بالفعل عن الوضع الذي عايشته فرانسواز دولتو في مدرستها . وبالرغم من ذلك فإن « جان هبرار » يؤكد بأن أسلوب تعليم القراءة في المرحلة المتوسطة في الوقت الحالي ينص على أن يتعرف القارىء على الحروف المكتوبة ليحولها إلى ألفاظ ثم يقرن هذه الكلمات ـ التي ينطقها بصوت جهراً أو سراً (كما هو الحال بالنسبة للقراءة الصامتة) ـ بمعنى معين .(٣)

في « أدغال » أساليب تعلم القراءة

سواء تعلق الأمر بأساليب قراءة تعتمد على تبين مختلف مقاطع الكلمات أو أساليب قراءة شاملة أو متنوعة أو أساليب تعتمد على الصوت واللفظ ، فإن كل هذه الأساليب تهدف إلى التوصل إلى أسلوب تعليمي تدريجي يسمح باستخدام كتاب القراءة والتدرج إلى كتب أخرى(٣) .

إن أسلوب القراءة الذي يعتمد على تبين مختلف مقاطع الكلمة أسلوب يوصف بأنه تركيبي ، وهو الأسلوب نفسه الذي كانت تستخدمه معلمة فرانسواز دولتو . ويقضي هذا الأسلوب بالتعرف على الحروف والألفاظ المرادفة لها ، وعلى جمع الحروف في مقاطع ثم ضم مختلف المقاطع لتكوين كلمات : فاللغة تبدو بالفعل وكأنها عملية تركيبية حيث يقودنا عدد محدود من الوحدات الأساسية الخالية من أي معنى ألى عدد هائل من النصوص المعبرة . وإذا كان من المسلم به أن الكتابة تسجيلٌ للقراءة الشفهية فإن أسلوب تعلم اللغة ينحو إلى الإتجاه من البسيط إلى المعقد . إلا أن البساطة هنا بساطة ظاهرية .

لا يوجد في لغتنا (اللغة الفرنسية) تطابق دقيق بين ما يسمع وما يكتب . ومن هذا المنطلق يبذل الطالب جهداً ضخماً لاستيعاب الصلة المعقدة بين الكتابة واللفظ ، وعلى سبيل المثال هنالك أكثر من كتابة للفظ الواحد في اللغة الفرنسية . والجدير بالذكر أن الوقت الذي تستغرقه عملية التعرف على الكلمات يؤخر بالطبع من توقيت إتقان القراءة .

إن القراءة الشفهية للنص لا تؤدي إلى فهم المعنى إلا من خلال جهود شاقة وخطوات غير ثابتة . لذا لا بدَّ للدارس من أن يسرع في عملية التعرف على الكلمات

3. JEAN HEBRARD, « Lire et écrire à l'école » in « Réflexions sur l'enseignement du français », CDDP, Angers, 1986.

والحروف حتى يمكنه أن يدرك معنى عدد كافٍ من الوحدات الضرورية « لسماع » ما يقرأ . ولا بد في مرحلة تالية من استيعاب هذه القراءة الشفهية عن طريق قراءة أخرى صامتة ، والأشخاص الذين يميلون إلى البطء في القراءة هم في الواقع أولئك الذين لم ينجحوا في التخلص من آثار هذه المرحلة التي سبق لهم أن مروا بها في صغرهم .

عندما نقدم للمبتدئين في القراءة كلمات مبسطة لتسهيل عملية التعرف عليها فهذا يعني أننا نستبعد الصعوبات التي تميز لغتنا (اللغة الفرنسية) . فبالإضافة للعدد الضئيل من المصطلحات التي نقدمها لقرائنا المبتدئين وللطابع المبسط للنصوص المقترحة فنحن نؤجل عملية الإحتكاك بالصعوبات ذات الطابع الإملائي .

لا يوجد ما يؤكد بأن الدارس بإمكانه تتبع السياق الذي يفرضه أسلوب تعلم القراءة . وفي مثل هذه الأساليب المتدرجة نجد أن انضمام مختلف مقاطع الكلمة إلى بعضها البعض يحتل مكانة أساسية وحيوية . إلا أن الدراسات التي قامت بها « إيميليا فريرو » قد أثبتت أن الدارس لا يمكنه استيعاب السياق السابق ذكره ـ أي سياق ضم مقاطع الكلمة الواحدة ـ مهما كانت المواقف التربوية التي يتعرض لها إلا بعد أن يبلغ السابعة من عمره أي عندما يكون قد تعلم القراءة بالفعل[٤] .

أسلوب شامل أم متنوع
لتعلم القراءة

لا يزال أسلوب القراءة الشامل الذي يطلق عليه بالمثل الأسلوب التركيبي موضع لبس وسوء فهم في كثير من الأحيان . فمن جهة أولى لا يمكن اعتباره مسؤولا عن الأضرار التي تنجم عن صعوبة القراءة والفهم كما يحلو للبعض أن يؤكد ، وذلك يعود إلى سبب بسيط جدا يتمثل في أن استخدام هذا الأسلوب في المدارس قد اتخذ طابعاً هامشياً إلى أبعد الحدود ، ومن جهة أخرى فإن هذا الأسلوب لا يعتبر عصرياً إلا في ظاهره ، ذلك أن استخدامه يعود إلى نهاية القرن الثامن عشر .

وفي مفهوم « ديكرولي » يتخذ هذا الأسلوب مكانه ضمن إطار تنظيم عام للفصل الدراسي ، فالقراءة كغيرها من العمليات التدريبية لا بد وأن تلبي إحتياجات الطفل وإهتماماته . لذلك سوف نجعله في البداية يتعرف على وحدات بسيطة مكتوبة من

4. E. FERREIRO, *Vers une psychologie génétique de l'apprentissage*, Neufchâtel, 1977.

السهل حفظها ، وحدات ستعوّده على فن الكتابة . وهكذا تأتي مرحلة التعرف الشامل في أعقاب ما يقرب من مائة عملية تحليلية ثم عملية إعادة بناء ينتج عنها عبارات جديدة . أما الأسلوب المتنوع أو لنَقُل بمزيد من الدقة ـ « الأسلوب المتنوع ذا نقطة الإنطلاق الشاملة ، فهو يشكل منذ بضعة أعوام مضمون أغلبية الكتب الدراسية الموجزة المستخدمة . والمنطق الذي ينطوي عليه هذا الأسلوب قريب جدا من الأسلوب المعتمد على تبين مختلف مقاطع الكلمة ، ويقترح هذا الأسلوب على الدارسين أن يحفظوا بصورة شاملة مخزوناً محدوداً من الكلمات أو من العبارات المختصرة بهدف التدرب على عملية إستيعاب مجموعة الأصوات المقترنة بكلمات وحروف وهو إستيعاب يتميز بنوع من التدرج .

إلا أن بعض المعلومات المأخوذة من علم اللغة ومن علم نفس التدريبات أو من تجارب المعلمين قد ساهمت في التوصل إلى أسلوب يجمع بنسب متفاوتة بين التعرف على كلمات الجملة وبين التمييز بين الوحدات الصوتية والكتابية في هذه التركيبة ، وهذا هو الحال بالنسبة لمنهج « لوسابليه » وهو أصلا من مقاطعة كوييك ، وعموما فهو أسلوب متنوع حركي وسماعي وطبيعي ، نشط ومتراكز يسعى إلى التصدي لمشاكل القراءة والإملاء بصورة متضامنة ، ونحن نلمس هذا اللجوء إلى اللفظ وإلى اللوحات ذات المداخل المزدوجة التي تقترن فيها مجموعة أصوات اللغة بكل كتاباتها الممكنة في كتب أخرى للقراءة مثل كتاب « على مدى الكلمات » وهو أسلوب مزدوج ذو تركيبة مختلفة .

بدون كتاب

أما الأساليب الطبيعية للقراءة والتي يعود الفضل في أول صياغة لها لـ « سيبستان فرنييه » فهي بمنتهى البساطة تتميز بعدم اللجوء إلى الكتاب : فلا توجد نصوص مكتوبة مخصصة للطالب ولا تدرج معد مسبقاً للصعوبات التي يتوجب عليه حلها . وفي الواقع أن مجموعة نشاطات الفصل والنصوص التي يعتمد عليها الأطفال تشكل الدعامة الأساسية في أسلوب « يبعد تماما عن التدرج من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً» . ويقوم على أساس ما وصفه « فرنييه » « بأنه عملية تحسس تجريبي ، حيث يتم تحليل الكتابة من خلال مجموعة نصوص تزداد ثراءً على مرّ الأعوام (مثلا عن طريق المراسلة المدرسية) » . ويدوّن الأطفال ملاحظات تتعلق بالمكتوب (بالمقارنة وبتبين أوجه الشبه والإختلافات) ملاحظات يتوجب على المعلم إتخاذها منهجا لتثبيت الأدلة والمعلومات الوحيدة الضرورية لتفهم المكتوب بطريقة تختصر عملية التعرف على مختلف المقاطع . كذلك فإن ممارسة الطباعة وإصدار صحيفة مدرسية يثير إهتمام الطلبة في الوقت الذي يعطي فيه معنى أكثر صدقاً ومزيداً من الدقة في الإملاء .

وخلال العشرين عاماً الماضية أعاد الكثيرون البحث في أساليب « فرنييه » لتعلم القراءة على ضوء تفسيرات علماء النفس واللغة والمجالات التي تتناول هذا الموضوع ، وهكذا شاهدنا أساليب جديدة لتعلم القراءة بدون كتاب أو بأسلوب تدرج ، وإنما هي تعتمد على المراحل التدريبية أي كيفية تعلم الطفل للقراءة أكثر من إعتمادها على مسألة الأساليب الخاصة بالمعلم في تعليمه القراءة لدارسيه[٥].

إلا أن هذه الخطوات ظلت هامشية مثلما كان الحال بالنسبة للأسلوب الشامل : وتشير التقديرات إلى أن ٧٠ إلى ٨٠ بالمائة من المعلمين في المرحلة المتوسطة يتبعون أسلوب التدرج في سياق الكتاب .

القراءة هي اتخاذ قرار

تُرى هل يوجد إرتباط بين الخيارات التربوية لأغلبية من المعلمين والنتائج التي تحرزها المدرسة ؟ لا أحد بإمكانه الإجابة على هذا السؤال . ولهذا السبب فهو يثير كثيراً من الجدل . والذين يشاركون فيه كثيراً ما ينسون ما تعلمه التربويون بأسلوبهم الخاص : وهو أن إستيعاب فن القراءة أمر شاق (ونحن نتحدث هنا عن الخبراء التربويين الذين احتفظوا بذكرى سنوات التدريب على القراءة حية في ذاكرتهم مثل فرانسواز دولتو . وهناك اليوم تفسيرات أفضل لأسباب هذه الصعوبات . إلا أن النتائج التي توصلت إليها العلوم المتنوعة والتي تتم الاستعانة بها في تدريب المبتدئين على القراءة ـ بدلا من أن تبسط الأمور ـ تؤدي كلها إلى نتيجة واحدة وهي أن القراءة نشاط معقد للغاية .

في عام ١٩٦٦ أشارت « نادين جاليفريه جرانجون » إلى تعدد العوامل التي تساهم بصورة أو بأخرى في أسلوب تعلم القراءة . تقول نادين جاليفريه جرانجون : « لكي يتعلم الدارس القراءة لابد أن يشاهد شخصاً يقرأ ، وأن تتوفر لديه الرغبة في القراءة والقدرة على القراءة وأن يتقن القراءة »[٦] .

أما الشرط الأول وهو « مشاهدة شخص وهو يقرأ فهي معروفة تماما لدى المعلمين والأهل . وهي تشكل الخطوة الأولى فيما تطلق عليه « نادين جاليفريه جرانجون » تسمية « ذكاء اللغة » الذي يفترض ممارسة سابقة وتعود كاف على أدوات اللغة ، كما يتحكم في المقدرة على إدراك الكلمات المكتوبة بحيث يضفي عليها معنى .

---

5. E. CHARMEUX, *La lecture à l'école*, CEDIC. — J. Foucambert, *La manière d'être lecteur*, SERMAP Hatier. — L. LENTIN, et allii, *Du parler au lire*, tome III, ESF.
6. N. GALIFRET-GRANJON, « L'apprentissage de la langue écrite et ses troubles », *Bulletin de Psychologie*, 1966, n° 247.

هذا الذكاء في خطواته الأولى مقترن بتجارب ممارسة اللغة التي تنص على مراقبة القارىء وسماع نطقه وإستخدامه لحروف الطباعة وتقليده لعملية التظاهر بالقراءة .

والمرء يدرك تماما كيف يقود هذا التعود العملي على ممارسة القراءة إلى « الرغبة في القراءة » وكيف أنه يؤهل الطفل بصورة أفضل للتصدى لمشاق التدرب على القراءة بالمدرسة . والجدير بالذكر أن سلسلتين من الصعوبات تظهران هنا وهما ترتبطان بعلم الاجتماع وعلم النفس . إن التفاوت في مستوى القدرة على القراءة يشكل القاعدة في التجربة الأسرية للطلاب في مجال القراءة : « ذلك أن الأطفال يصلون إلى مرحلة الدراسة الإبتدائية بحصيلة من المعلومات المتباينة جداً عن الكتابة سواء من ناحية الكم أم الكيف » .

وبالإضافة إلى ذلك قد تؤدي ضوابط المدرسة إلى تعميق الهوة بين بعض الأطفال وإتقان الكتابة « حيث يتضاءل شأن وظيفة الكتابة نظراً لأن المدرسة تحصر استخدامها في أنماط مدرسية هدفها الأساسي تقديري مثل الإملاء والإنشاء وتقليص النص والقراءة بصوت مرتفع والقراءة الصامتة والأسئلة الخ ..»

ومن جانب آخر فإن سيكولوجية الدافع لا تكفي وحدها لإبراز العلاقات المتشعبة القائمة بين الطفل وإطاره الأسري ورغبته في التعلم وعلاقته بالمعرفة بمعناها الحرفي وهذا ما تكشف عنه حالات بعض الأطفال الذين يتمتعون بالذكاء والذين ينتمون إلى أسر مثقفة ولكنهم يواجهون صعوبات في القراءة . وفي مجال القدرة على القراءة فقد لعبت الإضافات العلمية دوراً حاسماً حتى وإن لم تكن نتائجها التربوية واضحة دائماً بهذا الصدد . بل لقد جددت سيكولوجية الإدراك كل نظريات التدرب على القراءة حيث أنها أوضحت كيف نضفي معاني على الكلمات عن طريق إدراجها في الفئات التي تنتمي إليها .

إن الإدراك هو ترجمة الحافز وتعلم الإدراك هو التدرب على بناء الفرضيات على أساس من المؤشرات وهو التدرب على إستخراج مؤشرات جديدة إذا ما اقتضى الأمر تصحيح هذه الفرضيات . ونحن ندرك لأننا إكتسبنا إستراتيجيات إستكشاف فعالة . وعندها يصبح إختيار النماذج أمرا لا يتطلب أي جهد ويتم بأقل وبأدنى قدر من المخاطرة .

وكلما تزايدت خبرتنا في مجال أو موقف ما أصبحنا قادرين على بناء فرضيات أفضل منذ الوهلة الأولى . لأننا نكون بصورة تدريجية قد أنشأنا نموذجاً للعمل . والنتيجة هي أننا ندرك بصورة ترجيحية فنحن نعرف كيف نستخلص من

النص مختلف الفرضيات المرتبطة بظهور حافز ما ، ونحن ندرك في إطار ما نتوقع أن ندركه . وفي الواقع فإن الذكاء هو الذي يقرر ما يتوجب علينا إدراكه ، إن عملية الإدراك تعني التنظيم والتصنيف انطلاقاً من نماذج معدة مسبقاً . وفي مجال القراءة تشكل هذه النماذج إدراك اللغة وتدعمه كما أشار إلى ذلك « ن . جاليفريه ـ جرانجون » .

إن مناهج القراءة تسعى جاهدة لتعلمنا بصورة منطقية كيف نقرأ . والمشكلة تنحصر في أن القراءة ـ حتى وإن اتخذت ظاهريا طابع الإستقبال والإستهلاك فهي في الواقع نشاط يهدف لإنتاج المعاني ، وكما هو الحال بالنسبة لإستراتيجيات الإدراك فإن القراءة تتلخص في انتقاء الخيارات واتخاذ قرارات(٧) .

أفق ترقب

إن أي إستراتيجية قراءة تجمع بين هذين المظهرين اللذين تفصل بينهما « المناهج » في أغلب الأحيان ، وهما يتلخصان في التعرف على مؤشرات منتقاة من النص وكذلك التعرف على الجمل والنصوص التي تتخذ هذه المؤشرات موقعاً فيها .. وتستمد منها معناها . وإذا استطعنا أن نتفهم بصورة أفضل الخطوات التي ينطوي عليها نشاط القراءة فنحن بالتالي قد نفترض أن الطفل يتعلم القراءة بصورة مماثلة . ولكن مهما كان الأسلوب المتبع في القراءة فإن الطفل يتعلم القراءة بدءًا من « أفَقْ ترقب » ناتج عن اختزان الخبرات المكتسبة والممارسات السابقة لها(٧) .

وهذه المعالجة لابد وأن تقودنا إلى توسيع الحقل الذي تطرح فيه مشاكل أي أسلوب تربوي لتعليم القراءة . والجدير بالذكر أن أفق الترقب واختزان الخبرات يختلفان من طفل إلى آخر . وإذا كانت المدرسة تطمح إلى إعطاء كل الأطفال ما توزعه عليهم بصورة غير متكافئة ، بيئاتهم الإجتماعية التي يعيشون فيها ، فإنه يتوجب عليها النظر إلى ما دون وما أبعد من مجرد قضية تعلم القراءة في المرحلة المتوسطة ، وينبغي عليها الإنتباه على سبيل المثال إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه الحضانة ، وإلى العمل المنظم في مجال القراءة الشفهية الذي يجعل الطفل قادراً على إستيعاب أسس الكتابة ، وإلى الإقبال بصورة دورية على قراءة الكتب المطبوعة (من خلال المكتبات مثلا) .

والأمر يتعلق إذن بإعادة التفكير في الصلة القائمة بين منهج التعليم ونجاح الطالب في إتقان القراءة انطلاقاً من عملية التعليم كنوع من « تفاعل الوصاية » طبقا لعبارة ج س برونو الشهيرة : « أن التخطيط الحقيقي للتعليم الفعال يخضع

7. J.-M. ADAM et R. LEGRAND-GELBER, « Une société malade de ses lecteurs ? » in *J'cause français, non ?*, La Découverte.

في آن واحد لمهمة التدريس وللطالب ، حيث أن مقتضيات الوصاية هي نتاج لهذا التفاعل[8] » .

والجدير بالذكر أنه ليس من المستحيل تحسين الوضع الحالي بصورة ملموسة . غير أنه يتوجب علينا بالمثل أن نقبل بإستخلاص كل النتائج الناجمة عن كون القراءة نشاطا مركبا ، وأن الإستخدامات الإجتماعية للكتابة متعددة لدرجة يستحيل معها تقديم تعريف واحد فقط للقراءة أو لعلم القراءة .

ومما لا شك فيه أن الأصوات التي تدق ناقوس الخطر لا تكف عن التأكيد على أن الفرنسيين الذين يقرأون بالفعل لا تزيد نسبتهم عن ٣٠٪ . غير أن الخطورة لا تكمن في هذه النسبة مهما كانت مثيرة للقلق أو مهما كانت مخزية ، بل إنها تكمن في كلمة « بالفعل » . وبالفعل فما معنى القراءة ؟ ولابد هنا من الإشارة إلى نقطة هامة وهي : إلى أي مدى تغيرت أوضاع النص والمعنى وكيف إتخذ مظهر القواعد التي تدعم القراءة في ثقافتنا طابعاً غير مفهوم ، وكيف أصبحت شرعيات أخرى ممكنة وقابلة للتصور ، ثم كيف أصبحت الكتابة دعامة « القراءات المتعددة » .

ولابد هنا من تذكير أنفسنا بأن المدرسة لم تعد تنفرد بعملية نقل المعرفة ، وأنها لم تعد تشكل مكانة متميزة في الشبكات المتداخلة للإنتاج الثقافي ، ونشر إستخدام المطبوعات . وقد تكفي هذه الملاحظات ، وحدها ، لتفهم قلق المعلمين والنقاش العنيف المتعلق بإنخفاض مستوى اتقان القراءة ، أوما يتردد عن أن المدرسة تقوم بتخريج عناصر جاهلة . وبالفعل ، فإن مسألة القراءة ليست عملية سلبية كما إنها ليست نظرية بحتة ، إذ تتدخل فيها اعتبارات سياسية وإجتماعية ، كما يتضح في الخطط التي يعدها الفنيون أو الجهود التي يقوم بها المناضلون الساهرون على إعداد إستراتيجيات لمكافحة الأمية ، وهذا ما يجعل القراءة قضية تخص الجميع (كما يؤكد الإتحاد الفرنسي للقراءة) لأنها - أي القراءة - مثار جدل وخطط تتركز في حقل من الصراعات يجد المجتمع نفسه ومستقبله مصمما فيها .

قراءات اضافية

« Apprentissage et Pratiques de la lecture à l'école » (Actes du colloque organisé par le ministère de l'Éducation nationale 13-14/6/1979) ; CNDP, 1979.

J. PYNTE, *Lire... identifier, comprendre*, Presses universitaires de Lille, 1983.

F. SMITH, *La compréhension et l'apprentissage*, Montréal, 1979.

J. DOWNING et J. FILJALKOW, *Lire et raisonner*, Privat, Toulouse, 1984.

E. BEAUME, *La lecture, préalable à sa pédagogie*, Association française pour la lecture, 1985.

J. FIJALKOW, *Mauvais lecteurs, pourquoi ?*, PUF, 1986.

« L'école forme-t-elle des lecteurs ? », *Le Monde de l'éducation*, juin 1985.

---

8. J.S. BRUNER, *Le développement de l'enfant : savoir faire, savoir dire*, PUF, 1983.

● حوار مع :

جي . شنج هان والعلاج بالإبر الصينية

أجراه : دوجلاس ستين
ترجمة : ابراهيم عبدالله العلو

كان جي شنج هان يتمشى في الحرم الجامعي لكلية طب بكين (الآن جامعة بكين) في أحد أيام عام ١٩٦٥ ، وقد استحوذ على تفكيره التجربة التي قرأ عنها في دورية لعلم الأعصاب ، لدرجة أنه لم يلاحظ أن الدكتور بونج ري كونج نائب رئيس الكلية كان واقفاً إلى جانبه وسأله :

« دكتور هان . ما رأيك في التخدير بوخز الإبر ؟ هل تعلم أنه يستخدم في الجراحة وبشكل ناجح أيضاً ؟ »

أجاب هان ـ المحاضر في الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) الذي لم يتجاوز السابعة والثلاثين من العمر في ذلك الوقت « لا أعلم ذلك فضلاً عن أنني لا أؤمن به . »

وفي اليوم التالي شاهدا في معهد السل عملية إزالة رئة . كانت المريضة خلالها تحت تأثير التخدير بوخز الإبر فقط ، حيث استلقت المرأة الشابة على طاولة العمليات وهي بكامل وعيها وقد غرزت عشرة أبر في كل يد وقدم . ولمدة ٣٠ دقيقة قبل العملية قام أربعة معالجين بتدوير الإبر الأربعين .

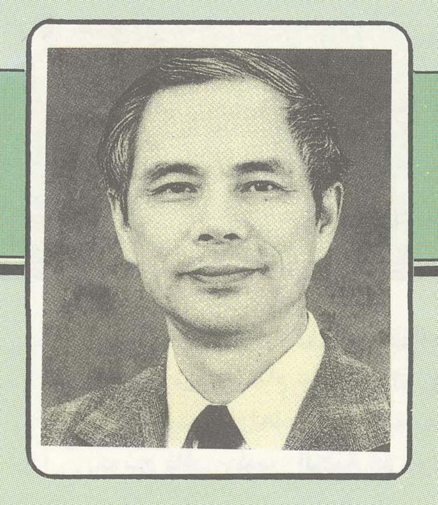
واليوم يتذكر هان : « لقد كانت عملية معقدة للغاية . كان عليهم أن يستخدموا لوحة إشارات مع أرقام لكي يعرف كل معالج متى يدير أي إبرة وقد رأيت مفعول ذلك » . ولكن لم يعرف أحد كيف حدث ذلك .

يعتبر الوخز بالإبر أحد أقدم المعالجات الطبيعية ، ويزعم الخبراء أن الأطباء الصينيين القدامى مارسوا أشكالاً بدائية من الوخز قبل أن تبنى الأهرامات العظمى . وبحلول عصر المسيح عليه السلام تطور العلاج بوخز الإبر في الشرق إلى نظام متقن لمعالجة مئات الأمراض الخطيرة والبسيطة .

العنوان الأصلي للمقال :

Interview with: Ji Sheng Han:

The Science of Acupunture, by: Douglas Stein, OMNI, Vol. 10, 1988.



إن المؤلفات العلمية المليئة باللوحات التشريحية والشروح ، توضح أن الصحة تعتمد على تدفق تشي (cH_1) التي تعني « قوة الحياة » عبر ممرات لا مرئية تدعى (jing) أو دوائر خط الزوال (meridians) ، وعموما تقابل الدوائر الأساسية الـ ١٤ أعضاء الجسد كالرئتين والكبد باستثناء قلة منها مثل العرق المسيطر (governor vessel) والمسخن الثلاثي (triple warmer) وحسب نظرية الوخز بالإبر يحدث المرض أو الألم نتيجة انسداد في « التشي » عند نقطة وخز (acupoint) أو أكثر على امتداد دوائر خط الزوال هذه . ومن خلال غرز الإبر في نقاط وخز متنوعة يبدِّد المعالج قوة « التشي » الزائدة ، أو يستكمل المورد المنخفض لتلك القوة ويرسلها للأعضاء الحساسة ، وبهذا تعود الصحة أو التوازن الحركي عن طريق تنظيم قوة الحياة أو إعادة موازنتها . ومنذ بداية القرن العشرين قام الأطباء ـ الذين تدربوا وفق الطرق العلمية الغربية ، بالبحث عن تفسير لكيفية إحراز نتائج ناجحة بطريق الوخز . ولكن هان لم يكن مهتماً بشكل خاص في إثبات وجود الدوائر الزوالية أو في كشف الروابط الغامضة بين مئات نقاط الوخز وأمراض بعينها . وعندما تحولت مهمته التدريسية من الفيزيولوجيا العامة إلى مناطق متخصصة في فيزيولوجيا الأعصاب ، بهره الحقل شبه المجهول المتعلق بإدراك الألم والتحكم به . وأدرك هان أن دراسة فقد الألم عن طريق الوخز بالإبر ستصبح الأداة المثالية لتفهم الكثير عن قتل الدماغ للألم .

ولهذا شكّل هان في عام ١٩٦٥ فريق بحث للتخدير بالإبر ، وبدأ باختبار مئات الأشخاص في المختبر . وتوفر لديه خلال أقل من عام معلومات تقول بأن الوخز بالإبر يحث الدماغ والحبل الشوكي على إنتاج مادة أو أكثر ترفع بشكل مثير عتبة المرض أو مقدرة المريض على تحمل الألم .

وفي عام ١٩٦٦ دفعت الثورة الثقافية بشكل مفاجىء الدكتور هان من قاعات التدريس والمختبر إلى الريف ، ثم عاد أخيرا إلى الوسط الأكاديمي عام ١٩٧٢ ، وقد قام هان مباشرة بما كان سيفعله أي فيزيولوجي غربي : إذ بدأ بدراسة الوخز بالإبر على حيوانات المختبر وقام بقياس النتائج وتسجيلها بشكل دقيق ، وأصبح هان أول من أثبت أن الوخز بالإبر يقتل الألم في الفئران والأرانب . وتنفي دراساته على الحيوانات أي إشارة لأثر كاذب في البشر . وقضى السنوات الثلاث التالية يجدول بعناية فائقة أدوار كافة ناقلات الإشارة العصبية المعروفة التي يمكن أن تؤدي إلى زوال الألم أو عدم الشعور به . واكتشف أن المستويات المرتفعة من مادة السيروتونين (Serotonin) تتناظر بشكل قوي مع انحسار الألم الناتج عن الوخز .

ومع تقدم السبعينات أصبح هان على يقين من أن مجموعة غير معروفة من المواد الكيميائية تساعد على قدح قوى الوخز القاتلة للألم ، وتم إثبات هذه الشكوك عام ١٩٧٥ عندما اكتشف جون هيوز وهانز كوسترليتز في ايبردين ـ بسكوتلندا ـ التركيب الجزيئي لمادة الانكفالين (enkephalin) ويعمل هذا الببتيد (Peptide) الصغير عمل المورفين القاتل للألم ، وكان أول المخدرات الدماغية الطبيعية التي تم عزلها وتصنيعها ، ومع تضخم قائمة المخدرات الباطنية أو المولدة من قبل الجسم ، أدرك هان أنه يحتاج إلى عقاقير مضادة بشكل خاص لكل منها ، عملاً على تحديد أين وكيف تستخدم الإبر المخدرات الطبيعية للقضاء على الألم . وفي عام ١٩٧٧ بدأ « لارس تيرنس ـ Lars-Terence » الذي شارك في اكتشاف المخدرات الباطنية المنشأ ، بدراسات تربط بين التخدير بالإبر والمخدرات الطبيعية ، ولهذا سافر هان عام ١٩٧٩ إلى أوبالا في السويد ، وكان تعاونه مع « تيرنس » مثمراً ، وعاد هان عام ١٩٨٠ إلى بكين وتلقى من « تيرنس » كمية كبيرة من العقاقير المضادة للأفيون (antiopiate) أو مضادات المصل (antisera) وبدأ بسلسلة من الفحوص الرائدة باستخدام هذه المضادات مع الوخز الكهربائي بالإبر (electrical acupuncture) .

وبكلمات هان التقليدية : « لقد أعطتنا تلك الاختبارات معلومات قيمة جداً عن كيفية عمل الوخز بالإبر أو مكان تاثيرها » . ولم يغب عن الأوساط العلمية ملاحظة ما قدمته اكتشافات هان لعلم الدماغ ، وقد دعي إلى عدة مؤتمرات هامة .

وفي عام ١٩٨١ طُلب منه ترؤُس مؤتمر أبحاث المخدرات العالمي الذي عقد في كيوتو باليابان . وبعد يوم طويل من أيام المؤتمر تقابل هان في المسبح

البخاري مع « أريك سيمون » من جامعة نيويورك وعالم الأعصاب الذي كان أول من صاغ تعبير المورفين الباطني المنشأ (endorphin) المشتقة من كلمة المورفين الباطني (من endogenous morphine) وقد أعجب سيمون من إتقان هان للغة الإنكليزية التي كان يتحدث بها بدون أية لكنة . وكانت جملة متقنة مثل تصميم تجاربه التي كانت فعلياً خالية من الأخطاء . ولد هان في عام ١٩٢٨ في هانجزو (Hang Zhou) عاصمة المقاطعة الصينية الشرقية زي جيانغ (Zhejiang) وتخرج من كلية شنغهاي الطبية عام ١٩٥٢ ، ولمدة عشر سنوات حاضر في الفيزيولوجيا في عدد من الجامعات ، وفي عام ١٩٦٢ انضم إلى كلية بكين الطبية حيث درس بين عدة أشياء تحكم الجهاز العصبي بضغط الدم والهضم .

وبالرغم من أن الثورة الثقافية نقلته خارج المختبرات لمدة ست سنوات إلّا أنه بحلول عام ١٩٨٢ كوّن فريق بحث الوخز بالإبر الذي يضم أكثر من ٢٠ عضواً من الهيئة التدريسية و ٥٠ باحثا من مرحلة ما بعد الدكتوراه بالإضافة إلى العديد من المساهمين العالميين : « إن الوخز بالإبر شجرة عريقة عميقة الجذور في الصين ، وبتغذيتها بالعلم والثقافة الحديثة ستثمر هذه الشجرة القديمة بوفرة من جديد » .

• • •

أصبح هان عام ١٩٨٣ عميداً لكلية الفيزيولوجيا في جامعة بكين الطبية وأسس في شهر تموز الماضي مركز أبحاث علم الأعصاب هناك ، لتوحيد جهود الجماعات العاملة في ذلك التخصص ، ومع أن هان كان مدير ذلك المركز فإنه كان يجد الوقت لصحبة حفيدته الصغرى إلى حديقة الحيوانات لرؤية « البندا » وقد صمم هان وطوّر جهازاً كهربائياً يدعى الواخز (Acutens) الذي يجمع بين الوخز بالإبر والتنشيط الكهربائي ، وخطط لتسويق ذلك الجهاز في أقرب وقت وكتب يقول « إنه جهاز قوي سهل الإستخدام ويقتصد في الطاقة ويمكن أن يخدمك بسهولة لعدة سنوات » .

وقد التقى الكاتب دوجلاس ستين مندوب مجلة أومني (OMNI) مع الدكتور هان خلال رحلة قصيرة إلى مدينة نيويورك ، وبعد ذلك غادرها متوجهاً لحضور مؤتمرات في علم الأعصاب في كل من هامبورج وميونيخ وفيينا وبودابست وسيدني وأديليدا وهونج كونج .

* * *

● **أين ومتى نشأ استعمال الوخز بالإبر ؟**

- لا يوجد نهاية للجدل . ويذكر كتاب الطب الداخلي التقليدي للإمبراطور الأصفر . The yellow emperor classic of internal medicine

إن التاريخ الحاسم للوخز بالإبر لم يظهر قبل الإمبراطور الأصفر « هوانج تي » مؤسس الدولة الصينية في القرن الخامس قبل الميلاد ، إنه عبارة عن تجميع للوثائق والشروح على مدى عدة قرون . إن التقدير المحافظ لعمر الوخز بالإبر هو ٢٤٠٠ عام ، أي أن الوخز بالإبر كان موجودا عندما كانت تمثل التراجيديا اليونانية لأول مرة .

لقد جرت ممارسته بأشكال أكثر بدائية لقرون عديدة قبل ذلك ، وبدأ بالفعل مع استخدام الأفراد لصخرة صغيرة حادة تدعى حجر (bian) لضغط أو ثقب الجلد ، واستبدلت بحجر « بيان » الإبر العظمية ، وبعد اكتشاف المعادن استخدم الذهب والفضة لصنع الإبر . وعندما قمت بتأليف كتاب « الأساس الكيميائي العصبي لتسكين الألم بالوخز بالإبر » اكتشفت أن هناك مئات الحكايات والأساطير عن كيفية إدراك الناس لأول مرة أن الضغط أو الثقب يمكن أن يعيد الصحة إلى المرضى ، وتقول إحدى تلك القصص أن الوخز بالإبر بدأ عندما لاحظ القرويون أن أمراض المحارب المزمنة كانت تُشفى بشكل غامض بطعنات الرماح التي يعانيها أثناء المعركة ، ولكن لا يستطيع أحد أن يثبت صحة هذه الأساطير .

● **هل سجل العلم وجود دوائر خطوط الزوال ؟**

- هناك عدة جماعات في جميع أنحاء الصين تبحث عن الدليل ، ولكن حتى الآن لم يعثر على أي تركيب تشريحي لذلك . وقد حاولت معظم الدراسات تحديد الروابط الوظيفية بين الجلد وأعضاء الجسد المختلفة . وقد قام العلماء بقياس المقاومة (impedance))أو المقاومة الكهربائية عند غرز إبرة قرب نهاية الخط الزوالي واكتشفوا أن مقاومة الجلد عبر الخط الزوالي تنخفض عند المعالجة بالوخز .

● **أليس هناك أنواع عديدة من الإبر ؟**

- يستخدم المعالجون الصينيون التقليديون تسعة أنواع من الإبر في مواضع مختلفة من الجسم لغايات علاجية متنوعة . وجميع الإبر صلبة ولا يشبه أي منها المحقنة (Syringe) ، ويتراوح طول معظمها ما بين بوصة (٢,٥سم) إلى بوصتين . ولكن طول بعضها يصل إلى أربع أو خمس بوصات للوصول مثلاً إلى

سمحاق العظم الطويل للفخذ (periosteum of the femur) . وبعض الإبر قصيرة وقوية مع حافتين حادتين(مثل رأس الرمح) لثقب الجلد وتشجيع النزف وللسماح للدم الراكد بالخروج . ويتم عادة وضع من إبرتين إلى أربع إبر في نقاط متنوعة ، ويتم تدويرها بشكل متناوب ، فإذا كنت تقوم بمعالجة مرض القلب مثلاً يمكن أن تستخدم إبرة لتثبيت ضربات القلب وإبرة لتخفيض ضغط الدم وإبرة لتهدئة الدماغ .

● **هل رسمت دوائر الخطوط الزوالية للكلاب والبقر والخيول ؟**

- لا تتوفر لدينا الآن الجداول الخاصة لكل حيوان ، ولكن يوجد لدينا خرائط للحصان والثور ربما لأن تلك الحيوانات كانت مهمة للزراعة والمواصلات ، وكنا مهتمين بالمحافظة على صحتها . ومع أن خطوط الحصان متشابهة لخطوط البشر فإن المعنى الدقيق لاسم نقطة الوخز يمكن أن يختلف بشكل ملحوظ . ومثال على ذلك نجد أن نقطة (Bai hui) (بايا هوي » رقم (٢٠) على خط الدو (Du) ـ وتعني التجمع المئوي ـ توجد على قمة الرأس في الإنسان بينما توجد لدى الحصان في العجان (perineum) « المنطقة الواقعة بين الشرج والأعضاء التناسلية » .

أما بالنسبة للدراسة التجريبية في حيوانات المختبر فإننا نستخدم مبدأ التشريح المقارن ، إذ يفترض أن للأعضاء المتشابهة في الحيوانات المختلفة نقاط الوخز نفسها .

● **متى تم اكتمال النظام الحالي مع ٣٦٥ نقطة وخز على ١٤ خطاً ؟**

- لدينا حفريات منذ سلالة هان ، أي قبل حوالي ألفي عام ، تدل على أنها لم تصل آنذاك إلى مرحلة الأربعة عشر خطاً ونعتقد أنها وصلت إلى تلك النقطة في وقت ما خلال سلالة تانج (Tang) (من سنة ٦١٨م إلى سنة ٩٠٧م) . وكان التطور تدريجياً ، وفي الحقيقة ، هنالك العديد من النقاط الإضافية ؛ فالأمر لا يقتصر على النقاط الـ ٣٦٥ . فمثلاً هناك ما يسمى نقطة أشي (Ashi) التي تعني (آه ـ نعم) في اللغة الصينية . إذْ عندما تضغط على كتف المريض وتصل إلى النقطة الأشد ألماً فإن المريض يصرخ « آه ـ نعم » وتستخدم نقطة ينتانج (Yintang) الموجودة في الوسط بين نهايتي الحاجبين لعلاج تشنجات الأطفال والصداع الأمامي . أما نقطة دنجشوان (Dingchuan) الموجودة قرب الفقرة العنقية (Cervical) الأولى ، فتستخدم لعلاج داء الربو . وهذه نقاط هامة إضافية ليست موجودة على الخطوط الأربعة عشر .

● **كيف نسجل الألم ؟**

- هناك مستقبلات متخصصة على الجلد للمثيرات المتنوعة كالحرارة واللمس والضغط . إن النهايات الحساسة للضغط الموجودة على سطح الجلد بأكمله وأيضاً في الأنسجة الداخلية مزوّدة بأعصاب حساسة خاصة مغلفة . ولكن نهايات الأعصاب الحساسة للألم عادية . وهي حساسة للمواد الكيميائية كالبوتاسيوم والهستامين (histamine) والموثين (Prostaglandin) والعديد من المواد الأخرى المنتجة للألم . إن إتلاف الأنسجة مثلاً يطلق البوتاسيوم الذي يحرض بقوة نهايات الأعصاب الحساسة للألم .

● **كيف ينتقل الاحساس بالألم من سطح الجسم إلى الدماغ ؟**

- ترسل المعلومات عن الألم أولاً إلى الجزء الظهري (dorsal) من الحبل الشوكي « المادة المركزية الرمادية للحبل الشوكي منظمة في ثلاثة أعمدة - ظهري - وجانبي وباطني - وتمتد بشكل موازٍ للمحور الطويل للحبل الشوكي » . وتنتقل من الحبل الشوكي الظهري إلى الأعلى نحو الدماغ ، على الأقل عبر ستة مسالك ثلاثة منها ذات أنظمة سريعة النقل ، تنقل للدماغ الإحساس اللاذع المحدد الموقع . أما المسالك الباقية فهي ذات أنظمة بطيئة النقل تحدث احساسا غامضاً أكثر تعاسة ، وهذا الألم البطيء النقل أكثر عرضة للصد بوخز الإبر .

● **لماذا كانت المحاولات الجراحية لصد الألم بقطع الأعصاب الشوكية فاشلة دائماً ؟**

- ظن جراحو الأعصاب في بداية القرن أن الجراحة كانت هي الجواب . وأن مجرد قطع الطريق في منتصف الحبل الشوكي أو في المهاد (Thalamus) أو في مركز الدماغ يقضي على الألم . ولكن نظراً لوجود العديد من الممرات فإن نبضات الألم تتحول إلى الممرات الأخرى بعد عدة أسابيع من قطع أحدها . وقد أجري لأحد المرضى عشرون نوعاً من العمليات في العمود الفقري ولكن الألم استمر رغم ذلك . وسواء حاولت إيقاف أو صد الألم بالمشرط أو الكي أو التدمير الكيميائي فإن النتيجة واحدة من حيث المبدأ ، حيث أن الطبيعة لا تسمح بأن يكون صد الألم انتقائيا ، ولكن يجب أن تقطع الحبل الشوكي بأكمله لإيقاف الألم .

● **في أي موضع من الدماغ بالتحديد يبدأ الدماغ في إدراك أن النبضات الآتية عبر مختلف ممرات الألم مؤلمة ؟**

- لا يستطيع أحد أن يحدد بالضبط عند أي نقطة يحدث ذلك ، ولكن معظم

الفيزيولوجيين يتفقون على أن المهاد هو النقطة الحساسة لإدراك الألم . وينظر إلى المهاد عادة على أنه محطة تبديل أو توصيل وتُعالج المعلومات الآتية إليها وتقرر إلى أين ترسلها في القشرة الدماغية الموجودة فوقها . وبما أن البشر لا يشعرون قط بالألم بدون قشرة دماغية فإنه من الصعب أن نجد أي عصبون (neurone) فيها متخصص . ومع ذلك فإن للمهاد العديد من الدوائر المتخصصة للألم وليس للمس . تقوم القشرة بشكل أساسي بتقسيم أو إتخاذ القرارات المتعلقة بنبضات الألم التي ينظمها المهاد ويرسلها إليها . وعندما يصبح المرء محامياً ناجحاً فإنه يتوقف عن تحضير مرافعاته الخاصة ويكتفي بالمحاكمة . وربما يستطيع المرء أن يقول أن المهاد في داخل الدماغ هو الذي يحضر المذكرة القانونية ، وتقوم القشرة الدماغية بإجراء المحاكمة .

● **كيف بدأت أبحاثك ؟**

- بدأنا عام ١٩٦٥ بعد التأكد من أن الوخز بالإبر يُحدث تأثيراً قاتلاً للألم . وقمنا بغرز الإبر في الناس لنرى ما إذا كان هناك تخفيض للألم . ونظراً لأن الألم المحسوس يتناسب مع كمية البوتاسيوم التي تطلق عند نهايات الأعصاب فقد حاولنا إدخال شوارد البوتاسيوم في الجلد عن طريق الشحنات الكهربائية المتزايدة الحدة .

وقد تم تسجيل احساس مؤكد بالألم عند ازدياد التيار ، قمنا بقياس عتبة ابتداء الألم بهذه الطريقة على سطح الرأس والصدر والبطن والظهر والساقين أي ثماني مناطق على الجسد ككل . وبدون الوخز بالإبر بقيت نفس عتبة الألم طوال ٩٠ دقيقة من الاختبار . وبعد أن غرزت الإبرة وجرى تدويرها ارتفعت عتبة الألم إلى الذروة ببطء . لقد ظننت في البداية أن هذه الزيادة الظاهرة في مقاومة الألم تنتج عن نوع ما من الإلهاء المرتبط بتحريك الإبر ، ولكن ذلك غير ممكن لأن الإلهاء يحدث فجأة ، حيث تتصاعد عتبة الألم ببطء وتصل إلى الذروة خلال عشرين إلى ثلاثين دقيقة . وهذه الفترة الزمنية تنطبق تماما مع تجربة المخدرين الذين يعرفون أن الحصول على الأثر الأعظم للتخدير بالإبر يستغرق ذلك الوقت نفسه .

● **ما طول المدة التي يستطيع فيها رفع عتبة الألم أن يدرأ الإحساس بالألم ؟**

- بعد نصف ساعة من الوخز ينخفض تأثير الألم ، ويستمر على ذلك لمدة ساعة أو ساعتين طالما يجري تحريك الإبر بشكل متناوب ، ولكنه ينخفض إلى حد كبير بعد أربع ساعات . ومن الممتع حقاً أن معدل الانخفاض الذي يتبع إزالة الإبرة

منتظم جداً حسب عدد كبير من المشاهدات . وبعد أن عدلنا الإستجابات ضمن مجموعة من حوالي عشرين شخصاً وجدنا انخفاضا قدره خمسون في المائة من تأثير تحمل الألم كل ١٥ إلى ١٧ دقيقة . لقد قمنا باختبار مئات الأشخاص وبدا المكان خلال النهار كالمصنع . إذْ جلس ستة معالجين إلى جانب ستة متطوعين وقام ستة تقنيين بتشغيل آلة اختبار الألم . وفي المساء قمت بتجميع كافة المعلومات وباستخدام مسطرة حاسبة وورقة رسم بياني فقط قمت بوضع النقاط العليا والنقاط الدنيا حتى الساعة الثانية صباحاً ، وعندما حصلت أخيراً على هذا المنحنى المنتظم ـ نصف عمر مقاومة الألم ـ كنت مسروراً جدا لدرجة أنني هرعت لكي أخبر أي أحد بذلك ، ولكني كنت وحيداً في المبنى

● ● ●

أقنعتني هذه الاختبارات عام ١٩٦٥ أن المعالجة بوخز الإبر يجب أن تنتج مادة ما داخل جسم المريض ، ولماذا إذًا هناك هذا التراكم التدريجي لمقاومة الألم . وقد اقترحت أن العكس كان صحيحا أيضاً . إذْ عندما نزيل الإبر فإن عتبة الألم تنخفض بمعدل خاص نظراً لأن المادة المجهولة لا تتجمع بعد الآن .

● **كيف قمت باكتشاف المادة المجهولة ؟**

ـ قمنا بنقل السائل المخي الشوكي (Cerebro spinal fluid) بين أرنبين . وبما أن السائل النخاعي يجري حول كافة مناطق الدماغ والنخاع الشوكي فإن المواد المنتجة في الدماغ والحبل الشوكي تصب دائماً في السائل النخاعي . وقد افترضت أن المادة المسؤولة عن أثر الوخز بالإبر القاتل للألم يجب أن تكون موجودة في السائل النخاعي للأرنب الذي استجاب بشكل جيد للوخز . وللتأكد من أن الوخز قد قتل الألم في الأرانب سلطنا حرارة عالية على الجلد قرب أنف وفم الأرنب ـ حيث أن الأرنب يقوم دائماً باستكشاف محيطه بواسطة أنفه ولهذا فإن أنفه حساس جداً للحرارة . وعندما استخدمنا الحرارة ثانية بعد الوخز ، اكتشفنا أن حساسية الأنف للألم تنخفض من ضعفين إلى أربعة أضعاف ، وقسنا ذلك بعد الثواني التي مضت قبل أن يبتعد الأرنب عن الحرارة . وقد استخدمنا أرنباً آخر كمتطوع تم تعريضه للوخز ، وأرنبا آخر لم يتعرض للوخز . وعندما قمنا بحقن كمية من السائل النخاعي من الأرنب المتبرع إلى دماغ الأرنب المتلقي اكتشفنا ارتفاعا ملحوظا في مقاومة الأرنب المستقبل للألم . ويبدو من ذلك أن المادة المعنية التي كونها الحيوان الأول كانت السبب في القضاء على الألم في الحيوان الثاني بعد وخزه بالآبر . لقد أجرينا



تجارب على البشر عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦! ولكن التجارب على الحيوانات بدأت عام ١٩٧٢ وكان هذا الانقطاع بسبب الثورة الثقافية .

● **حسنا . أخبرنا ماذا حدث لك خلال الثورة الثقافية ؟**

- في عام ١٩٦٦ كنت مجرد محاضر متواضع في الفيزيولوجيا لذلك لم أتأثر كثيرا حين نقلت إلى الريف . وهناك عالجت المرضى وعلمت الأطباء حفاة الأقدام الطب التقليدي وقمت بالوخز بالإبر بنفسي . وقد كنت سعيداً لأن بعض طلابي في تلك الفترة انتسبوا إلى كلية الطب في وقت لاحق . ولم أبتعد كثيرا عن العاصمة ويرجع ذلك جزئيا لمهارتي كخطاط . ذلك الفن الذي أحببته منذ القدم ، وقد بدأت بممارسته لمدة ساعة أو ساعتين كل صباح منذ أن كنت في السادسة من العمر . ونظراً لأن اللجان الثورية وجدت من المفيد عمل الملصقات الضخمة فقد أبقوني قريباً من بكين حتى يمكنهم استدعائي بسرعة لعمل اللافتات .

وبالرغم من أن تلك الفترة كانت سيئة تقريباً لكل شخص في الصين إلّا أن ذكرياتي الشخصية كانت رائعة .

● **لقد تابعت دراساتك في الوخز بالإبر عام ١٩٧٢ وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من اكتشاف الإنكفالين ؟**

ـ نعم . في ذلك الوقت لم نكن نعرف أن الدماغ ينتج أشكاله الطبيعية من المورفين . وبدلاً من محاولة عزل وتنقية بعض الكيماويات المجهولة ـ الأمر الذي كان مستحيلاً في ذلك الوقت بأجهزتي ومنشآتي المحدودة ـ ظننت أنه من الأفضل أن نرى ما إذا كان للمرسلات العصبية المعروفة سابقاً بعض الخصائص القاتلة للألم ولهذا قررت دراسة السيروتونين (Serotonin) وهو مرسل عصبي تقليدي كمشروعي الأول . في البداية قمت بحقن الفئران بعقار يوقف السيروتونين وبذلك ينخفض محتوى السيروتونين في الدماغ ، ولن يفيد الوخز بالإبر في تلك الحيوانات . وعندما بدأت مستويات سيروتونين الدماغ باستعادة مستواها عاد عمل الوخز من جديد . وفي المرة التالية قمنا بالعكس ، إذْ أعطينا الحيوانات عقاراً يحرض إنتاج السيروتونين فأنتجت كميات أكثر من السيروتونين فزاد الأثر القاتل للألم بمعدل مائة وخمسين بالمائة . وفي اختبارنا الثالث قارنا الفئران التي استجابت جيداً للوخز بالحيوانات التي لم تستجب له . وقد أظهرت الفئران المستجيبة زيادة عظيمة في سيروتونين الدماغ بعد الوخز . وهذه الاختبارات التي أجريت بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٤ أظهرت دور السيروتونين في أثر الوخز القاتل للألم .

● ● ●

● **أظن أن اكتشاف الإنكفالين قد غيّر من اتجاه بحثك بشكل ملحوظ ؟**

ـ لقد اطلعت على تقريرين . أحدهما من جون هيوز في اسكوتلندا يعلن تركيب جزيء الإنكفالين ، والآخر من دافيد ماير في الولايات المتحدة أظهر أن النالوكسون (Naloxone) عقار يصد أو يعوق مستقبلات المخدرات ويخفض أثر الوخز القاتل للألم . وقد قام ماير بحقن النالوكسون في جلد الإنسان ولكنني قررت حقنها مباشرة في دماغ الأرنب حيث يتم إنتاج وتدوير السائل النخاعي بحيث ينتشر بشكل أسرع في كافة مناطق الدماغ ، وكانت النتائج مذهلة : إذ أن حقن النالوكسون عوقت الوخز بالإبر بمعدل ٥٠٪ . وأظهر ذلك أن المخدرات الدماغية الطبيعية كانت مسؤولة بشكل جزئي عن التأثير القاتل للألم . ويجب شمول الكيماويات العصبية الأخرى مثل السيروتونين أيضا .

● **بعد الإنكفالين اكتشفت عدة مخدرات دماغ طبيعية أخرى مع فعالية ومواضع عمل متنوعة ؟**

- بحلول عام ١٩٧٩ تم على الأقل اكتشاف عشرة مخدرات طبيعية أخرى ، وفي العام نفسه اكتشف افرام جولد ستيان من جامعة ستانفورد الدينورفين (Dynorphin) المسمى كذلك لأنه أقوى بمائتي مرة من الإنكفالين كما أثبتت التجارب على الحيوانات . ومن المحير أنه عندما حقن الدينورفين في أدمغة الفئران والجرذان لم يلاحظ أي أثر قاتل للألم . وقد كتبت إلى جولد ستيان قائلاً : إنني أريد حقن الدينورفين في الحبل الشوكي للفأر لأنه وُجِدَ فائق القوة . وقد أرسل إليّ بكل لطف ٢ ملغم ، كلفة الواحد منهما في ذلك الوقت ٥٠٠ دولار . عند حقن أي مادة كيميائية في الحبل الشوكي فإن المرء ينتظر عادة سبعة إلى عشرة أيام للإبلال الجراحي . وعندما قمت بذلك لم أحصل على أي أثر قاتل للألم من جراء حقن الدينورفين ولهذا غيّرت الطريقة وحقنت الدينورفين خلال ٢٤ ساعة بعد الجراحة .

وقد كانت النتيجة رائعة . ودعاني جولدستيان إلى مختبره عام ١٩٨٢ كي أريه كيف قمت بذلك . وفي مؤتمر عقد في بوسطن وحضرناه سوياً قام جولدستيان وأعلن «سوف يقدم دكتور هان غداً دليلاً على أن الدينورفين يعمل كمخدر في العمود الفقري وليس في الدماغ» .

● **لماذا تحولت من الوخز التقليدي بالإبر إلى الوخز الكهربائي ؟**

- عندما يغرز المرء إبرة ويحركها فإن المريض يحصل على شعور غريب للغاية يسمى ديشي (Dechi) وهو ليس بألم حقيقي ولكنه انزعاج مصحوب بإحساس بالثقل والخدر والتورم . إن المخدر الموضعي المسمى البروكايين إذا حقن تحت الجلد لا يزيل هذا الاحساس الوخزي . ومع ذلك فإن الوخز بالإبر فعال ، ولكن عندما حقنت البروكايين عميقا في الطبقة العضلية غاب أثر الإحساس الوخزي وأثر الوخز بالإبر ، لذلك يجب أن تكون النقطة الحساسة متواجدة بعمق داخل العضلات والأوتار .

إن لكل معالج طريقته الخاصة للوصول إلى الديشي (Dechi) ومن أجل تعميم الطريقة فكرت باستخدام التمريض الكهربائي من خلال الإبر للوصول إلى الأنسجة العميقة . وبهذه الطريقة أستطيع تغيير أبعاد التمريض الكهربائي لإنتاج الديشي الأكثر ملاءمة . وفي الواقع أنني استخدمت أيضا عام ١٩٦٦ نوعا من الأقطاب الكهربائية السطحية التي يكون أحد أجزائه في الأعلى والجزء

الآخر تحت نقطة الوخز وربطهما سويا مع جزء من زنبرك ساعة . وقد نجحت التجربة ، وكان ذلك أول نموذج من الوخز بدون ابر أو تحريض الأعصاب الكهربائي عبر الجلد . Transcutuneous Electric Nerve Stimulation (TENS).

● **هل تغير تردد التحريض الكهربائي ؟**

- يصرُّ المعالجون التقليديون دائما على أن الطرق المختلفة من تدوير الإبرة تؤدي إلى تأثيرات شفائية مختلفة ، والمثال الأكثر شيوعا هو أننا نعالج الإسهال والإمساك عبر النقطة نفسها سوزانلي (Zusanli) وهي نقطة شهيرة متوضعة تحت الركبتين ، ولكننا نستخدم حركات متنوعة . وعندما تسألهم كيف يقومون بذلك فإنهم يجيبون أنها ساخنة أو دافئة أو باردة ولكل منها معالجة يدوية مختلفة ، ولكل معالج طريقته الخاصة في التداوي .

● **هل شعرت بأن الطريقة التقليدية كانت أكثر موضوعية ؟ ألا تستطيع أن تربط الآثار بالأرقام ؟**

- نعم ولهذا حاولنا الوخز الكهربائي . وحاولنا أيضا نسخ أسلوب المعالج التقليدي بتغيير تردد ونطاق التحريض الكهربائي . وقد قام بروس بوميرانس من جامعة تورنتو باكتشاف هام للوخز الكهربائي عام ١٩٧٧ . أن كلا الوخز العالي والمنخفض التردد يقتلان الألم ، ولكن جرعة صغيرة من النالوكسون تستطيع أن تعوق التردد المنخفض . واستنتج أن أثر الوخز الكهربائي العالي التردد لا يتم توجيهه بالمخدرات ، ولكننا اكتشفنا في مختبرنا أن النالوكسون يحبط الآثار العالية والمنخفضة التردد للوخز الكهربائي . إن جرعة صغيرة من النالوكسون تعوق بسهولة التحريض الكهربائي المنخفض التردد ، بينما يحتاج التردد العالي إلى جرعة أقوى منها أربعين مرة لإحداث الأثر نفسه . وفيما بعد أثبت أن هذا التحريض العالي التردد يطلق الدينورفين ، ورأيت أنه بإمكاننا صد الأثر العالي التردد بصد الدينورفين . ومؤخرا تم استخدام المقايسة المناعية الشعاعية (Radioimmunoassay) لإثبات أن الوخز المنخفض التردد ينتج الكثير من الانكفالين بدون الدينورفين . أما التردد العالي فينتج العكس أي الكثير من الدينورفين بدون أي انكفالين .

● **هل حاولت تبديل التردد للأمام وللخلف ؟**

- إن المعالج التقليدي يدور الإبرة بسرعات كثيرة مختلفة . وإذا كانت بطيئة يمكن أن يدور الإبرة إلى الأمام أو الخلف أو إلى الأعلى والأسفل مرة واحدة كل ثانية ويمكن أن يكون أسرع بأربع أو ست مرات .

ويعني ذلك إرسال نبضات إلى الجهاز العصبي المركزي تتراوح بين ٤ و٦ نبضات كل ثانية ، وبالطبع فإن اليد البشرية ليست دقيقة أبدا . ولا يستطيع أحد القول .. إني أدور بسرعة دورتين أو خمس أو عشر هرتز كل ثانية . ولهذا اخترنا نمط تردد ٢ و١٥ هرتز وانتقلنا بشكل تلقائي لاحتواء الدورات البطيئة والسريعة .

وقد كنا محظوظين للغاية لأن التبديل من ٢ الى ١٥ هرتز يطلق الانكفالين والدينورفين معا . وينطبق ذلك فقط على الحيوانات التي تستجيب للوخز بالإبر .

أما بالنسبة للحيوانات التي لا تستجيب فينطلق الانكفالين أو الدينورفين قليلا أو لا ينطلق بالمرة بعد الوخز ، سواء استخدمت التحريض العالي أم المنخفض التردد .

● ما الذي يمكن أن يسبب عدم الاستجابة لدى الإنسان أو الحيوان ؟

- يقول معالجون مختلفون أن نسبا مختلفة من مرضاهم تستجيب . وعندما مارست وخز الابر في الريف خلال الثورة الثقافية شاهدت مئات المعالجين الأصليين والعديد من العمليات الجراحية التي أجريت تحت تأثير الوخز في المستشفيات ، وأعتقد أن ٨٠ ٪ من الأفراد يستجيبون للوخز بدرجات مختلفة أما الباقي فلم يكن لديهم أي استجابة . ومن الملفت للنظر حقا أن الحيوانات تستجيب بصورة مشابهة (٨٥ ٪) .

وقد قام أحد طلاب الدراسات العليا عندي بدراسة استمرت لمدة عام على ٧٠٠ فأر ، وكانت الاستجابة للوخز بالإبر ثابتة تقريبا طوال العام باستثناء شهري نيسان وأيار ، في حين تحسنت الفئران غير المستجيبة ، وساء حال الحيوانات التي استجابت بشكل جيد ، وقد تجمعت هذه المعلومات لدينا بمرور عدة سنوات . ومع ذلك لازالت بحاجة لتفسير . وأعتقد أن تحول الاستجابة يعزى إلى التغيرات التي تحدثها الزيادات في الضوء والتي تؤثر على قضايا كالأيض (الاستقلاب) والتزاوج والهجرة .

ومع كل لماذا تستجيب بعض الحيوانات ولا تستجيب الحيوانات الأخرى ؟

إن التفسير الواضح هو أن الحيوانات التي لم تستجب لم تفرز المخدرات أو السيروتونين بعد الوخز ، ولهذا لم يكن يحدث أي تأثير . وهنالك إمكانية أخرى

فالحيوانات التي لا تستجيب يمكن أن تنتج مواد خلال الوخز تعارض أو تعوق السيروتونين والمخدرات ، ومن بين تلك المضادات الكوليستوكانين (Cholecys-tokinin 'cck' الذي يسبب تقلصات المرارة ولكنه يقوم بعمل مغاير تماما في الدماغ . وفي عام ۱۹۷۸ خلال احتفالات الربيع برأس السنة الصينية الجديدة كنت أعمل مع زميلي (Ming — Feng) مينج فينج في مختبري ، وأردنا أن نحتفل بالمناسبة بالعمل دون ازعاج الإتصالات الهاتفية أو الزيارات المفاجئة ، وقمت بوخز الفئران بالإبر لمدة نصف ساعة ثم قمت بقياس التأثير ، وبعد ذلك بنصف ساعة قمت بجلسة وخز ثانية وظننت في البداية أن الفئران أظهرت تأثيرا أقل في الجلسة الثانية ، ولكنني اكتشفت أن الجلسة الثانية لم تكن بجودة الأولى ، ومع كل جلسة إضافية حصلت على تأثير أقل ، وأدركت أن الوخز بالإبر يشابه قاتلات الألم الأخرى . إذ أننا نحصل على نتيجة أقل كل مرة ، ويبدو أن مقاومة وخز الإبر تستمر على الأقل لمدة ٤ ساعات . وبما أن المقاومة تتزايد مع كل جلسة فإن الأمر يحتاج إلى يوم كامل للإبلال من ستة جلسات ، وكررت هذه التجربة عدة مرات ولكن بما أنني كنت أحصل دائما على نفس النمط الزمني تساءلت فيما إذا كان هناك حدوث تغيير كيميائي . وللعثور على إجابة أخذت بعض خلاصات الدماغ من الفئران الطبيعية والمقاومة ، وحقنتها في أدمغة الفئران البسيطة وعندما تلقى الفأر الساذج الخلاصة من الفأر المقاوم لم يستجب للوخز ، ولهذا استنتجت وجود مادة مضادة (Antagonistic) ضمن الخلاصة ذاتها

● **هل تعتقد أن تلك المادة هي الكوليستوكافين ؟**

- قمنا بتنقية الخلاصة ووجدنا أن المركب النشيط هو ببتيد (Peptide) وله نفس الوزن الجزيئي تقريبا للكوليستوكافين ، وثبت أنه يخفض تأثير المورفين والمخدرات الطبيعية . وعلى أية حال اكتشفت أن كمية ضئيلة منه تعوق الوخز بالإبر ، ولهذا يسبب مقاومة لآثار الوخز كما أن حقن مضاد الـ (cck) في الفأر المقاوم يقلل فعلا مقاومته .

● **لقد ساعدت أبحاثك في كيمياء الوخز على إثراء معرفتنا بكيفية تحكم الدماغ بالألم . هل تستطيع أن تشرح بعض ذلك ؟**

- إن شبكات التحكم بالألم الموجودة بالدماغ تفتقر إلى الفهم ، وحتى وقت قريب كان العلماء ينظرون بشكل رئيس إلى إدراك الألم . لقد أثبت اكتشاف الانكفالين والأندروفين والمخدرات الطبيعية الأخرى أن الدماغ يمتلك العديد من المسالك للتحكم بمقدار الألم الذي نشعر به ونتزعج منه ، ونسمي الآن آلية

الضبط تلك نظام تعديل الألم (Pain Modulatory System) ، وهي في حقيقة الأمر نظام رجعي أي أنه يحدث بعد الإحساس بالألم ، ويعمل هذا النظام لإعاقة الإدراك المستمر وانتقال الألم على مستوى النخاع الشوكي ، أي قبل أن ينتقل الإحساس ثانية إلى الدماغ الذي يصنفه كألم .

لقد تضمنت أفكارنا الأولية عن هذا النظام ذلك الجزء من الدماغ الموجود فوق الحبل الشوكي ، وهذه المنطقة البدائية للغاية والتي تعرف بساق الدماغ تتضمن منطقة تدعى الدماغ المتوسط (Midbrain) ، إن السائل الدماغي النخاعي الذي يغسل ويسند الدماغ بأكمله يجري عبر قناة ضيقة تسمى قناة سلفيان الضيقة (Sylvian) قرب قمة الدماغ المتوسط ، ونسمي المنطقة التي تحيط بهذه القناة المادة الرمادية المحيطة بالقناة Periaqueoluctal Gray) ('Matter 'PAG وفي أواخر السبعينات اكتشف أن هذه المنطقة ترسل ألياف الإنكفالين بعدة مليمترات للأسفل إلى مجموعة من النوى العصبية في النخاع المستطيل (Medulla) تدعى عقدة الرفاء (Raphe Magnus) ومن هنا تنزل عصبونات السيروتوفين إلى القرن الظهري للحبل الشوكي حيث يبدأ انتقال الألم ، وضمن القرن نفسه تفرز العصبونات الانكفالين الذي يستطيع بدوره أن يكبح دفقات الألم من السير إلى الأعلى نحو الدماغ .

وهذه بالطبع نظرية محدودة للغاية لضبط الألم ، ولا تشمل معظم الدماغ ولا القشرة الدماغية حيث يتم تسجيل أفكارنا وترابطاتنا عن الألم ، ولا تشمل هذه النظرية أيضا « الجهاز الطرفي » الهامش (Limbic) حيث تتوالد الدوافع والمشاعر وحيث يتم تخزين الذاكرة في بداية الأمر ويرسم مناطق الدماغ من حيث ينطلق السيروتونين والمخدرات الطبيعية استجابة للوخز نستطيع استخدام الوخز كوسيلة لتوسيع معرفتنا للألم وكبحه .

● **تقول إذاً أن الجزء الأعلى من الدماغ يمتلك نظاما لكبح بعض الألم ؟**

- نعم وقمنا بالعديد من الدراسات لرسم خريطة الدماغ وحقن مواد مخدرة معينة وبعد ذلك قمنا بوخز الإبر ، وقد اكتشفنا في النهاية أن المناطق الجوفية الثلاث تُسيّر النبضات إلى منطقة المادة الرمادية حول القناة وأن هذه النبضات هامة بشكل خاص في توصيل أثر الوخز القاتل للألم . ومن الأهمية بمكان أن النالكسون الذي يحقن في أي من هذه المواقع الثلاثة بالإضافة إلى منطقة حول القناة يعيقان تأثير الوخز بالإبر بما يزيد عن ٧٠٪ ، ونتوقع أن التأثير سينخفض إلى حد الثلث أو الربع ما لم تكن المناطق الأربع مرتبطة بحلقة

واحدة . وإذا أعقْت أيا منها فإنك تعيق معظم آثار الوخز بالإبر ، ولذلك افترضت وجود ما أسميه الحلقة الهامشية الوسطى للتخدير بالوخز . وهذه الفكرة تفترض تدفقا مستمرا للنبضات العصبية والنواقل العصبية بين الدماغ المتوسط والجهاز الهامشي للتحكم بالألم . وعندما يقوم الوخز بتنشيط الحلقة الهامشية الوسطى فإن الدفقات العصبية تبدأ بالدوران المستمر . إن تركيب الحلقة الهامشية الوسطى يمكن أن يفسر لماذا يمكن لبعض طرق العلاج تخفيف الألم لعدة أيام أو أسابيع لدى بعض المرضى .

وبالرغم من أن مناطق الدماغ الأربع كلها مترابطة فإنها تساهم في استجابتنا للألم بطريقة متميزة . ومن المنطقي أن يكون لدينا ـ بالرغم من وجود منعكس بسيط للألم ـ استجابة عاطفية محكمة للألم . علما بأن المنطقة الهامشية المتوسطة أكثر تشابكا مع هذه الاستجابة العاطفية . أما المنطقة الرمادية حول القناة وعقدة الرخاء فإنهما مكرستان كليا للمنعكسات البدائية ، وهي تعمل من أجل كبت الحبل الشوكي ، و « لا تقل لي أنك مؤلم » هي الرسالة التي تردها إلى الأسفل . وعندما تمر نبضات الألم عبر جذع الدماغ تبدأ بتسجيل الوجه العاطفي للألم ، وأعتقد أن الجهاز الهامشي المتوسط يلعب دورا مزدوجا في التحكم بالألم لأنه يحدث الإستجابة العاطفية للمحرض المؤلم ثم ينشط المادة الرمادية حول القناة التي يقوم بدورها بكبح إدراك الألم على المستوى الشوكي . وينشط الألم كلا العملين . فأنت تدفع مع الأول ـ الألم ـ وتحصل من الثاني على ـ الشفاء ـ ويبدو أن الوخز بالإبر ينشط الثاني بشكل انتقائي أي دور كبح الألم ويقضي على التجربة التعيسة .

● **مع هذه المقدرة لتعديل الإنطلاق الكيميائي العصبي في الجهاز الهامشي المتوسط . هل يمكن استخدام الوخز بالإبر بدلا من العقاقير المغيرة للمزاج ؟**

ـ لقد أثبتت فعاليتها العظمى في معالجة الاكتئاب إلى حد ما ، وهي أقل نجاحا في معالجة انفصام الشخصية . ويقوم المستشفى الثالث المتفرع من جامعة بكين الطبية بدراسة مقارنة للعقاقير الثلاثية الدوائر المضادة للإكتئاب وعلاج الوخز بالإبر التي يحصل المرضى خلالها على جلسة وخز يومية لمدة أربعة أسابيع . وقد وجد أن الوخز والعقاقير فعالة بنفس الدرجة ، ولكن للعقاقير عدة أعراض جانبية مزعجة بينما لا يوجد للوخز أي أعراض . ويبدو أن نوعي العلاج يعملان بشكل مشابه أي من خلال زيادة السيروتونين في الجهاز الهامشي المتوسط .

● **هل يمثل الوخز الكهربائي للبشر نوعا من الشكل الأقل حدة من العلاج بالصدمة الكهربائية ؟**

ـ إن العديد من وسائل العلاج بالكهرباء تنشط بكل تأكيد جهاز تعديل الألم وبعض هذه الوسائل مثل تجارب صدمة القدم على الفئران شديدة القوة ولا يمكن تطبيقها على الناس . ويقوم فريق فرنسي الآن بتجارب مع ما يسمونه (Diffuse Noxious Inhibitory Control) التحكم المثبط الهدام المنتشر .

إن التحريض الكهربائي من هذا النوع ينتج بالفعل نبضات ألم تنتقل إلى الأعلى ضمن الحبل الشوكي ، ولذا فإن الحساسية للألم في النهاية تنخفض بشكل تدريجي ، ومثل تجربة صدمة القدم فإنه غير مناسب عمليا بالنسبة للبشر . ومن ناحية أخرى لدينا علاج خفيف مثل تحريض الأعصاب الكهربائي عبر الجلد التي تستخدم التحريض العالي التردد ولكن المنخفض الحدة لكبح إنتقال الألم ، وفي أسلوب المعالجة هذه يوضع مسبران جنبا إلى جنب على الجلد حيث ينتقل التيار منهما عبر الأعصاب السطحية . وبالرغم من أن هذه المعالجة مقبولة بسهولة إلا أن ثلث الأشخاص الذين يتلقونها لا يستجيبون لها ، ولذلك ومن أجل تحريض المستقبلات العميقة تحتاج إلى جهاز يمكن أن يمرر التيار إلى العضلات والأوتار إما عن طريق إبر الوخز المغروزة في النقطة الهدفية ـ أي الوخز الكهربائي ـ أو عبر مسبرين جلديين متوضعين على الجانبين المتناظرين لنقطة الهدف . ونسمي ذلك الجهاز (Acutens) وهو يستخدم نبضات كهربائية ألطف ولكنها أكثر تعقيداً من أشكال من التمريض الكهربائي الأخرى . وإذا لم تحقق الشفاء باستعمال ذلك الجهاز مباشرة ـ تستطيع أن تحاول ترددات مختلفة أن تبدل التردد لإطلاق مجموعات مختلفة من السيروتونين والانكفالين والدينورفين .

● **ماذا عن مقدرة الوخز بالإبر على تثبيت ضغط الدم خلال الجراحة ؟**

ـ هناك ميزة رئيسة للتخدير بالوخز بالإبر للعمليات الجراحية العاجلة ، فقد وجد بالتجارب على الحيوانات أنه عندما تكون القطط والكلاب على حافة الصدمة الناتجة عن النزف الهائل ، يعود ضغط الدم طبيعيا بعد الوخز ، كما يزداد زمن البقاء على قيد الحياة بشكل ملحوظ . وإلى جانب استقرار ضغط الدم ومنع انخفاضه لدى الأشخاص المصابين بالصدمة فإن الوخز يوزع الدم الباقي بعيدا عن الجلد إلى الأعضاء الحساسة كالقلب والرئتين . إننا ندرك أن الوخز يؤثر على الجهاز العصبي المستقل (Autonomic) إذ أنه يقلص الأوعية

الدموية هنا أو يوسعها هناك . وهناك اتجاه في الصين لاستخدام الوخز مع التخدير بالعقاقير .

● **كيف تقارن ممارسة العلم في آسيا مع ممارسته في الغرب ؟**

- إن العلماء في الولايات المتحدة فعالين للغاية ، وعندما يتحدثون فإن كلامهم يكون سريعا ودقيقا ، يجيبك بجمل بالغة الدقة وهذا كل شيء ، ثم يقول لك شكرا وإلى اللقاء .

إن العلماء الصينيين مؤدبون أكثر مما ينبغي ويفضلون تشجيعك في نقاطك القوية ويخجلون من إبداء أي تعليق وانتقاد حتى عندما تطلب ذلك ، وفي الولايات المتحدة يساعدني أصدقائي بكرم بالغ بتنبيهي إلى نقاط ضعفي ، ففي الولايات المتحدة يخبرك الناس بما يعتقدون أنه صحيح بسرعة وأنا أحب ذلك ، وبالطبع فإن الناس في الولايات المتحدة ذوو كفاءة عالية نظرا لتوفر الأجهزة المتطورة لديهم ، إذ من السهل القيام بإتصال هاتفي لطلب المواد الكيميائية ، فالواحد يتصل تليفونيا اليوم وتصل المواد في اليوم التالي .

في الصين ننتظر أسابيع أو شهوراً عديدة ، ولهذا يستطيع الأمريكان أن يحصلوا على يومين كعطلة أسبوعية . أما نحن فنعمل غالبا أيام الاحاد والعطل . وعندما يقف العالم في مؤتمر ويتحدث عن الاكتشافات فإن الأفراد لا يعذرون معلوماته المحدودة مع أنه انتظر شهورا من أجل الحصول على المواد ، ونشعر في مختبرنا بالسعادة إذا تمكنا من ملاحقة موكب التطور العلمي .

● **ولكن ماذا عن الفروق في النزعات والتوجهات ؟**

- إن العلماء الغربيين أكثر انفتاحا وأكثر نزوعا إلى التنظير . وأعترف بأنني لست واسع أفق التفكير كما ينبغي . ففي عام ١٩٧٢ وبعد اختبارات الأرانب عرفت أنه يجب أن يكون هناك مادة ما تنتجها الأرانب المعالجة داخليا . ولولا ذلك لما أمكن نقل أثر الوخز بشكل كيميائي إلى الأرنب غير المعالج ، ولكنني لم أجرؤ على الإفتراض أن ذلك يحدث بسبب المورفين الداخلي .

وَلكنا نعرف في الصين منذ عام ١٩٦٣ أن المورفين المحقون في المادة الرمادية حول القناة (PAG) أحدث أثرا قاتلا للألم ، وهو إكتشاف قام به شانج زانج من كلية شنغهاي الطبية وطالب الدراسات العليا كانج زو .

وتفترض فكرة شانج أنه يجب أن توجد مركبات خاصة لتقبلها هناك ، ولكن وجود مستقبلات المورفين لا يثبت بالفعل وجود المخدرات الطبيعية الدماغية إذ

تبقى هنالك عدة خطوات لإثبات ذلك ، ولكنني لم أقم بالقفزة النظرية من المستقبلات إلى المخدرات الطبيعية . وعندما أحكي هذه القصة لطلاب الدراسات العليا أقول لهم دائما إننا يجب أن نكون منفتحين لوضع النظريات .

● **هل أثبتت دراساتك للوخز أي وجهة نظر فلسفية عالمية ؟**

- إن الفلسفة الصينية القديمة أي ـ وجود توازن دائما ـ قد ساعدتني إلى حد كبير إذ طالما كان لديك مخدرات فربما يوجد لديك مضادات لها . إن المصدر الرئيس لعصبونات السيروتونين هو نوى الرخاء (Raphe Nuclei) ، وهو أبعد بعدة ميليمترات في الجذع الدماغي السفلي عن الموقع السماوي اللون (Locus Ceruleus) المصدر الرئيس للنورادرينالين (Noradrenaline) [أو Norepinephrine ـ وهو ناقل عصبي يسبب التيقظ والقلق والخوف] ويعارض السيروتونين والنورادرينالين كل منهما الآخر ، وإذا حرضت أحدهما فإنك تكبح الآخر ، وهذا المنع المعاكس هو بمثابة أرجوحة (See Saw) كيميائية عصبية فعندما يرتفع أحدهما ينخفض الآخر . وربما يثبت أن الوخز بالإبر هو طريقة جيدة لموازنة العديد من نبضاتنا العصبية المتضادة طبيعيا .

ويجب ألا نفاجأ من التأثير الثنائي الإتجاه للوخز للإبر على الأنظمة الفيزيولوجية للجسم ـ الزيادة في ضغط الدم في حالات الصدمة مثلا والإنخفاض في ضغط الدم في حالات فرط ضغط الدم الشرياني (Hypertension) . إن الرمز الغامض للتأويه (Taoism) ونظرية ين ديانج (رسم هان الدائرة الشهيرة المضيئة والمظلمة) قائمة على مبدأ توازن دقيق بين القوى المتضادة ، ويمكن أن تعتبر إبرة الوخز أداة هائلة القوة لإعادة الميزان المضطرب إلى الحالة الطبيعية .

● **إن زوجتك وابنتك وابنك كلهم علماء أبحاث ؟**

- زوجتي أستاذ مشارك في الصيدلة (علم الأدوية) وتدرس الآن الأعشاب الصينية ، وأعمل أنا بالوخز بالإبر ونناقش هذه الأشياء طوال الوقت في المنزل ولهذا أصبح أبناؤنا مهتمين بالأبحاث . وتعكف زوجتي الآن على دراسة مادة كيميائية يفرزها حيوان مشابه للأيل من غدة تقع فوق عظم العانة ، وتنتج هذه المادة رائحة خاصة ولا أستطيع أن أتذكر اسمها بالإنكليزية .

● **تعني سنور الزّباد ؟ (Civet) ؟**

- نعم . والرائحة هي المسك . لقد قامت زوجتي وزملاؤها بعزل وتنقية خلاصة

المسك واكتشفت أنه عقار قوي مضاد للإلتهاب . أقوى بثلاثين مرة من الهيدروكورتيزون حسب عدة اختبارات أجريت على الحيوانات .

● **بعد عشرين عاما من الأبحاث . ما هي أفكارك عن الوخز بالإبر ؟**

أريد أن يعرف الناس أن الوخز بالإبر لإزالة الألم ليس شيئا غامضا ، وسوف يكون من الصعب على معظم البشر الوصول إلى المعنى الدقيق للخطوط ين ويانج أو « العناصر الخمسة » .

إن ما قمت بدراسته هو ببساطة التنبه ورد فعله . أنت تقوم بإثارة نقطة الوخز بالإبرة اليدوية العالية أو المنخفضة التردد أو بالتنشيط الكهربائي ، ويكون رد الفعل انطلاق مواد متنوعة في الجهاز العصبي المركزي لها أثر قاتل للألم .

تستطيع أن تقيسها وتحركها ، ومن حيث المبدأ فإنني من أؤمن بوجهة النظر الصينية بأن التوازن والتضاد مفيدان وحتى حيويان بالنسبة للعالم ، ولكن الإيمان بالمجهول ربما يكون شيئا آخر .

وحاليا ولأن مشاكل الجهاز العصبي المستقل شائعة فإن لدي مجموعة صغيرة في مختبري تقوم بدراسات عن كيفية تنظيم الوخز لأشياء كضغط الدم ، لأن البشر والحيوانات يحصلون على المساعدة بشكل آلي على حاجتهم للمحاربة أو الهروب عن طريق الجزء الودي من الجهاز العصبي المستقل ، ولكنه إذا كان فائق النشاط فإنك لا تستطيع أن تعيش حياة مريحة . وأعتقد أن الوخز يمكن أن يعيد التوازن الضروري بين الفرع الودي واللاودي للجهاز العصبي المستقل . وبعد ضغط الدم وجريانه فإن اهتمامي كثير بالهضم وعلاقته بالاستقلاب «الأيض» وآمل أن يكون مشروعي التالي أن أرسم خطة تنظيم بالوخز بالإبر لمشاكل الجهاز العصبي المستقل ، سواء أكانت الأرق وسوء الهضم أم صداع الشقيقة ، وذلك باستعمال ترددات كذا وكذا على إبر موضوعة في نقاط كذا وكذا .

إنني سعيد لأن العلم والتقنية قد ساعدا على الكشف عن طبيعة عمل الوخز بالإبر على مدى آلاف السنوات . وفي غضون ذلك فإن دراسة علم الوخز بالإبر قد أصبح نموذجا جيدا لبحوث علم الأعصاب في مجال تخفيف الآلام . وآمل أن تستمر هذه الحلقة المفيدة واللطيفة في مقبل الأيام .

ملف العدد

الطبع والمرض

« اعتقد أن العقل هو المكان الذي تبدأ فيه أمراض القلب عند الكثير من الناس . هذا ما يقوله اختصاصي القلب دين اورنيش Ornish Dean من جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو . وهو يحاول منذ ما يزيد على أربع سنوات تصريف التجلطات في شرايين مرضى القلب بأن يجعلهم يغيرون طرق حياتهم على نحو جذري ، ويتطلب هذا التغيير إعادة تشكيل سلوكهم وعلاقاتهم فضلا عن ممارسة التمرينات الرياضية وإتباع العادات الصحية .



غير أنه إذا كان للانسان ان يتجنب مشكلات القلب ، فعليه أن يغير أيضا من عقله ، وهذا هو أصعب تغيير ، فالاتجاهات الارتيابية والانفعالات العدائية يمكن أن تسبب استجابات بيولوجية تؤدي الى أمراض الشريان التاجي - كما يقول ردفورد ويليامز - أحد كتاب هذا الملف - وهو طبيب باطني ناجح ، فضلا عن أنه نجم لامع في أبحاث سلوك النمط - أ - أو من لديهم استعداد للاصابة بـ « التاجي » .

وفي هذا الملف نجد أربعة أبحاث تدور حول العلاقة بين طبع الانسان وما يعتريه من أمراض وبخاصة ما يتصل منها بأمراض القلب .

● هل ذوو الطبع أ عرضة للنوبات القلبية ؟

بقلم : كارى كوبر
ترجمة : د. محمد على عارف

بدأت واحدة من أهم طرق البحث في مسألة الشخصيات الميالة إلى التعرض لضغوط الحياة ، في بداية الستينات ، عندما وضع اثنان من الاختصاصيين في أمراض القلب ـ هما ماير فريدمان ، وراي روزنمان - تخطيطا لشخصية المرء المهيأ للإصابة بأمراض الشرايين التاجية للقلب . (روزنمان وفريدمان وشتراوس ١٩٦٤) . فقد اتضح من هذه الدراسة أن مرضى الشريان التاجي يتصرفون بأسلوب متشابه في كثير من نواحيه : فقد كانوا شديدي التنافس ، مرتفعي الإنجاز ، عدوانيين ، متسرعين ، نافدي الصبر لا يقر لهم قرار . كما كانوا يتميزون بأسلوب انفجاري في الحديث وتوتر عضلات الوجه ، والإحساس بأن الوقت يسرقهم وأن مسؤوليتهم ثقيلة . وقد وصف هؤلاء الاشخاص بأنهم أصحاب النمط ـ ا ـ من الشخصية ، وذلك في مقابل النمط ـ ب ـ الأكثر استرخاءً والذين ينخفض احتمال تعرضهم لمخاطر الإصابة بأمراض الشرايين التاجية . وقد وصف جنكنز (١٩٧١) أصحاب النمط ـ ا ـ فقال : « يتميز أصحاب هذا النمط السلوكي بالذات بأنهم غالبا ما يكونون ملتزمين ومنشغلين بعمق بأعمالهم لدرجة أن الجوانب الأخرى من حياتهم تكون مهملة نسبيا» .

وقد أيدت دراسة « المجموعة التعاونية الغربية » (Western Collaborative Group Study) تأييدا كبيرا نتائج دراسة روزنمان وفريدمان ؛ في وجود علاقة بين سلوك النمط ـ ا ـ وأمراض الشريان التاجي ، فقد أجريت في منتصف الستينات على ثلاثة آلاف وأربعمائة (٣٤٠٠) أمريكي من الذكور الخالين من أمراض الشرايين التاجية عند بداية الدراسة . وتم تقويمهم بواسطة أطباء نفسانيين عن طريق مقابلات متعمقة لمعرفة النمط الذي إليه ينتمون : أهو (ا) أم (ب) ؟ ولم يتوافر لهؤلاء الأطباء النفسانيين أي معلومات عن الحالة البيولوجية لهؤلاء المرضى .

العنوان الأصلي للمقال :

Are Type As Prone to Heart Attacks? by: Cary Cooper, "The Psychologist", January 1989.

وبعد مضي عامين ونصف العام أجرى فحص طبي لهؤلاء المرضى قام به أطباء أمراض باطنية مستقلون لم يكونوا على علم بالتصنيفات السلوكية السابقة . فوجد أن إصابة الرجال بمرض شريان القلب التاجي من الطبع (أ) الذين تتراوح أعمارهم بين ٣٩ و٤٩ سنة تبلغ ستة أمثال ونصف من مقدار الاصابة بين أصحاب الطبع (ب) . أما أصحاب الطبع (أ) بين سن ٥٠ و٥٩ سنة فبلغت الاصابة بينهم ١,٩ مثلا من الإصابة بين نظرائهم من أصحاب الطبع (ب) . كما ظهر لدى أصحاب الطبع (أ) عدد من الأعراض أو عوامل مخاطر التعرض لأمراض القلب مثل ارتفاع ضغط الدم ومستوى الكولستيرول .

وبعد مرور أربع سنوات ونصف السنة على الدراسة وجدت نفس العلاقة بين الأنماط السلوكية ومرض شريان القلب التاجي ، مع ازدياد معدلات الإصابة بمختلف أمراض القلب لدى أصحاب الطبع (ا) .

وعلى مر السنين فحص باحثون آخرون الصلة بين سلوك النمط ـ ا ـ والمؤشرات الدالة على تعرض أصحابه للشدائد . فقد تناقضت على سبيل المثال نتائج دراسة تمت في جامعة ميتشيجان (هوارد ، كننجهام وردينتزر ١٩٧٦) مع النتائج السابقة ، وقالت بأنه لا توجد علاقة ارتباطية دالة بين سلوك النمط ـ ا ـ ومختلف مقاييس الشدة مثل الاستياء من العمل ، واضطرابات النوم ، والقلق ، والاكتئاب وسرعة الاستثارة والإرهاق الجسدي . وبدلا من ذلك وجد الباحثون أن سلوك النمط ـ ا ـ يعمل كمتغير وسيط (Intervening Variable) ، فعندما اقترن سلوك النمط ـ أ ـ بضغوط العمل والأسرة أمكن التنبؤ بحدوث الأمراض الناشئة عن الشدة . وبينت دراسات أخرى أن سلوك النمط ـ ا ـ قد يظل كامنا حتى يواجه الفرد موقفا مشحونا بالتحدي والضغوط ، وفي ذلك الموقف فإن الامتزاج بين سلوك النمط ـ أ ـ والضغط الشديد قد يؤدي الى انفجار أزمة قلبية .

وبالاضافة إلى ذلك ازداد توجه البحوث إلى تحليل نموذج سلوك النمط ـ ا ـ إلى مكوناته السيكومترية (أي التي يمكن قياسها بالاختبارات النفسية (المترجم) (دمبروسكي وكوستا ١٩٨٧) . فقد شعر الباحثون منذ مدة طويلة أن سلوك النمط ـ ا ـ له على الأقل ثلاثة مكونات متمايزة : الإنجاز أو التحصيل ، والعدوان ، والوعي بمرور الوقت ، إن لم يكن هناك أكثر من ذلك (مثل كف التعبير عن المشاعر) . ويجرى البحث حاليا (كاسل وكوبر ١٩٨٧) للتمييز تجريبيا بين مختلف جوانب ذلك النمط من السلوك وتقرير الصدق التنبؤي لكل جانب في مدى مساهمته في إحداث أمراض القلب وغيرها من الأمراض ذات الصلة بالشدائد .

فرصة أفضل لأصحاب النمط ـ ١ ـ في النجاة من أمراض الشريان التاجي :

ظهرت في مجلة «نيو انجلاند» الطبية دراسة تتبعية حديثة (راجلاند وبراند ١٩٨٨) للدراسة التي سبق أن أجرتها المجموعة التعاونية الغربية . وقد أشرنا إليها فيما سلف . وفي هذه الدراسة وجد «أن نسبة من ماتوا من تلك العينة خلال الأربع والعشرين ساعة التالية على إصابتهم بشريان القلب التاجي من كلا النمطين ا، ب متساوية تقريبا » . ولكن من بين ٢٣١ مريضا ممن تعرضوا لأزمة تاجية لمدة ٢٤ ساعة على الأقل ونجوا منها « كانت نسبة من ماتوا من أصحاب الطبع أ أقل بكثير ممن ماتوا من أصحاب الطبع ب» . ولقد استمر تتبع عينة دراسة المجموعة التعاونية الغربية ٢٢ عاما بدءا من حدوث الأزمة التاجية .

●●●

ونظرا للدلالة الواسعة المدى لهذه المكتشفات ، كان لابد من إلقاء الضوء على عدة موضوعات فيها حتى يمكن تقديرها حق قدرها .

أولا ؛ تم تقويم سلوك النمط ـ أ ـ في الدراسة الأولى (التي استمرت ٨,٥ سنة) وكذلك في الدراسة التتبعية الثانية (٢٢ سنة) بنفس طريقة المقابلة المقننة .. أي أنه لم يتم الحصول على مقياس جديد لسلوك النمط ـ أ ـ من المرضى بعد إصابتهم بالأزمة . ومن ثم فقد افترض أن كافة المرضى قد احتفظوا بنمط سلوكهم الأصلي (النمط ـ أ) حتى بعد إصابتهم بالتاجي .

ولاشك أن ذلك الافتراض القائل بأن سلوك النمط ـ أ ـ غير قابل للتعديل أو التغيير بمثل هذه الأحداث يتنافى مع الجهود الحديثة المبذولة لتغيير سلوك النمط ـ أ والتي ثبت نجاحها .

ثانيا ؛ وهو الأمر الأهم ، أن الدراسة قومت المرضى من كلا النمطين (أ) و(ب) . وهناك احتمال أن مرضى الشريان التاجي من النمط ـ ب ـ قد ورثوا استعدادا للإصابة به ، وهو استعداد لا يرتبط بأي طريقة من طرق الحياة القابلة للتعديل . وهم بهذا الشكل أقرب إلى أن تتكرر إصابتهم بمرض شريان القلب التاجي من المرضى أصحاب النمط ـ أ . الذين قد تكون طريقتهم في الحياة وتعرضهم للمخاطر قابلة للتغير . وبالتالي فإن اصحاب النمط ب في هذه الحالة سيكونون أكثر تعرضا للمخاطر من اصحاب النمط ـ أ ولن يساعد في حل لغز المكتشفات الراهنة إلا دراسة تتبعية منظمة تراقب باستمرار سلوك النمط ـ أ ـ والعوامل التكوينية أو الجبلية Constitutional) (مثل تاريخ الأسرة) المرتبطة به .

إلا أن الدليل قائم لا يزال ، وقد تكررت البرهنة عليه ، أن لسلوك النمط ـ أ ضلعاً كبيراً في الاصابة بأول أزمة قلبية . ولكن هذه الدراسة الحديثة تدخل بعض الطمأنينة إلى روع أصحاب النمط ـ أ ـ في الوقت الحالي على الأقل ـ فإنهم إذا تغلبوا على أول أزمة تاجية ، فستزداد أمامهم فرصة تجنب الأزمة الثانية .

المراجع

Dembroksi, T. M. & Costa, P.T. (1987). Coronary-prone behaviour: Components of the Type A patterns and hostility. *Journal of Personality*, 55, 211-235.

Howard, J. H. Cunningham, D.A. & Rednitzer, P.A. (1976), Health Patterns association with Type A behaviour, a managerial population. *Journal of Human Stress*, 2.

Jenkins, D. (1971). Psychologic and social precursors of coronary disease. *New England Journal of Medicine*, 284 (6), 307-317.

Kasi, S. V. & Cooper, C. L. (1987). *Stress and Health: Issues in Research Methodology*. London and New York: John Wiley & Sons.

Rosenman, R. H., Friedman, M. & Straus, R. (1964). A predictive study of CHD. *Journal of American Medical Association*, 189, 15-22.

Rosenman, R. H., Friedman, M. & Straus, R. (1966). CHD om the Western Collaborative Group Study. *Journal of American Medical Association*, 195. 86-92.



● الانبساطية والعصابية والوسواسية وسلوك النمط أ

بقلم : جون ماى
بول كلاين
ترجمة : الدكتورة ترنديل الجندي

طبق استبيان ـ يتكون من مجموعة اسئلة مقتطفة من مقياس جنكنز للنشاط ـ على ١٣٥ رجلا عسكريا تتراوح اعمارهم بين ١٨ ـ ٢٥ ، بالاضافة الى اختبار آيزنك للشخصية ومقياس الوسواسية ، وبتحليل الاجابات بواسطة التحليل العاملي تَبيّن وجود ـ تركيبة ذات أربعة عوامل ـ نفاد الصبر والمنافسة الشديدة والسرعة ، وعدم كبت الانفعال . وقد تبين ان العصابية ترتبط ايجابيا مع نفاد الصبر والسرعة ، وسلبيا مع المنافسة الشديدة . كما ارتبطت كلٌ من المنافسة الشديدة وعدم كبت الانفعال ايجابيا مع الوسواسية . وكانت الوسواسية هي المقياس الوحيد للشخصية الذى يرتبط بصورة ذات دلالة مع الدرجة الكلية للنمط أ . ويناقش المقال طبيعة العلاقة بينْ سلوك النمط ـ أ وبين مقاييس آيزنك للشخصية .

لقد اظهرت الدراسات المتكررة أن سلوك النمط أ ـ المتمثل في الأشخاص المسيطرين ذوي الدوافع لتحقيق الانجازات ـ يرتبط بأمراض الشرايين التاجية للقلب . (فرنش وكابلان ‘French & Caplan’ ، غلاس ‘Glass 1699’) ، وتوضيح تلك الروابط يكفي لاظهار أن هذا التكوين الفردي فيه بعض الصحة ، وان الدراسات التجريبية على حاجة النمط أ للتوجية وتحديد الانتباه قد وفرت لها بعض الاسس النفسية . (غلاس ‘Glass 1977’ ، ماسوز وبرونسون ‘Mathews & Brunson 1979’) . ومع ذلك فالاستبيان المعياري المشتق من مقاييس النمط ـ أ فيه الكثير من نقاط الضعف ، وهناك من يدعو الى أن التكوين الفردي يمكن التعبير عنه بصورة أفضل باستخدام عوامل اخرى للشخصية اكثر استقرارا .

لقد ثار الجدل وبشكل خاص على أن سلوك النمط أ ، وجه للعصابية والانبساطية ، وقد استخدم آيزنك وفولكر ‘Eysenck&Fulker 1983’ نموذجهم

العنوان الاصلي للمقال :

Extraversion, neuroticism, obsessionality and the Type A Behaviour Pattern
John May and APaul Kline
British Journal of Medical Psychology (1987), 60, 253-259.

المشتق من مقياس النمط أ واشتقوا أربعة عوامل تندرج تحت سلوك النمط أ وهي : التوتر ـ الطموح ـ النشاط ـ عدم كبت الانفعال . اما تسمية العوامل الثلاثة الأولى فإنها تتوافق بدرجة معقولة مع العوامل الثلاثة التي وجدها زيزانسكى وجنكنز 'Zyzanski&Jenkins 1970' في مقياس جنكنز للنشاط ، والتي كانت على التوالي : السرعة وعدم الصبر ـ الانغماس في العمل ـ المنافسة الشديدة . في دراسة آيزنك وفولكر ، تبين أن التوتر يرتبط بالعصابية والطموح يرتبط بالانبساطية . وفى دراسات أخرى لاحقة تبين مرارا أن العصابية ترتبط بالنمط السلوكي للشخصية أ (ومثال لتلك الدراسات ما أجراه شسنى وآخرون ١٩٨١ ، إرفين وآخرون ١٩٨٢ ، وسميث ١٩٨٤ ، ولانجلو دك وتينانت ١٩٨٦) ، اما الانبساط فإنه لم يكن مرتبطا أو ارتبط بدرجة ضعيفة (مثل دراسة راى وبوزر ١٩٨٠ ، وفورنهام ١٩٨٤) . وفي الحقيقة ، يمكن استنباط تنبؤين متعارضين من نظرية آيزنك (ايزنك ١٩٦٧) حول اتجاه العلاقة بين الانبساطية وسلوك النمط أ . وبالقدر الذى ينظر به الى الاشخاص من النمط أ على انهم يبحثون عن التوتر ، فإن ذلك يتوافق مع جانب البحث عن الاحساس في الشخص الانبساطي الذى تلزمه مؤثرات قوية لانه غير متنبه بصورة مزمنة .

لكن وكما أوضح فورنهام (١٩٨٤) فإن الطبيعة الانفعالية المفرطة للنمط أ مع التوتر عندما يواجهونه ، يجعلهم اكثر تشابها مع الانطوائيين المعرضين للاثارة الشديدة ، وقد أوضح غلاس (١٩٧٧) 'Glass' ان الافراد من النمط أ يظهرون حاجة ماسة للسيطرة على الوسط المحيط بهم ، لذلك فإن المواقف التى تحرمهم من هذه السيطرة تجعلهم أكثر توترا من غيرهم من الناس . وهم يسعون بشدة لهذه السيطرة حتى ولو لم تكن في متناول ايديهم ، وعندما يواجهون بالفشل المتكرر يتوقفون عن العمل تماما (موستان وآخرون ١٩٨٤) . هذه الظاهرة في سلوك النمط أ تشبه السمة المميزة للوسواسى المتمثلة في الانتباه للتفاصيل وحب النظام والمثابرة والالتزام بالقانون (لازارس وآخرون ١٩٦٦) ، الامر الذي يحمل بعض الشبه للعصابية ولكن يتميز عنها في العوامل المؤثرة (كلاين ١٩٨١) . والافراد الوسواسيون ـ بعكس العصابيين ـ يعتبرون خصائص الالتزام بالنظام ذات قيمة ، لذلك فإنهم يكونون مفيدين في الوظائف التى تتطلب عملا دقيقا متقنا .

ومع ذلك ففى مواقف كثيرة ، يكون الالتزام الزائد بالنظام معطلا للانتاج ، وقد يؤدي عجزهم عن المحافظة على مستوياتهم الصارمة ، الى مزيد من التوتر . وحتى الآن لم يتم بحث هذه العلاقة .

جدول ـ ١

البند	معامل لارتباطس	نص اجابة النمط أ (باختصار)
		* العامل ١ : نفاد الصبر
٣	٠,٦١	يشعر انه يستعجل المتحدثين ببطء
١٧	٠,٥١	يسرع بالوصول الى مكان حتى ولو كان في فسحة من الوقت
١٣	٠,٤٨	يثور إذا قاطعه احد في اثناء أداء عمل هام
١	٠,٤٣	يقوم بعملين في وقت واحد لو تمكن من ذلك
٤	٠,٣٩	يلقن الآخرين الكلام لكي يستعجلهم في الحديث
١٨	٠,٣٩	أعمل اشياء خلال فترة انتظارى لشخص يتأخر علي
٢٤	٠,٣٥	يغضب اذا مشى الشخص الذى امامه في الصف ببطء
١٩	٠,٣٣	يقر الآخرون أنى أقوم بمعظم أعمالى باستعجال
٢٧	٠,٣٣	يقر الآخرون انى استثار بسهولة
٢٩	٠,٣٠	يرفض الوقوف في الصف ويتخذ وسائل لتجنب التعطيل
٢٢	٠,٣٠	عادة أقوم بأعمال خطرة للاثارة
		* العامل ٢ : المنافسة الشديدة
١٠	٠,٦٨	انا في هذه الايام منافس لا أعرف الكلل
١١	٠,٦٤	يصنفنى الآخرون منافسا شديدا
٢٠	٠,٥٧	يرى الآخرون أنى لست أقل طاقة من اشدهم
٢١	٠,٥٠	يتفق الآخرون على أنى أتلذذ بالمنافسة وأهوى الفوز
١٥	٠,٣٩	اذا اتفقت على اللقاء في موعد محدد فلا يمكن أن أتأخر
٢٢	٠,٣٩	عادة أقوم بأعمال خطرة للاثارة
٢٧	٠,٣٧	يقر الآخرون انى استثار بسهولة
١٢	٠,٣٦	يصنفنى الآخرون بالغ النشاط ـ يجب أن أهدأ
٢٨	٠,٣٥	كبار القادة ينجحون عن طريق العمل الشاق
٢	٠,٣١	أتولى القيام بالعمل اذا رأيت احد المبتدئين يعمله أبطأمما قد أفعل
		* العامل ٣ : السرعة
٦	٠,٧٧	يخبرني الآخرون أنى آكل بسرعة بالغة
٥	٠,٧٤	عندما آكل فأنا أول من ينتهى من الطعام
١٩	٠,٥٩	يتفق الآخرون على أنى أؤدى كل الافعال بعجلة
١٨	٠,٤٠	اعمل أشياء خلال فترة انتظارى لشخص يتأخر علي
٨	٠,٣٦	أنا في الحقيقة أثور إذا خسر فريقى
١٢	٠,٣٦	يصنفنى الآخرون بالغ النشاط ـ يجب ان ابطىء
٧	٠,٣٣	في الألعاب الجماعية لا أقنع إلا بأن اكون أفضل من الآخرين
		* العامل ٤ : غير مكبوح الجماح
٢٦	٠,٦٤	في هذه الايام طبعى ملتهب ولا يمكن التحكم فيه
٢٧	٠,٥٧	يتفق الآخرون على أنى أثور بسهولة
٩	٠,٥٦	اتلذذ بالمنافسة لأنها مثيرة
٢٥	٠,٥٢	عندما كنت أصغر كان طبعي ملتهبا ولا يمكن التحكم فيه
٢١	٠,٤٧	يقر الآخرون انى اتلذذ بالمنافسة وأهوى الفوز
١١	٠,٣٧	يصنفنى الآخرون منافسا شديدا
٨	٠,٣٦	انا في الحقيقة اثور إذا خسر فريقى
١٢	٠,٣٤	يصنفنى الآخرون بالغ النشاط ـ يجب أن أهدأ
١٠	٠,٣٣	في هذه الأيام أنا بالتأكيد منافس لا أعرف الكلل
٧	٠,٣٠	في الألعاب الجماعية لا أقنع إلا بأن أكون أفضل من الآخرين
		* لا يوجد ارتباط : اقل من ٠,٣ مع أى عامل
١٤		إذا اغضبتني المقاطعات فأنى اتكلم بصرامه
١٦		في السنوات العشر الماضية لم أتأخر عن المواعيد المحددةللمناسبات
٣٠		يصعب علي الاسترخاء بعد يوم شاق
٣١		عندما أشعر بالتعب في عملى أواصل الجهد

والهدف من هذا البحث هو فحص عوامل بناء سلوك النمط ـ أ وربطها بمقاييس الانبساطية والعصابية والوسواسية . وبهذه الطريقة يمكن تقييم الدعاوى القائلة بأن سلوك النمط ـ أ ما هو الا مجموعة من المتغيرات الراسخة في الشخصية .

واذا تبين أن سلوك النمط ـ أ أكثر تعقيدا مما يفترضه ناقدوه ، فإن تلك العلاقات قد تساعد على فهمه .

الدراسة الحالية :

تم استخراج مقياس النمط أ المستخدم في هذه الدراسة من مقياس جنكنز للنشاط (جنكنز وآخرون ١٩٧٩) . وكما أشار آلونى (آلونى وآخرون ١٩٨٥) ، فإنه توجد مشاكل في تطبيق هذا المقياس ، فبعض الاسئلة يحتاج الى اعادة صياغة قبل تطبيقها في المملكة المتحدة أو بين فئات مهنية منتقاة . فمثلا بعض الاسئلة تستفسر عن نمط العمل وظروفه ، وقد تكون هذه صحيحة اذا ما استخدمت في عينة غير محدوده ، بينما اذا استخدمت لمجموعة من الناس يقومون بالعمل نفسه فقد لا يكون هناك اختلاف في الاجابة وان وجد فهو ضئيل . وفي الدراسة الحالية ـ كما هو موضح فيما بعد ـ تكونت العينة من أفراد عسكريين ، لذلك فان كثيرا من الاسئلة ربما لا تكون ذات دلالة ، بل قد تربك الشخص الموجهة له وتدفعه إما إلى اهمال الاستبيان أو التعامل معه بصورة غير جدية ، ومن تلك الاسئلة ما يتعلق بأخذ العمل الى المنزل لاستكماله وموقف الشخص من الترقيات والعلاوات في الأجور . لذلك فإن هذه الاسئلة وما شابهها (مثل هل تجد صعوبة في الحصول على وقت لقص شعرك او تصفيفه ؟) قد استبعدت من المقياس .

وبهذا صار الاستبيان مكونا من ٣١ بندا (١٠ منها جاءت من مقياس النمط أ الاصلى ذى الإحدى وعشرين بندا) وهى ملخصة في جدول رقم (١) . (لاحظ أن الجدول يحتوى نموذجا مختصرا وليس على النصوص الاصلية للاسئلة والأجوبة) وحيث ان البنود قد اختصرت في العدد ، فإن الاستبيان لا يحمل بالضرورة تطابقا مباشرا مع العناصر الأربعة لمقياس جنكنز الاصلى للنشاط ، لذلك فإنه من المفترض ان يتم تحليل لهذه الاجابات في الاستبيان المختصر ، وذلك للحصول على عدد من المقاييس تعكس تركيبة الاستبيان . وبالطبع فمن التوقع ان تحمل هذه التركيبة بعض الشبه لمقياس جنكنز الكامل للنشاط الذي يعتبر هذا الاستبيان جزءا منه .

طريقة الدراسة

العينة :

استخدمت في هذه الدراسة عينه مكونة من ١٣٥ رجلا عسكريا كلهم برتبة رقيب ، وتتراوح اعمارهم بين ١٨ ـ ٢٥ ، ويقضون دورات تدريبية شاقة لمدة عشرة أسابيع في قاعدة عسكرية في «بيركون بيكونز» بوسط مقاطعة ويلز . وحيث أن هؤلاء الافراد قد تعرضوا لعمليات اختيار ليصيروا رقباء ، فإنهم قد لا يمثلون مجموع السكان بصفة عامة . ومع ذلك فإن مقارنتهم مع المعدلات الطبيعية للسكان على اختبارات القياس النفسي يجب أن توضح اوجه اختلافهم عن المجموع .

اختبارات القياس النفسي :ـ

قبل بدْء الدورة طُلِب من افراد العينة استكمال الاجابة على ٣١ بندا مشتقة من مقياس جنكنز للنشاط ، وتلا ذلك قياس الوسواس باستخدام مقياس الوسواسية A13 Q' (كلاين 'Kline 1972) ، الذى تبين انه يرتبط بالشخصية الصلبة غير المرنة (كلاين وستورى ١٩٧٨) ، واستبيان آيزنك للشخصية (آيزنك وآيزنك ١٩٧٥) . وقد تم الاختبار على مجموعات من حوالي ٤٠ رجلا في اليوم الأول من الدورة . ومع انه لم يحدد وقت للاجابة إلا أنه تم السماح لهم باجابة الاستبيانات الثلاثة خلال نصف ساعة .

حساب النتيجة :

مع ان المقياس الكامل للنشاط لجنكنز تحسب نتائجه عادة بأوزان مشتقة من التحليل التمييزي ، فإنه من المعروف ـ منذ دراسات ليبرت في الثلاثينات ـ أن استخدام المعدلات المتوازنة في أى تحليل له مزايا ضئيلة على استخدام حساب نتائج الوحدات الخام . وفي الحقيقة فإن زيزانسكى وجنكنز (١٩٧٠) قد ذكرا بكل أسف انهما وجدا أن نظام الموازنة الذى استخدموه له تأثير ضئيل على نتائجهم .

وقد حسبت بنود هذه الدراسة على أساس ان (١) تمثل اقصى اجابة «لنمط أ» على السؤال ، وأن (صفر) تمثل أقل إجابة «لنمط أ» . أما الاجابات المتوسطة فقد أعطيت درجات حسب عدد البدائل (فمثلا للبنود ذات الثلاث اجابات فإن الاجابة الوسطى كانت تستحق ٠,٥ ، وللبنود ذات الخمس اجابات فإن الاجابات الثلاث الوسطى كانت تستحق ٠,٧٥ ، ٠,٥ ، ٠,٢٥ بدءاً من «اقصى نمط أ» إلى «أدنى نمط إ» .

جدول ٢ : معدلات اختبارات القياس النفسي

المقياس	العدد	المتوسط	الانحراف المعياري	المتوسط (المعياري)	الانحراف المعياري (المعياري)
مجموع نتائج «نمط أ» لمقياس الوسواس 'A13'	١٢٩	١٦,٢	٢,٩	–	–
الوسواس باختبار آيزنك للشخصية	١٢٤	١٦,٥	٣,٣	١٦,٩	٣,٦
الانبساطية	١٢٢	١٤,٦	٣,٦	١٣,٧	٤,٨
العصابية	١٢٢	٩,٧	٤,٦	٩,٨	٥,٠
الذهانية	١٢٢	٣,٩	٢,٧	٤,٢	٣,٣

ملحوظة : المعدلات الطبيعية مأخوذة من كلاين (١٩٧٢) ، آيزنك وآيزنك (١٩٧٥) .

النتائج

المتوسطات والانحرافات المعيارية لمتغيرات اختبارات القياس النفسي موضحة في جدول (٢) . ويلاحظ أن نتائج اختبار آيزنك للشخصية ومقياس الوسواس 'A 13' تتطابق بدرجة وثيقة مع نتائج المجموعات الأخرى ، وبذلك فإن الاختيار المسبق للعينة – الذى ناقشناه من قبل – لا يبدو مشكلة كبيرة . وقد فشل خمسة رجال في تكملة مقياس الوسواس 'A 13' وفشل اثنان آخران في تكملة مقياس آيزنك للشخصية .

أما الترابط بين معدلات العوامل ومعدل النمط أ واختبارات القياس النفسي فموضح في جدول ٣

جدول ٣ : الترابط بين معدلات العوامل ومتغيرات القياس النفسي

العامل	الوصف	الانبساطية	العصابية	الذهانية	مقياس الوسواس 'A 13'
١	نفاذ الصبر	٠,٠٧	٠,٢٠	٠,٠٧	٠,١٩ *
٢	المنافسة الشديدة	٠,٣٣ **	٠,٣٧ **	٠,١٤	٠,٠٤
٣	السرعة	٠,١٢	٠,٢٤ **	٠,١٣	٠,١٩ **
٤	عدم الكف الانفعالى	٠,٢٩ **	٠,١٣	٠,١١	٠,٢٥
	اجمال معدل النمط أ	٠,١٤	٠,١٢	٠,٠٢	٠,٣٧ **
		العدد ١٢٢			العدد ١٢٤

$* P < 0{\cdot}05$; $** P < 0{\cdot}01$.

المناقشة :-

إذا أخذنا في الاعتبار عدم وجود اسئلة تتعلق بمهنة الاشخاص فإن حلول الاستبيان ذى الأربعة عوامل المشتق من مقياس جنكنز للنشاط ، تتطابق مع ما وجده زيزانسكى وجينكنز (١٩٧٠) وآيزنك وفولكر (١٩٨٣) . أما عوامل «الانغماس في المهنة» و«الطموح» فهى حتما غير موجودة ، ولكن عوامل «المنافسة الشديدة» «والنشاط» فإنها تبرز في هذه الدراسة على أنها العامل الثانى ، أما عامل «نفاد الصبر بسبب السرعة» أو «التوتر» فقد انقسم الى العوامل : واحد «نفاد الصبر» ، ثلاثة «السرعة» بينما يتعادل العامل الرابع بوضوح مع عامل «عدم الكف» عند آيزنك وفولكر ، مع تأكيده على تفاعلات المزاج والعاطفة ، وإذا ما قارنا حل العوامل الثلاثة بحل العوامل الأربعة ، فإننا نجد أن عامل «السرعة» في الأخير فقد بنوده المبنية على «النشاط» ، وينتج عن البنود الباقية المرتبطة بالعامل الرابع - باستثناء الطموح - نفس التركيب الذى وجده آيزنك وفولكر .

وإذا نظرنا الى الاجابات الخام فإننا نجد أن ١٤٪ فقط من الاشخاص اعطوا اجابات النمط ب للبند رقم ١٤ ، ١,٦٪ للبند رقم ١٦ ، ٤٪ اعطوا إجابات من النمط أ للبند رقم ٣٠ ، أما البند رقم ٣١ فقد اجيب عنه بالتساوى تقريبا في كلا الاتجاهين . أما الارتباط السلبي الوحيد في كل الحلول فقد أظهر نمط ب للسلوك رداً على ما نعتبره عاملا من نمط أ وهو البند ٢٧ (يقر الآخرون أني أستثار بسهولة) وذلك في عامل المنافسة الشديدة . وليس هناك سبب واضح لحدوث تلك العلاقة ، ولكن بما أن هذا البند يصب أيضا في الاتجاه المتوقع (اى ايجابيا) مع «نفاد الصبر» و«عدم الكف الانفعالى» فلا مأخذ عليه على الأرجح . ويتضح الترابط بين مقاييس العوامل والمعدل الكلى وبين اختيار آيزنك للشخصية ومقياس الوسواس 'A 13' . وخلافا لما اظهرته الدراسات السابقة ، لا يوجد ترابط بين مقياس النمط أ والعصابية ، والسبب في ذلك يمكن ملاحظته من ترابطات معدلات العوامل . ومع أن اثنين مع العوامل وهى «نفاد الصبر» «والسرعة» تترابط ايجابيا - كما هو متوقع - فإن «المنافسة الشديدة» تترابط سلبيا بشكل واضح ، وذلك أدى الى إلغاء أية علاقة عندما جمعنا العوامل مع بعضها في المعدل النهائى . ومن المفترض أن «الانغماس في المهنة» «والطموح» اللذين لم يستخدما في هذه الدراسة قد يساهمان في رفع معدل الترابط الايجابي للعصابية وبذلك ترجح الكفة نحو اتجاه النتائج التى جرت العادة على تسجيلها . إن التأثيرات المتناقضة للعصابية تؤكد مبدأ هاما في دراسات القياس النفسى ، ألا وهو الحاجة الى متغيرات من عنصر واحد كما أكد على ذلك كاتل (كاتل وكلاين ١٩٧٧) . وعندما يكون المتغير متعدد العوامل فإن

مكوناته تترابط في اتجاهات مختلفة مع المقاييس . وذلك يجعل الترابطات مع المتغيرات بدون معنى تقريبا . ويعتبر هذا نقدا هاما لمقياس سلوك النمط ـ أ بوضعه الراهن . وهناك ارتباك تحليلى مشابه ينتج عنه غياب الترابط بين الانبساطية والنمط السلوكى أ كما تبين في نتائجنا . فنحن نتوقع طبقا لنظرية آيزنك للشخصية أن «المنافسة الشديدة» و«عدم الكف الانفعالى» يترابطان ايجابيا مع «الانبساطية» ، بينما تترابط كل من «السرعة» و«نفاد الصبر» معها سلبيا ، والمحصلة لذلك كله أن ينتج ترابط خال من اية دلالة بين الانبساطية والمقياس الكلي .

واخيرا يجب ملاحظة العلاقة بين الوسواس وسلوك النمط ـ أ فكما أوضحنا من قبل ، هناك عدة جوانب من طريقة النمط أ في الانتباه والاستجابة للمشاكل تتطابق تماما مع الشخصية الصلبة غير المرنة ، وإذا أضفنا ذلك الى الشخصية المتسلطة (مثل ادورنو ١٩٥٠) والخاصية الشرجية (فرويد ١٩٠٨) ، فإن ذلك كله يوضح أنهم أساسا متشابهون ويتجهون جميعا نحو العامل الوسواسي .

ومما يؤكد ذلك وجود الترابط الايجابي بين مقياس الوسواس والمعدل العام إن رغبة أفراد النمط أ في السيطرة على الوسط المحيط بهم وردّ فعلهم عندما ينكر عليهم أحد مثل هذه السيطرة ، ربما يكونان عنصرين مشتركين مع العامل الوسواسي ، وبذلك يكونان ذوي أهمية نفسية كبيرة . ان هذه النتائج توضح ان النمط السلوكي للشخصية أ تكوين متعدد العوامل ، وأن أوجهه ترتبط بطريقة ذات معنى مع العوامل التقليدية للشخصية من الانبساطية والعصابية ، ولكن ليس بالاسلوب البسيط الذى كان يفترض سابقا . وسلوك النمط ـ أ بوجه عام لا يمكن ان يعزى الى هذه العوامل بشخص خالص ، ولكن حيث ان هذه العوامل في حد ذاتها مفهومة جيدا ، فإنها يمكن ان تساهم في فهم المكونات المنفصلة لسلوك النمط ـ أ . وبالاضافة الى ذلك فهى لا تأخذ في الاعتبار كل التباين الموجود في المعدلات المنفصلة ، لذلك فإنها تظل أسبابا وجيهة لاستخدام المقياس السلوكى للنمط أ ، بالاضافة الى مقاييس الشخصية المعتمدة .

تنويه :

أجري هذا البحث كجزء من اتفاقية ابحاث مع مؤسسة ابحاث شؤون أفراد القوات المسلحة بوزارة الدفاع البريطانية . والباحثون يشكرون افراد هذه الادارة لمساعدتهم في تنظيم جلسات الاختبار .

المراجع

Adorno, T. W., Frenkel-Brunswick, E., Levinson, D. J. & Sanford R. N. (1950). *The Authoritarian Personality*, New York: Harper & Row.

Cattell, R. B. & Kline, P. (1977). *The Scientific analysis of Personality and Motivation,* London: Academic Press.

Chesney, M. A., Black, G. W., Chadwick, J. H. & Rosenman, R. H. (1981). Psychological correlates of the Type A behaviour pattern. *Journal of Behavioural Medicine,* 4, 217-229.

Eysenck, H. J. (1967). *The Biological Basis of Personality,* Boston: Thomas.

Eysenck, H. J. & Fulker, D. (1983). The components of Type A behaviour and its genetic determinants. *Personality and Individual Differences,* 4, 499-505.

Eysenck, H. J. & Eysenck, S. B. G. (1975). *The Manual for the Eysenck Personality Questionnaire,* London: Hodder & Stoughton.

French, J. R. P. & Caplan, R. D. (1969). Psychosocial factors in coronary heart disease. *Industrial Medicine,* 39, 31-45.

Freud, S. (1908). Character and anal eroticism. *S.E.,* vol. IX. London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis, 1966.

Furnham, A. (1984). Extraversion, sensation seeking, stimulus screening and the Type A behaviour pattern. *Personality and Individual Differences,* 5, 133-140.

Glass, D. C. (1977). *Behaviour Patterns, Stress and Coronary Disease,* Hillsdale, NJ: Erlbaum.

Irvine, J., Lyle, R. & Allon, R. (1982). The Type A personality is psychopathology: Personality correlates and an abbreviated scoring system. *Journal of Psychosomatic Research,* 26, 183-189.

Jenkins, C. D., Zyzanski, S. J. & Rosenman, R. H. (1979). *Manual for the Jenkins Activity Survey,* New York: Psychological Corporation.

Kline P. (1972). *The A13Q Manual,* Windsor, Berks: National Foundation for Educational Research.

Kline P. & Cooper, C. (1984). A factorial analysis of the authoritarian character. *British Journal of Psychology,* 75, 171-176.

Kline, P. & Storey, R. (1978). The Dynamic Personality Inventory: What does it measure? *British Journal of Psychology,* 68, 375-383.

Langeluddecke, P. M. & Tennant, C. C. (1986). Psychological correlates of the Type A behaviour pattern in coronary angiography patients. *British Journal of Medical Psychology,* 59, 141-148.

Lazare, A., Klerman, G. L. & Amor, D. J. (1966). Oral, obsessive and hysterical personality patterns: An investigation of psychoanalytic concepts by means of factors analysis. *Archives of General Psychiatry,* 14, 624-630.

Matthews, K. A. & Brunson, B. I. (1979). Allocation of attention and the Type A coronary-prone behaviour pattern. *Journal of Personality and Social Psychology,* 37, 2081-2090.

Musante, L., MacDougall, J. M. & Dembrowski, T. M. (1984). The Type A behaviour pattern and attributions for success and failure. *Personality and Social Psychology Bulletin,* 10, 544-553.

O'Looney, B. A., Harding, C. M. & Eiser, J. R. (1985). Is there a substitute for structured interview assessments O'Looney, B. A., Harding, C. M. & Eiser, J. R. (1985). Is there a substitute for structured interview assessments of Type A behaviour? *British Journal of Medical Psychology,* 58, 343-350.

Ray J. J. & Bozen, R. (1980). Dissecting the A-B personality type. British Journal of Medical Psychology, 53. 181-186.

Smith, T. W. (1984). Type A behaviour, anger and neuroticism. *British Journal of Clinical Psychology,* 23, 147-148.

Zyzanski, S. J. & Jenkins, C. D. (1970). Basic dimensions within the coronary-prone behaviour pattern. *Journal of Chronic Diseases,* 22, 781-795.

● كيف يشفي أصحاب النمط - أ من عللهم « القلب المطمئن »

بقلم : ردفورد ويليامز
ترجمة : د . لطفي محمد فطيم

منذ الخمسينات ، والعلماء يحاولون استكشاف الصلة بين سلوك النمط - أ المندفع ، ذي الأفعال المتحرشة والانفعالات العدائية - وأمراض القلب . فالعداء والاسترابة وسوء الظن تعتبر الآن العناصر الفتاكة في سلوك النمط - أ في نظر الكثيرين من الباحثين ولم يعد الطموح الشديد يعتبر شيئا خطيرا بالمقارنة إليها .

ويعرض ردفورد ويليامز في كتابه الجديد « القلب المطمئن : أخبار عظيمة عن سلوك النمط - أ » إلى عناصر العداوة والارتياب في سلوك النمط - أ .

وردفورد ويليامز طبيب باطني واختصاصي في الطب السلوكي في المركز الطبي بجامعة ديرك ، وهو باحث مرموق في هذا المجال ، وقد استطاع هو وزملاؤه أن يبينوا أن الارتياب والعداوة يمكن أن يسببا بالفعل استجابات جسمية تؤدي إلى الأزمات القلبية ، وفي هذا المقال - المستل من كتابه - يشرح لنا ويليامز بيولوجية العداوة ثم يقدم برنامجا من ١٢ خطوة لمساعدتك على أن تصبح شخصا أكثر صحة واطمئنانا .

العداوة غير الصحية :

في أوائل الثمانينات ، أكمل فريق من الباحثين ينتمي إلى كلية بومان جراي للطب في شمال كارولينا دراسة تعد من المعالم البارزة في مجال إظهار أن الضغوط والشدائد النفسية تؤثر على بيولوجية أمراض القلب فالضغوط المتكررة لمحاولة السيطرة على شخص آخر تستطيع أن تزيد - كما بين الباحثون - من سرعة تكوين

العنوان الأصلي للمقال :

The Trusting Heart, by: Redford Williams, "Psychology Today", January/February 1989.

انسدادات الشرايين ، أو الترسبات (plaques) المؤدية إلى تصلب الشرايين . وظهر ذلك لدى القردة التي كانت تتغذى طعاما عالي الدهون (يشبه الوجبات السريعة التي يتناولها الكثير من الأمريكيين) .

وقد أدّى هذا البحث الهام الذي أجرى على الحيوانات إلى إعطاء دفعة للجهود التي تبذل لتشخيص العمليات البيولوجية الضارة لدى البشر الذين يتعرضون لمستويات عالية من الشدة (Stress) .والنظرية الأكثر شيوعا عن تكوين هذه الانسدادات هي أن العملية تبدأ بإصابة ما في الغشاء المبطن للشريان ، وأن الزيادات الكبيرة والمتكررة في كيماويات الجسم والمتضمنة في الاستجابة للشدائد ـ كما وجد لدى أصحاب النمط ـ أ غالبا ما تساهم في تكوين تلك الإصابة .

وتستجيب أجسامنا للشدائد الجسمانية والانفعالية عبر الفعل المزدوج لفرعي الجهاز العصبي المستقل (autonomic nervous system) الفرع السمبتاوي (sympathetic) التعاطفي أو « فرع الطوارىء » وهو الذي يساعد أجسامنا على الاستجابة للأحداث الطارئة بواسطة اطلاق هورمون النور ايبفرين والأيبفيرين (المعروف لدى الناس باسم الأدرينالين) . ويؤدي هذا الهورمون إلى اتخاذ الجسم لعدة إجراءات تمكنه من الاستجابة بسرعة وبقوة عضلية شديدة ، فيعمل القلب بشدة أكبر ويعاد توزيع الدم بحيث يصل إلى أجزاء الجسم التي تحتاجه . أما الفرع الآخر الباراسمبتاوي parasym pathetic أو « المهدىء » فهو الذي يعمل على صيانة أجهزة الجسم الحيوية مثل الهضم ويهدىء استجابات الجسم لحالات الطوارىء .

أما الهورمون الرئيس الآخر الخاص بالشدائد فهو الكورتيزول (cortisol) ، ويعمل بعدة طرق متنوعة ليوسع من فعالية فرع الطوارىء ويمد في وقتها ، فيستثير تكوين الايبفرين والنورايبفرين ويمنع تحللهما ، ويبدو أن فرع الطوارىء واستجابات الكورتيزول يستدعيان للعمل في حالة الاحتياج إلى القتال أو الهرب ، كما هو الحال مثلا عند مواجهة حيوان مفترس .

ويبدو أن أصحاب النمط ـ أ يستجيبون للأمور كما لو كانوا في حالة هرب مستمرة من حيوان مفترس ، فبالإضافة إلى الزيادة الكبيرة في مستوى الأيبفرين والنورايبفرين في الدم وفي ضغط الدم وضربات القلب ، فإن أصحاب النمط ـ أ تظهر لديهم تغيرات أكبر في رسم القلب الكهربائي (ECG) تتفق مع الاستجابات

الواضحة للشدائد من فرع الطوارىء ، ويعتقد كثير من الباحثين - وأنا منهم - أن استجابات الفرع المهدىء لدى أصحاب النمط - أ أضعف منها لدى الآخرين .

وفي أول دراسة قمت بها عن الميكانيزمات البيولوجية للسلوك النزاع إلى أمراض الشريان التاجي جعلت شبانا من كلية الطب بجامعة ديوك ممن ينتمون إلى النمطين - أ ، ب (النمط - ب هو عكس النمط - أ) يقومون بعمليات حسابية عقلية ، ورصدت جائزة للطالب الذي يتفوق على زملائه ، كما جعلتهم يقومون بعمل يتطلب يقظة شديدة بأن يراقبوا شاشة تلفزيون ويضغطوا على زر عندما يظهر ترتيب معين للحروف على الشاشة ، وخلال فترات الراحة قبل كل مهمة وأثنائها كنا نقيس ضغط الدم وضربات القلب وتدفق الدم الى العضلات .

وأكدت النتائج أن أصحاب النمط - أ تظهر لديهم استجابات فرع الطوارىء بشكل أكبر عندما يستثار سلوك القتال أو الهرب ، كما يفرز الكورتيزول بتجاوب أكبر وظهر خلال المهمة التي تتطلب يقظة أن أصحاب النمط - أ الذين حصلوا على درجات عالية عندما طبقنا عليهم مقياس كوك ميدلي للعدوان (وهو اختبار نفسي يحصل الفرد فيه على درجات للعدوان والارتياب وسوء الظن والغضب) زاد افراز التستوستيرون لديهم (Testosterone) (هورمون الذكورة) ويقوم هذا الهورمون بدور في أمراض القلب إذ اتضح من تجارب الحيوانات أن زيادته تزيد من تصلب الشرايين لديها .

وتقوم هذه الاستجابات الكثيرة لدى أصحاب النمط - أ بدور مقطوع به في زيادة التعرض لمخاطر أمراض الشرايين التاجية ، وبخاصة تلك الأمراض التي تظهر قبل سن الخمسين : فالنورايبفرين والأيبفرين والكورتيزول لها تأثيرها على الجهاز القلبي الوعائي مما يمكن أن يزيد بدرجة كبيرة من مخاطر التعرض لأزمات الشريان التاجي الحادة ، وكما سبق أن رأينا فإن تلك الهورمونات قد تساهم مساهمة كبيرة في النشوء المبكر لتصلب الشرايين التاجية .

وقد خرجت فكرة أن الفرع المهدىء له دور عند أصحاب النمط - أ يختلف عن دوره لدى أصحاب النمط - ب ، من البحوث التي اقترحها الطبيب الياباني الشاب هيروكازو مونو الذي كان يعمل معي في بداية الثمانينات ؛ فقد أعطينا منبِّها قويا لرجال من كلا النمطين بحيث تخلق لديهم مستوى واحدا من تنشيط فرع الطوارىء لاستجابات القلب وبين رسام القلب الكهربائي أن أصحاب قلوب النمط - ب تعافت من أثر المنبه بدرجة أسرع وأدّى بنا ذلك إلى القول بأننا ربما نكون قد كشفنا عن أن الفرع المهدىء له أثر أقوى في قمع أنشطة فرع الطوارىء لدى أصحاب النمط - ب .

فمثلما تعمل الاستجابات المتضخمة لفرع الطوارىء لدى أصحاب النمط ـ أ على استثارة عمليات التلف في الشرايين والتي تؤدّي إلى تصلب الشرايين والأزمات القلبية فإن الاستجابات الأقوى لدى أصحاب النمط ـ ب قد تعمل على حمايتهم بأن توقف أنشطة فرع الطوارىء الضارة أو المؤذية للقلب والأوعية الدموية قبل أن يستفحل أمرها .

وقد كشفت تلك الدراسات أيضا عن الآثار الكامنة (الموجودة بالقوة) للعداوة فقد مكنتنا الدرجات العالية على مقياس كوك ـ ميدلي من التنبؤ بكل من الاستجابات الشديدة للقلب نتيجة تعاطي المنبه وباستجابات التستوسترون في مهام اليقظة ، وفي دراسة حديثة كانت من بنات أفكار ادوار سوريز ، وهو سيكولوجي شاب يعمل معي في جامعة ديرك ، ظهر مرة أخرى أن الرجال الذين يحصلون على درجات عالية في اختبار العدوان تظهر لديهم استجابات فرع الطوارىء بشكل أوضح ولكن عندما يرهقهم أو يزعجهم شخص آخر . كما أن هؤلاء الأشخاص العدائيون يتمكن منهم الغضب في تلك المواقف .

ولم يستكمل البحث بعد في الطرق البيولوجية . ولكن يزداد اتضاح أن الأشخاص الأكثر عداءً عندما يخوضون الشدائد وخاصة في أحوال تزيد من ارتيابهم وسوء ظنهم بالآخرين ، وبالتالي يزداد غضبهم ، هؤلاء الأشخاص تظهر لديهم استجابات تزيد من خطر تعرضهم للمرض . وقد اتضح لدي أيضا أن الأفراد يستطيعون اتخاذ إجراءات لتخفيف عدائهم وبالتالي يقللون من هذه المخاطرة وهذا هو السبب في أنني ابتكرت برنامجا لايجاد القلب المطمئن .

كيف يصبح قلبك مطمئنا ؟

لكي يزداد اطمئنان قلبك ، أمر ليس بالسهل ، فهو يتطلب منك أن تعمل لتحقيق ثلاث أهداف منفصلة ولكنها متكاملة :

أولا : قلل من ارتيابك وسوء ظنك بدوافع الآخرين .
ثانيا : قلل من شدة وتكرار المرور بخبرة الانفعال كالغضب والانزعاج والإحباط والغيظ .
ثالثا : تعلم أن تعامل الآخرين بعطف وتقدير ، ونمّ مهاراتك في تأكيد ذاتك لمواجهة المواقف التي لا مفر منها . بعبارة أخرى ستحتاج إلى أن تغير أفكارك ومشاعرك وأفعالك .

كيف تقوم بذلك ؟ أولا ؛ تحتاج إلى سبب يدعوك للتغير . ولما كان العداء والارتياب يعرضانك لخطر الوقوع في مشكلات صحية شديدة ، فلا ريب أن الدافع

للتغير موجود . وهناك أسباب أخرى تدعوك للتغير كذلك وهي أن تصبح أبا أو زوجا أو صديقا أفضل . وقد وضعت برنامجا من ١٢ خطوة يمكنك اتباعها لتتغير من شخص عدائي إلى شخص ذو قلب مطمئن .

الخطوة الأولى : (راقب أفكارك الارتيابية وظنونك السيئة)

وكنقطة ابتداء إحمل معك دفترا صغيرا لتدون فيه مذكراتك ـ ولنسمه مذكرات العداء ـ ومتى أدركت أنك تفكر بشكل ارتيابي سجل ذلك . وإذا كنت محاطا بأناس عندئذ فسجله فيما بعد ، ولكن لا تنسه أو تهمله . ويجب أن تشمل كل واقعة تسجلها المكان والزمان ، ومن فعل ماذا ليثير أفكارك الارتيابية ، والأفكار الفعلية التي مرت بذهنك والانفعالات التي خبرتها والأفعال التي قمت بها . وإليك نموذجا يمكن احتذاؤه :

متى : الأربعاء ١٢/١/١٩٩٠ الساعة الواحدة والربع
أين : في السيارة أثناء انصرافي من العمل
من : شاب مراهق يركب سيارة موستانج
ماذا : انحرف بسيارته أمامي متخطيا حارته ليدخل في مسار آخر مما كاد يسبب اصطداما .
الأفكار : شباب مستهتر ، لم يتعب في شراء سيارته ، لا أخلاق ولا احترام لقواعد المرور يجب أن ألقنه درسا في احترام قواعد المرور .
المشاعر : الضيق والرغبة في القتل
الأفعال : ضغطت على البوق لمدة طويلة عندما عبرت بجانبه ونظرت إليه نظرة احتقار .

وباستمرار تسجيل مذكراتك بهذا الشكل ستعلم نوع المواقف التي تثيرك ومرات حدوثها . فتزداد قدرتك على معرفة أفكارك الارتيابية ومشاعرك الغضبية وسلوكك العدائي ، وفي النهاية ستساعدك على وقف تلك الأفكار قبل أن تبدأ .

راجع « مذكرات العداء » في نهاية كل أسبوع لتخرج بالأفكار المشتركة فيها ، وسيدهشك أن ترى كيف يستثار عداؤك لأسباب تافهة « فهذا المراهق لم يكن يقصد إغاظتك إنما كان في عجلة ولم يحسن تقدير الانتقال من حارة إلى أخرى » وهذه بداية جيدة نحو خلق قلب مطمئن . وسوف تدرك أن الكثير ، بل معظم ، ما سجلته في المذكرات هي مواقف كان ارتيابك وسوء ظنك هما السبب الأساسي لاستجابتك الانفعالية والسلوك المزعج الذي نتج عنها .

الخطوة الثانية ـ (الاعتراف بالحق فضيلة)

إن الاعتراف بمشكلة ما صراحة ، والرغبة في إتخاذ إجراء بشأنها والسعي للحصول على عون وتعضيد الأشخاص المحيطين بنا ممن لهم أهمية في حياتنا ، يستطيع أن يقوم بدور رئيسي في نجاحنا النهائي . فلتطلع زوجتك أو صديقا حميما أنك تعاني من مشكلة ازدياد العداوة في نفسك . وقل لهم أنك تأمل في أن يدعموا جهودك للتغير .

إن اعترافك ذاك هو عمل من أعمال الثقة والاطمئنان إلى الآخرين . ولاشك أن الأفعال والأفكار التي تنم عن الثقة سيكون لها أثر طيب . فإذا كان في قدرة الشخص الآخر أن يدعمك ويفيد جهودك ، فإن ذلك معناه في الأساس أنك قد نلت مكافأة على كونك أكثر ثقة بالناس . وسيساعد هذا على شعورك بأنك آمن في استعانتك بالآخرين .

والآن أنت على استعداد للتدريبات العملية لوقف تلك الأفكار الارتيابية تماما .

الخطوة الثالثة ـ (أوقف تلك الأفكار) :

كيف توقف تلك الأفكار ؟ ببساطة مرها أن تتوقف . لقد أثبت ما يسمى « بوقف الأفكار » أنه فعال في مساعدة المرضى الذين تستحوذ عليهم أفكار متسلطة يظلوا يجترونها طيلة اليوم .

لقد سبق لك أن تعرفت على أفكارك الارتيابية من خلال « مذكرات العداء » . وما أن تدرك أنه تراودك مثل تلك الأفكار فصح بأعلى صوتك « في سرك » [قف] ولسوف ترى ـ وياللدهشة ـ أن تلك الأفكار ستتوقف بالفعل . وإذا كنت حسن الحظ فإن الغضب سيتوقف أيضا قبل أن يبدأ . وإذا بدأت تلك الأفكار وكنت وحدك فصح بأعلى صوتك فعلاً [قف] .

الخطوة الرابعة ـ (جادل نفسك بالمنطق) :

بما أنك شخص عقلاني ، فلا تتردد في محاولة النقاش المنطقي مع نفسك . فإذا غزتك الأفكار الارتيابية وأنت واقف مثلا في طابور متلكأ أمام صراف البنك ، فابدأ في محاجة بينك وبين نفسك كالآتي : « ها أنت تعود إلى الشك والارتياب مرة أخرى ، وتلقى على تلك السيدة العجوز الواقفة أمامك في الصف كل الاتهامات

بسوء القصد والرغبة في تعطيلك . لا عليك أيها الرجل ، فلاشك أن تلك السيدة لم تستيقظ من نومها وقد بيتت العزم على أن تسبقك في الصف وتمنعك من إيداع ذلك الشيك في حسابك ودبرت أن تتبعك وتسبقك بل وتعمدت أن تنسى القلم حتى تستغرق أطول وقت في كتابة الإيصال وهي تقول في نفسها الآن .. آه إنه يحرق الأرم غيظا ورائي الآن وأنا أقوم بكل تلك الألاعيب » .

الخطوة الخامسة ـ (ضع نفسك موضع الآخرين) :

إنك بالحديث الداخلي الذي دار في نفسك وأنت واقف في طابور البنك ، قد بدأت في التعاطف مع تلك السيدة العجوز . فإذا وضعت نفسك مكانها بطريقة هزلية فسترى مدى سخف شكوكك في دوافعها . وربما اكتسبت شيئا من الاستبصار بأن تحاول فهم سلوك الآخرين من وجهة نظرهم هم ، وفي معظم الحالات ستجد أن غضبك سيزول ، فالغضب والتعاطف لا يقترنان .

الخطوة السادسة ـ (تعلم كيف تسخر من نفسك) :

أغلب الظن ، أنك كنت تفعل شيئا آخر عند تبادلك ذلك الحديث الصامت مع نفسك*. لقد كنت بالفعل تضحك من نفسك . إن الفكاهة هي سياسة أخرى يمكن أن تتبعها لتتخلص من ارتيابك وسوء ظنك وتفثأ غضبك . ودعني أذكرك أن العبرة هي أن تتمكن من أن تسخر من نفسك ، لأنك إذا سخرت من الآخرين فأنت في الحقيقة تظهر ارتيابك في شكل السخرية .

الخطوة السابعة ـ (تعلم كيف تسترخ) :

إذا لم تستطع أن توقف أفكارك المستريبة « بوقف التفكير » ، ولا بالتفاهم بينك وبين نفسك ، ولا بالسخرية من نفسك ، إذن لقد حان الوقت لتستخدم أسلوبا قويا جديدا هو : التأمل (Meditation) . والتأمل كما وصفه هيربرت بنسون اختصاصي القلب في مدرسة الطب بجامعة هارفارد في كتابه الرائد « استجابة الاسترخاء » ربما كان أنجع وسيلة لتفريغ عقل الانسان من كافة الأفكار . وسوف تحتاج إلى ممارسته بانتظام حتى في الأوقات التي لا تتعرض فيها للشدة .

اجلس هادئا مستقيم الظهر في كرسي مريح ودع ذقنك تستقر بارتياح على صدرك ، ضع راحتيك في حجرك . اغلق عينيك . ركز بعد ذلك على تنفسك . وفي كل مرة تستنشق فيها الهواء أو تطرده لاحظ ما يحدث وتنبه لاحساسك بالهواء وهو ينساب خلال أغشية الأنف والفم ولشعورك بالرئتين وهما تمتلئان بالهواء وتفرغانه .

بعد أن تفعل ذلك لعدة مرات ، ردد في صمت لنفسك كلمة واحدة كلما زفرت الهواء . وليس من الضروري أن يكون لتلك الكلمة أي معنى . فقد تكون كلمة لا معنى لها من اختراعك أو رقم واحد . جرب أن تستخدم كلمة تستحضر الانفعال الذي تحاول إثارته بهذا الأسلوب « السلام » « الحب » « الثقة » « الصبر » ، جرب عدة كلمات مختلفة حتى تعثر على الكلمة التي تستريح إليها .

في البداية ستجد أن هناك أفكارا تقتحمك وأنك لا تولي اهتمامك للتنفس أو لفظ الكلمة . ومع ذلك عُد لنفسك ولتلفظ الكلمة مع كل زفير . وبمضي الوقت وباستمرار التدريب سيقل اقتحام الأفكار لعقلك ولا تصبح مشكلة .

بعد أن تمارس هذا التدريب لفترة من ١٠ إلى ١٥ دقيقة مرتين كل يوم لمدة أسبوع أو أسبوعين ستكون مستعدا لممارسة شكل أكثر اختصارا . فعندما تلاحظ أن الأفكار الارتيابية تبدأ في التكوين ، ابدأ ببساطة في التأمل حيثما تكون ولا حاجة بك إلى اتخاذ أوضاع كما في اليوجا أو إغلاق عينيك أو فعل أي شيء يلفت إليك الأنظار . وإنما ركز انتباهك في شيء قريب منك ولاحظ تنفسك وتلفظ بكلمتك في صمت في كل مرة تزفر فيها وكرر ذلك حتى تصل إلى نهاية الصف الذي تقف فيه ، أو تنتهي من العمل الذي بيدك .

وسوف يؤدي هذا إلى صرف عقلك عن النمط المعتاد لأفكارك الارتيابية ، كما سيجابه الغضب الذي قد تشعر به ، إذا كانت أفكارك قد وصلت إلى تلك المرحلة .

وقد تتساءل ألا تؤدي تلك المقترحات إلى شيء خطير وهو « اختزان الغضب » فربما سمعت أن التنفيس عن الغضب هو الطريقة المثلى لمعالجته . إلا أن التنفيس عن الغضب بإظهاره في فورات متكررة لم يؤد إلى نتائج طيبة طويلة الأمد . بل إن هؤلاء الذين يظهرون غضبهم على الملأ يتعرضون في الحقيقة لمخاطر صحية أكبر . فالمشكلة الحقيقية ليست في إظهار الغضب ولكن فيما يدعم الغضب . فالغضب « غير الواقعي » ـ أي الذي لا يصحح موقفا ، حيث لا يوجد ما يدعو إلى التصحيح ـ هو نوع من الغضب المستريب الذي يثير أعظم الفتن .

الخطوة الثامنة ـ (مارس الثقة بالآخرين والاطمئنان إليهم) :

أشرت فيما سبق إلى القدرة الكامنة في الثقة بالآخرين ، عندما اقترحت أن تلجأ إلى الاستعانة بالزوجة أو الصديق . وهذه استراتيجية لها قيمتها ؛ ابدأ بالتقاط الفرص التي يمكن أن تلجأ فيها إلى الثقة بشخص ما واختر الفرص التي إن لم تتحقق ، فلن يلحقك أذى . فإذا كنت من النوع المستريب فغالبا لن تترك موظفة الحجز تختار لك المقعد الذي تريده في الطائرة وإنما ستنتظر بنفسك الى خريطة

المقاعد وتختار رقم المقعد الذي يناسبك . اختر مثل تلك المواقف لممارسة الثقة . فعندما تحجز مكانا للسفر ، لا تطلب مقعداً بعينه بل قل « اختر لي مقعدا على ذوقك » . وأراهن أن المقعد الذي سيختاره لك الموظف سيكون أفضل بكثير من المقعد الذي ستختاره أنت .

وإذا كانت زوجتك عندما تطهو المكرونة « تعجنها » فحاول ألا تحوم داخل المطبخ أثناء قيامها بعملها . وعند تناول الطعام لا تجعل من المسألة « حكاية » .. فماذا سيحدث إذا أتعبت نفسك قليلا في مضغ الطعام .. فالمهم ليس هو أن الاسباجيتي « معجونة » إنما أن تحظى بعلاقة فيها ود وحنان وتدعيم .

الخطوة التاسعة ـ (تعلم أن تنصت) :

عندما تقاطع أحد خلال محادثة فهذا معناه أنك تقول أن أفكارك أهم من أفكاره . وعندما يتكرر منك ذلك تكون النتيجة أن يبتعد الآخرون عنك ، حيث أنك تخبرهم بسلوكك أنك لا تهتم بما يقولونه .

ولكي تحول دون ذلك ، تعلم أن تنصت . وإذا تطلب الأمر فارغم نفسك على قفل فمك حتى ينتهي الآخر من الكلام . فإذا كان ما ستقوله ذا أهمية فستتذكره بالتأكيد فيما بعد . وإذا اتخذت وضع المصغي المنتبه فسيكون ذلك بمثابة رسالة إلى الآخر تقول فيها : أنا أقدرك وأقدر أفكارك . وهي رسالة لها فعل السحر ، وستؤدي إلى أن تكون موضع الاهتمام عندما يأتي دورك في الكلام .

الخطوة العاشرة ـ (تعلم أن تؤكد ذاتك) :

إذا عاملك أحد فعلا معاملة سيئة ، فما الذي يجب عليك عمله ؟ إن أي إنسان عادي سينتابه الغضب عندما يعامل معاملة سيئة .

فإذاً كان المسيء شخصا لن تحتاج إلى التعامل معه في المستقبل فإن أفضل استجابة غالبا ما ستكون أن تشطب اسمه من قائمة الذين ستتعامل معهم في المستقبل .

ولكن إذا كان المسيء شخصا لن يمكنك تجنبه ـ أحد أفراد الأسرة أو زميل في العمل ، أو شخصا له ميزات أخرى تعوض عدوانه ـ فتستطيع بهدوء أن تخبره بما آلمك من سلوكه ولماذا .

اقترح عليه حلا للمشكلة . فكثيرا ما يكون ذلك بمثابة نوع من الرجاء أن يتوقف عن ذلك السلوك الذي يغيظك أو يغيره . ولتخبر ذلك الشخص بالنتائج التي ستترتب على عدم قيامه بالتغيير المرجو . أكد لذلك الشخص (في مثل تلك الحالة) أنك حريص عليه وأنك تقدره حق قدره وتأمل أن تستمر علاقتكما وأن تسعدا بها . واطلب منه ردا على طلبك وانتظر بصبر وانصت بهدوء وعناية .

ويحتاج الأمر لمزيد من الكلمات - والأعمال - لتؤكد ذاتك أكثر مما يتطلبه الأمر لتُعلم الآخر بأنك غاضب . والحق أن شرح مشاعرك وما يكمن خلفها قد لا يبدو لك «طبيعيا» في البداية . ولكن حاول . فإن تتعلم كيف تؤكد ذاتك ، أمر هام جدا لأنه بديل بناء للعدوان .

وعندما تكون في بداية طريقك لخلق قلب أكثر ثقة واطمئنانا ، فقد يكون من الأصلح أن تتجنب الناس بل والأصدقاء العدائيون بطبعهم . إذ أنهم سيعملون على تنشيط ميولك العدائية . وعندما يشتد ساعد مهاراتك في تأكيد ذاتك ، وعندما تستطيع أن تسخر من ريبتك التي لا مبرر لها ، وأن توقف أفكارك العدائية وتثق بالآخرين - عندئذ فقط يمكنك أن تفكر بإعادة علاقاتك بمثل هؤلاء الناس .

الخطوة الحادية عشرة - (تظاهر بأن اليوم هو آخر أيامك) :

إذا كنت لا تزال تجد من الصعب أن تضع هذه الاجراءات موضع التنفيذ ، فحاول اتباع استراتيجية أخرى . تظاهر بأنك قد علمت للتو أنك مصاب بداء مميت وأنه بقي لك في الحياة عدة أسابيع أو ربما يوما واحدا فقط . فهل سيجعلك هذا ترى أنه من الأهمية بمكان أن تفعل الأشياء التي سبق شرحها في هذا المقال ، وعلى أي حال ربما دفعك ذلك إلى التفكير في حقيقة بسيطة هي : أننا جميعا مصابون بداء « مميت » اسمه الحياة .. والفرق بين معظمنا وبين من أخبروا بأنهم مصابون بداء مميت هو أنت أقل تأكدا منهم من مقدار الوقت المتبقي لك . ويحدث كثيرا عندما أقابل مرضى القلب وأسألهم عن الغضب وكيف يعالجونه اسمع « آه لقد كنت كثير الغضب في الماضي ، ولكن منذ أزمتي القلبية أدركت أن الكثير من الصغائر التي كانت تكدر صفوي لا تستحق في الحقيقة أي إهتمام » .

فلماذا تنتظر حتى تصاب بأزمة قلبية لتفعل شيئا بشأن عدوانيتك ؟

الخطوة الثانية عشرة - (مارس الصفح) :

الاستراتيجية الأخيرة هي أن تصفح عمن أساؤا إليك ولو أغضبوك . فبدلا من أن تلقي اللوم عليهم ، حاول أن تفهم انفعالات هذا الذي أساء إليك . فإنك بالتخلي

عن الحقد ورفض الانتقام ، ستجد أن عبء الغضب قد انزاح عن كاهلك وأن آلامك قد خفت مما يساعدك على نسيان الإساءة .

كلمة أخيرة :

تلك هي الخطوات التي يمكن أن تقوم بها بنفسك . وستجد شأنك شأن أي شخص يحاول تعلم مهارات جديدة ، أن العملية صعبة عليك أحيانا . وقد تستطيع التقدم إذا استعنت بخبرة المهنيين . ويوجد في معظم كليات الطب والمستشفيات الكبرى برامج تأهيل لمرضى القلب (وبرامج الاحتفاظ بالصحة للأصحاء) . فإذا شعرت أنك قد تستفيد مما تقدمه تلك البرامج ، فلا تتردد في اللجوء إليها والكثير منها يعقد جلسات جمعية ، ويبدو أنها ذات فعالية لأنها تساعد العدوانيين على أن يدركوا أنهم ليسوا وحدهم في معتقداتهم الارتيابية وأنه يمكنهم الاستفادة من خبرة الآخرين .



● العلاقة بين نموذج سلوك النمط - أ وأمراض الشريان التاجي

بقلم لوجان رايت
ترجمة د . لطفي محمد فطيم

أود أن أبدأ بتقديم تفسير لنوع المعلومات التي يستند إليها هذا المقال . فلقد اعتمدت أساسا على ثلاثة مصادر : أولا المصدر الشخصي والتأمل الباطني (كما يصفه تيتشنر) وثانيا استعراض ما كتب عن وضع البحوث في هذا المجال وثالثا بعض ا الأفكار المستمدة من البحوث التي قمت بها . ولعلي أزيد المصدر الشخصي شرحا فأقول أنه تم إخباري في مايو ١٩٨٣ بأنه يوجد عندي انسداد كبير في شريان تاجي أساسي . وجاء الخبر صدمة كبيرة لي ، فقد كان طبيبي وغيره من الأطباء يعتبرون حالة أوعيتي القلبية ممتازة . وخلال السنوات العشر الماضية أجريت فحوصا طبية سنوية أظهرت جميعها أن ضغط الدم عندي جيد ، وأن نسبة الكوليسترول في الدم تقل عن ٢٠٠ . كما كانت كل الدلائل تشير إلى أنني أحيا حياة نشطة ، لا خاملة ولا راكدة . ومما له دلالة أيضا ، وسوف أشرحه فيما بعد ، أنه لم يكن لَدّي أي من العوامل التقليدية التي تعرض الانسان للخطر ، كوجود إصابات في تاريخ العائلة أو التدخين . وبالرغم من أنني لم أصب بأي نوبة قلبية ، فقد نصح الأطباء بإجراء جراحة في القلب .

ولقد كانت خبرتي المهنية السابقة في مجال الأطفال أساسا ، إذْ كنت إختصاصيا نفسيا في صحة الطفل ، غير أنني كنت أحضر بانتظام الاجتماع السنوي لأكاديمية البحث في الطب السلوكي ، وهو اجتماع يحضره حوالي مئة عضو من مختلف التخصصات والتوجهات ، ولذلك لم تكن فكرة النمط - أ غريبة علي ، ولكنني لم أكن أعول كثيرا على إمكاناتها الباثولوجية ؛ أي قدرتها على إحداث المرض . وبالرغم مما أعترف به الآن من غفلة ، فلم أعتبر نفسي قط من المرشحين لعضوية مجموعة النمط - أ . إلا أن إجراء جراحة في القلب كفيل بإيقاظ المرء من غفلته . وهكذا أصبحت هذه الأزمة الصحية الواضحة أول خطوة لي في رحلة بحث جديدة .

العنوان الأصلي للمقال :
The Type-A Behaviour Pattern and Coronary Artery Disease: Quest for Active Ingredients and the Elusive Mechanism, by: Logan Wright, "American Psychologist", Vol. 43, Jan 1988.

التأمل وتوليد الفروض

وأظن أنه حتى ولو لم تجرني حالتي الشخصية للاهتمام بالموضوع ، فأعتقد أنني كنت ولا بد سأهتم (intrigued) بحدوث أمراض الشريان التاجي (CHD) لدى شخص مثلي خال من أي عناصر المخاطرة التقليدية . وكانت **أول** مكتشفاتي أن العناصر التقليدية لخطر التعرض لأمراض الشريان التاجي - أي التي لا تنتمي إلى النمط - أ - لا تفسر سوى ٥٠٪ من التغير (Jenkins, 1971, 1976) . **والثاني** : وجدت أن حلقة المناقشة في المؤتمر الذي عقدته المعاهد القومية للصحة ، حيث استعرضت مسألة السلوك المؤدي إلى أمراض القلب التاجية وعلاقتها بأمراض الشريان التاجي للقلب (١٩٨١) ، قد وصلت إلى النتيجة التالية : « إن الأدلة العلمية المتوافرة تبين أن سلوك النمط - أ .. يرتبط بازدياد خطر التعرض للمظاهر الأكلينيكية لأمراض الشريان التاجي لدى موظف الولايات المتحدة في أواسط العمر . وأن ازدياد التعرض لتلك المخاطر أكبر بكثير من المخاطر التي يفرضها السن وارتفاع ضغط الدم وازدياد الكولسترول والتدخين (ص - ١٢) » .

ومع ذلك فقد ظلت الصورة غير واضحة عندي ، لأن مقارنة سلوكي بالسلوك العام للنمط - أ لا يرشحني لأن أكون من بين أصحاب هذا النمط :

ويشير سلوك النمط - أ ، كما وصفه مبتدعوه (روزنمان وزملاؤه ١٩٦٤) إلى الشخص ذي النزعة التنافسية ، المتعددة الأوجه ، الساعي إلى الإنجاز ، والذي يسيطر عليه إحساس بأن الوقت كالسيف - إذا لم تقطعه قطعك - ونفاذ الصبر ، والذي يستثار بسهولة وفي الوقت نفسه يكون عدائيا أو غاضبا . ولقد أدركت منذ وقت مبكر أن بعض سمات النمط - أ توجد لدى أفراد متقدمين في العمر ، ولكن لا تظهر لديهم أي أعراض لأمراض الشريان التاجي ، وأن سمات النمط - أ لا توجد كلها لدى الأفراد المصابين بأمراض القلب من النوع الذي يرتبط بهذه السمات . ولقد أدهشني بخاصة عدم وجود أمراض الشريان التاجي لدى بعض من ينشغلون بأعمالهم انشغالا شديدا ، وكذلك لدى آخرين ممن تظهر العداوة واضحة في سلوكهم .

ويبدو أن كل ما سبق نتائج مرتبطة بوجود أعداد كبيرة من الاستجابات (الايجابية) الزائفة التي تكشف عنها الأدوات التشخيصية التقليدية مثل مقياس جنكنز للنشاط Jenkins Activity Scale (JAS, Jenkins, Zysanski Rosenman 197) والمقابلة المقننة (SI, Rosenman 1978) . والظاهر أن هذه

الاستجابات الموجبة قد نشأت عن اختبار فرعي لسمات النمط - أ يتعلق بالسمات المسؤولة فعلا عن وجود استعداد أوميل او نزوع لمخاطر الاصابة بأمراض الشريان التاجي . وفي البداية أطلق ماتيوز (١٩٨٢) على تلك المكونات القاتلة اسم « الجوانب الرئيسة - major facets » أو « العناصر الجوهرية - core elements » ، ثم سماها واتكنز (١٩٨٦) المكونات النشطة (active ingredients) . ويقول دومبروسكي وويليامز في كتاب لهما تحت الطبع : « إن بعض الجوانب في النمط - أ المتعدد الأبعاد تعدّ قاتلة .. وأن التقييم الشامل للنمط - أ يظهر احتواء المقياس على كمية لا بأس بها من « التشويش » (أي المعلومات التي لا لزوم لها) مختلطة بالعلامات الدالة على وجود استعداد للإصابة بالأمراض التاجية » .

وأتوقف قليلا عند هذه النقطة ، لأبدي اعتذاري عن استخدامي للأساليب الذاتية مثل الاستبطان ، ذلك أن توافر صفة المعالج النفسي لمريض من النمط - أ مثلي يوفر للاستبطان فرصة نادرة حيث يكون عدد الأفراد (ن) يساوي = ١ أي (دراسة الحالة) . أما الملاحظة فليست لساعة واحدة أو اثنتين في الأسبوع وإنما ١٦ أو ١٨ ساعة يوميا . ونادرا ما كانت تمر دقائق خمس دون خبرة داخلية ما ترتبط بموضوع النمط - أ . إن مثل هذه التأملات الباطنية في استكشاف جوانب سلوك النمط - أ قد تفيد في إنارة الطريق أكثر مما تفيد في دراسة الاكتئاب على سبيل المثال ، وغيرها من الدراسات التقليدية التي تعالج بحث الأسباب . والسبب في ذلك أن لدينا فكرة جيدة عن ماهية الاكتئاب ، أما بالنسبة للموضوع الحالي فما زلنا نحاول أن نرسم صورة (على الأقل فيما يتعلق بإدراك الذات) للماهية الدقيقة لنوع سلوك النمط - أ . ونظرا لأنه لا يوجد عندي العوامل التي تعرضني للخطر من خارج النمط - أ ، بدا أنني حالة قوية من ميول واتجاهات النمط - أ ، لا تخالطها شائبة . وكانت حقيقة أن تلك الظاهرة الشبيهة بالنمط - أ ، هي على ما يبدو العامل أو السبب الوحيد المسؤول عن حالة الشريان التاجي عندي ، تجعل من الاستبطان ذا قيمة أكبر ، وبخاصة خلال مرحلة توليد الفروض من البحث . وعلى أي حال فإن تعريض مشاكلي الصحية للرأي العام وكذلك بعضا من سمات شخصيتي المصاحبة لها يجعلني آمل أن تقع مادة « الاعترافات الصادقة » هذه في مكان ما أقرب إلى « النشرة السيكولوجية Psychological Abstracts» منه إلى « المحقق القومي »[1] (National Enquirer) على المتصل الذي يربط بين الاثنين .

(١) النشرة السيكولوجية هي مجلة تصدر عن الجمعية النفسية الأمريكية . وتتوخى فيما تنشره التزام المنهج العلمي الصارم ، أما المحقق القومي فهي تنشر الفضائح أو القضايا المعتمدة على القيل والقال . ويعني المؤلف بقوله هذا أن يكون بحثه أقرب إلى البحوث العلمية الدقيقة منه إلى القضايا التي لا تستند إلى مبررات علمية . (المترجم)

وعلى أي حال ، فإذا كانت بعض ما يسمى بالمكونات النشطة أو المكونات الفرعية للنمط ـ أ هي المسؤولة فعلا عن التعرض لمخاطر النزوع إلى الاصابة بأمراض الشريان التاجي ، فإن المرء سيتوقع لها أن ترتبط بأمراض الشريان التاجي بدرجة أعلى من درجة ارتباطها بالنموذج الشامل للنمط ـ أ . ومن الناحية النظرية فإن الجوانب المتبقية (أي التي لا تعرض صاحبها لمخاطر الاصابة التاجية) من النمط ـ أ ستتكون من مكونات تمتد من « تلك التي لا ترتبط بأمراض الشريان التاجي » إلى « الصحية » كما سماها مجموعة من الباحثين (Hansson, Hogan, Johnson Shroeder 1983) . وهذه المكونات يتوقع أن تضيف مزيدا من الخطأ ، بدلا من الصدق التنبؤي ، للجهود الرامية إلى ربط النموذج الشامل للنمط ـ أ بأمراض الشريان التاجي ، كما أنها تتحمل المسؤولية الرئيسة في مشكلة الإجابات الموجبة الزائفة .

المكونات النشطة في النموذج السلوكي للنمط ـ أ

انطلاقا من اقتناعنا بأنه من المنطق أن نهتم بالمكونات الفعالة أكثر من اهتمامنا بالنمط ـ أ في عمومه بدأنا أنا ومجموعة من الزملاء الباحثين من جامعة أوكلاهوما ، نقضي كل أربعاء في وحدة العناية بمرض الشريان التاجي في أحد المستشفيات الكبرى . وهناك كنا نلتقي بعدة عشرات من بمرضى الشريان التاجي الجدد كل أسبوع . وفي محاولتنا إعادة النظر فيما يميز أو لا يميز أصحاب النمط ـ أ ، فوجئت بالدور الذي يقوم به أحد الأسس التحتية للنمط ـ أ والذي بدا لي أنه يفسر الكثير من التباين في نتائج المقياس الشامل لسلوك النمط ـ أ أو أي مكون من مكوناته الأخرى . ويتشكل هذا الأساس من زمرة عوامل تتضمن : الإحساس بنفاد الوقت (time urgency) ، والنشاط المزمن (chronic activation) ، وتعدد أوجه النشاط (multiphasia) . ويشير تعبير الإحساس بنفاد الوقت إلى الاهتمام لا بالمراحل الطويلة من الزمن مثل « الحياة قصيرة » وإنما بالفترات القصيرة « الدقائق والثواني » (مثل تغيير الحارات أثناء السير في الطريق لتتخطى سيارة أو اثنتين ، أو النظر بزاوية العين إلى الضوء الأصفر حتى نستعد للانطلاق عندما يتغير اللون الأحمر إلى أخضر) . أما تعبير النشاط المزمن فيشير إلى الميل إلى أن يظل المرء نشطا وشغالا طيلة الوقت وكل يوم . وتعبير تعدد أوجه النشاط فيشير للميل إلى وضع أكثر من سيخ في النار ، بمعنى القيام بأكثر من عمل في اللحظة الواحدة (مثل القراءة أثناء مشاهدة التلفزيون أو تناول الطعام) .

ولقد دافع ردفورد ويليامز وزملاؤه بحرارة عن النتيجة التي وصلوا إليها ، وهي أن العدوان/الغضب هو العنصر الرئيس إن لم يكن الأوحد في الميل لأخطار

التعرض لأمراض الشريان التاجي . إلّا أن المادة التي استخلصوا منها هذه النتيجة تأتي في معظمها من أدوات قياس تعتمد على ما يقوله المرء عن نفسه (selfreport) . ومن الواضح أن ما يقيسه مقياس جنكنز وكذلك المقابلة المقننة هو في الأساس عامل الغضب لدى النمط ـ أ . ولكن بسبب اختلاف رأي ويليامز عن الرأي الذي وصلت إليه من ملاحظاتي الكلينيكية اقتنعت بأنه إما أن يوجد عاملان نشطان (الغضب والإحساس بنفاد الوقت) أو أنه من المحتمل أنهما مظاهر منفصلة لظاهرة واحدة .

ولمتابعة هذا الاحتمال الثاني ، دعوني أشير أولا إلى هناك خيطا رفيعا يمكن أن يفصل بين المعالجة العدوانية للمهام التي يقوم بها الإنسان (مثل الإحساس بنفاد الوقت أو النشاط المزمن) والمعالجة العدوانية للعلاقة بين الأشخاص (أي توجه العدوان للمهمة أو للشخص) . ولنأخذ مثالا شخصية معروفة ، لاعب التنس جون ماكنرو . فيعتقد بعض دارسي لعبة التنس أن الكثير من موهبة ماكنرو تقع في الشدة التي يحشد بها طاقته لمتابعة كرة هامة . وفي بعض المستويات لا بد أنه يصبح من الصعب (بالنسبة لبعض الأشخاص مثل ماكينرو) أن يفصل العدوان الموجه للمهمة عن العدوان الموجه للشخص ، إذ لا يصبح من السهل إيقاف إحدى الوظيفتين بينما يمكن ممارسة الأخرى بسهولة . وهناك طريقة أخرى مناقضة ، حيث لا يبدو أن العدوان الموجه إلى المهمة يطلق أو يفجر العدوان نحو الأشخاص ، ومثاله الملاكم الأسطوري محمد علي الذي كان يبدو عليه دائما الاستمتاع بما يفعله فيطير كالفراشة ويلسع كالنحلة

ثانيا ـ أن الصلة بين الإحساس بنفاد الوقت والغضب تزداد توثقا إذا ما علمنا أن استجابة الغدد الصماء في جسم الإنسان الى ما نعتبره نوعين مختلفين من الانفعالات هي استجابة واحدة في الأساس . وهي في الواقع استجابة القتال أو الهرب وتشمل ازدياد إفراز الكاتيكولامين (الأدرينالين والنورادرينالين) ، وإطلاق السكر في الدم وازدياد معدل نبضات القلب واندفاع الدم إلى العضلات الكبيرة . وبهذا الشكل قد تكون خبرتنا الذاتية لانفعالين منفصلين ذات طبيعة وصفية (attributional) خالصة .

بل وهناك شيء ، مشترك **ثالث** يمكن إبرازه بين العداوة والإحساس بنفاد الوقت فيما يتعلق بإنجاز المهام . فبملاحظة المظاهر الجسمانية للخصائص التي يفترض وجودها لدى أصحاب النمط ـ أ نجدها كالآتي : (١) تكشيرة غالبة على ملامح الوجه حتى أثناء أداء أقل جهد (٢) حركات مبالغ فيها أو دراماتيكية خلال القيام

بأقل عمل كفتح الزجاجات أو إقفال الأدراج وأثناء إدخال شىء فيها أو إفراغها (وعلى سبيل المثال اشتكت بعض زوجات الرجال من النمط - أ أنهن لا يستطعن فتح أنبوبة معجون الأسنان لأن أزواجهن يغلقونها بشدة) ، (٣) طريقة زائدة الشدة في الكلام من حيث الكمية والمضمون (٤) السرعة في تناول الطعام (٥) الانتباه واليقظة الزائدة (٦) قصر الفترة بين المنبه والاستجابة (٧) التنهد العميق بكثرة (٨)حركة متكررة (تململ) للأقدام أو الأصابع أو الفك (٩) نظرات شديدة يصحبها غالبا كف للضحك أو الابتسام (١٠) نوع من اتساع العين أو جحوظ القرنية (أخذت معظم هذه الصفات من Friedman, Hall& Harris, 1984)

ومن المعروف أن جحوظ القرنية مرتبط بزيادة إفراز الأدرينالين في الدم . أما تكشيرة الوجه فعادة ما تصاحب الأفعال التي تتطلب أقل جهد بدني ممكن مثل ارتداء الجوارب . وبالمثل فإن التنهدات العميقة تتلو بالضرورة النشاط أو الاستثارة عندما لا يستطيع المرء التجاوب ببذل الجهد البدني الشاق (ولا يكون بالتالي مقطوع النفس) ويبدو الأمر كما لو أن الاستجابة السابقة على بذل الجهد (استجابة التنشيط/ الأدرينالين) والاستجابة التالية على بذل الجهد (النفس العميق) موجودتان ولكن دون القيام بالتدخل الذي نواه الشخص صاحب النمط - أ عندما حشد قواه . وهذا الموقف يترك المستجيب من النمط - أ في حالة « شك موقوف » مع فائض من الانفعالات والهورمونات . ويكون التنهد ببساطة تصريفالتلك البقايا . ويفسر البعض (مثل فريدمان وأولمر ١٩٨٤) هذه الميول بالإضافة إلى الكلام الشديد وزيادة اليقظة وسرعة تناول الطعام ، وقصر الفترة بين المنبه والاستجابة وحركات التململ التي سبق ذكرها ، يفسرونها على أنها مظاهر مكشوفة لغضب كامن . ولكن إذا أعدنا فحص هذه الميول بدقة ألا يمكن أن تكون ببساطة مظاهر للتنشيط الموجه إلى الإنجاز أو على الأقل لميل إلى المبالغة في حشد طاقات الجسم البدنية استجابة لمهام تتطلب أدنى قدر من الجهد ؟

وهناك طريقة رابعة يمكننا بواسطتها أن نربط الغضب بالإحساس بنفاد الوقت وهي دراسة احتمال أن يكون الغضب الزائد ناتجا ثانويا للإحساس بنفاد الوقت . فإذا كان المرء من أصحاب النمط - أ المشهود لهم بذلك ، فإنه قد لا يصبح شديد الإحساس بنفاد الوقت فحسب وإنما أقرب إلى أن يكون مهووسا دينيا . فنمط - أ ليسوا مجرد عابدين للأوثان بل إن وثنهم هو الوقت ، وهذا بالتالي يعدّهم أو يهيئهم لأن يكونوا مضطربين مهتزين أو غاضبين . مثال ذلك ما يحدث لنا من غضب أو

ارتباك عندما يصبح ما نعبده أو نقدسه موضع سخرية أو ازدراء من الآخرين . وأسوأ من ذلك المواقف التي يبدي فيها الآخرون عدم الولاء والإخلاص لما نقدسه وهو الوقت بشكل يؤثر علينا مباشرة : فهم يتأخرون وبذلك يؤخروننا ، يقودون سياراتهم ببطء مما يعوق حركتنا ، وهم المسؤولون عن التلكؤ في طابور الجمعية أو ما شابه . وكما قال لي أحد مرضاي من النمط ـ أ « أعتقد أنه سيوجد في السماء طابور السرعة ، لمن يحملون ٨ خطايا فأقل » . (وينتابني القلق أحيانا أن يكون القديس بول من النمط ـ ب وسينفذ صبري بحيث أطيح بالموقف كله) . وعلى أي حال ، فإنه بسبب أننا من عباد الوقت فإننا سنصبح غاضبين من أي شيء أو أي شخص يبدد « وقتنا الثمين » .

ويوضح تعليق لمريض آخر كيف أن الغضب قد يكون نتيجة ثانوية أو مترتبة على الإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن « سينتابك الغضب أيضا إذا كان عليك أن تعمل بجد مثلما أعمل لأنجز ما أريد » . وهكذا فإن الغضب المرتبط بالنمط ـ أ يمكن ربطه بنفاد الوقت : إما بسبب أن استجاباتنا الفسيولوجية للانفعالين متشابهة أو لأن الكثير من الغضب ينشأ من الإحساس بنفاد الوقت أو نذيره : الحاجة الملحة للإنجاز .

••••

وما أن اقتنع فريق البحث اقتناعا صادقا بفرضية أن الإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن مرشح لائق لمرتبة المكون النشط الفعال ، حتى أصبح الوضع مهيئا للمرحلة الثانية من بحثنا ، التي لم نكتف فيها بطرح سؤال ما هي المكونات الفعالة للنمط ـ أ ؟ وإنما طرحنا أيضا الأسئلة التالية : كيف تنمو المكونات الفعالة للنمط ـ أ فرديا ؟ (ب) ما هي النظريات السيكولوجية التي تمتلك أكبر قدرة على تفسير تلك المكونات ؟ (جـ) ما هي الميكانيزمات الكامنة وراء العلاقة بين المكونات الفعالة وأمراض الشريان التاجي ، (د) ما هي أنواع الدراسات الأفضل ملاءمة لاختبار الفروض الخاصة بالمكونات الفعالة للنمط ـ أ ؛ (هـ) ما هي الأدوات التشخيصية والعلاجية التي يجب أن نسعى إليها ؟.

النمو الفردي لنموذج سلوك النمط ـ أ :

يبرز سؤالان على التو فيما يتعلق بالنشوء الفردي لنموذج سلوك النمط ـ أ : (١) ما هي الخبرات الرئيسة التي تقوم بدور حاسم في نمو ميول النمط ـ أ ؟ (٢) وهل يسير نمو هذه الميول ، في خط واحد من الطفولة إلى الرشد أم أنه نمو متقطع ؟

ونظراً لأن حالة مرضانا قد أقنعتنا بأن الإحساس بنفاد الوقت مكون فعال هام ، فلم يكن غريبا أن تكون الخبرات التي التقطناها من ملاحظاتنا الكلينيكية متعلقة بنفاد الوقت . وفيما يلي عينات من الخبرات الأولى التي لاحظناها في مقابلاتنا الكلينيكية التي استهدفت الحصول على تاريخ المرض من مرضى الشريان التاجي الذين تبدو لديهم مظاهر قوية من سلوك النمط ـ أ : (١) حاجة مرتفعة إلى الإنجاز ، وربما لا سبيل إلى إشباعها ، تميل ألا تظهر على السطح إلا في المراهقة المتأخرة أو الرشد المبكر والتي تقوم على ربط المريض بين الانجاز واحترام أو تقدير الذات (ويبدو أن هناك أيضا افتراضا بأن الإنجاز ينشأ عن النشاطات التنافسية لا المشبعة للشخص) . (٢) النجاح المبكر (لا يتخطى المراهقة) والذي يبدو أنه يخلق أملا أقوى من المعتاد بأن المزيد من السعي والدأب سيؤدي إلى جني الثمار في النهاية . (٣) التعرض المبكر في الحياة لنشاطات تنافسية أو تعتمد على الوقت مثل الألعاب الرياضية أو العمل « بالمقطوعية » لا بالساعة (كدهان الحوائط ، فمثل تلك الأعمال تسمح للأفراد بكسب الأجر نفسه في وقت أقل ، وبالتالي يكسبون وقتا للقيام بأعمال أخرى كثيرا ما تكون موجهة نحو الانجاز أيضا ، ومن ثم ينشأ لديهم مخطط (Blueprint) للتمهيد للاحساس بنفاد الوقت استجابة لتحديات الإنجاز) .

وهكذا شملت إجابتنا على سؤال ما هي الخبرات الحاسمة في نشوء نموذج سلوك النمط ـ أ ثلاثة عناصر هي (أ) حاجة مرتفعة إلى الإنجاز (ونعني بها النجاح التنافسي) (ب) النجاح مبكرا في الحياة وبالتالي تعزيز بذل الجهد (جـ) التعرض لأنشطة محددة الوقت تؤدي إلى نشوء خطة شخصية لإنجاز المزيد بالاستخدام الكفؤ للوقت وبالنشاط المزمن .

يبدو أن الخبرات النمائية التي ندَّعي انها رئيسة لا تكون ذات علاقة الا في الحالات التي بدا فيها نقص لتقدير أو احترام الذات . ويبدو أن انخفاض تقدير الذات قد ينشأ من مصادر متنوعة ابتداء من أساليب التربية الوالدية السيئة حتى مشيئة الرب كالموت والطلاق والعجز وترتيب الولادة .

ويبدو أنه من الأفضل أن ننظر إلى هذه العوامل الحاسمة (Key) الثلاثة باعتبارها ذات طبيعة مهيئة . أما الجزء الضروري الآخر من معادلة النشوء الفردي فيبدو أنه يكمن في اتخاذ القرار ، لمعالجة انخفاض تقدير الذات عن طريق الإنجاز والذي يبدو أنه يؤدي بدوره إلى نوع من الجهد متعدد المراحل (أشبه بالقذيفة) ، لإنجاز أكثر مما يمكن في أكبر عدد ممكن من المجالات . وهذا القرار يوفر أكثر العوامل المرسبة (precipitating) شيوعا ، وكثيرا مايلي فشلا ذريعا أو

نقصا يخبره المرء كفشل في مقابل نجاحات سابقة . فإذا ما صادف النمط ـ أ قليل الخبرة (الناشىء) خبرات الفشل هذه فإنه سيثقل كاهل نفسه بسلسلة لا نهاية لها من المطالب ، وسرعان ما يخلق ذلك اتجاها أو وضعا مؤداه « يجب ألا يلحق بي أحد قط » (وإذا تصادف أن لحق به أحد ، فسيعمل على وضع خطط بعيدة المدى لإنجازات في المستقبل) . وإذا لم يلحق به أحد قط فسيكون على المرء ألا يضيع لحظة واحدة ، ومن هنا تنشأ الأعراض المتلازمة للاحساس بنفاد الوقت ، بالاضافة الى الاحساس بعدم الارتياح « إذا لم يكن المرء مشغولا طول الوقت » . وهذا الاحساس الأخير (كما عبر الكثير من المرضى من النمط ـ أ) هو استعداد لا شعوري مؤداه « بما أنه لم يلحق بي أحد قط ، وأجد نفسي بلا عمل يشغلني ، فالواجب أن أجد ما أعمله » .

وهذا السيناريو الذي ذكرناه يضع ما يبدو أنه العوامل النمائية الفاتحة (key) (حسب خبرتنا الكلينيكية مع المرضى الذين يحسون بنفاد الوقت) المهيئة منها والمرسبة في النشوء الفردي (ontogenic) لنموذج سلوك النمط ـ أ . وفيما يتعلق بمسألة هل تنمو تلك الميول لدى النمط ـ أ في طريق خطّي مستقيم ، فقد افترضت ماتيوز أنها تتخذ مسارا خطيا (Mathews & Volkins 1981) (Mathews & Jennigs 1984). وقد أوردت تشابهات سلوكية وفسيولوجية بين نمط ـ أ من الأطفال والبالغين . واقترحت أن المناطق التالفة في الشرايين التاجية نتيجة للأحماض الدهنية والمسؤولة عن أمراض الشريان التاجي قد يبدأ تكوينها في العقد الأول من الحياة بدلا من العقد الثاني ، حيث ثبت لديها وجودها بشواهد موثوقة .

إلا أن دراسة شتاينبرجر (١٩٨٦) فشلت في تأييد دعوى ماتيوز . فقد استخدم الباحث معلومات جُمعت كجزء من دراسة نيويورك الطولية ، ووجد أن ميول النمط ـ أ يبدو أنها ترتبط ارتباطا موجبا مع التوافق النفسي للطفل بينما لا ترتبط بالتوافق في المراهقة وترتبط ارتباطا سالبا بالتوافق لدى الراشدين . وهذه النتائج أفضل أتفاقا مع ملاحظاتنا الكلينيكية التي ترى أن سلوك النمط ـ أ يبدأ من المراهقة أو الرشد المبكر كتعويض عن ظواهر لا تنتمي إلى النمط أ أساسا ، والتي وجدت قبل ذلك .

النظريات السيكولوجية ونموذج سلوك النمط ـ أ :

ولننتقل الآن إلى السؤال الثاني : ما هي النظريات السيكولوجية ذات القدرة الأكبر على تفسير النمط ـ أ ؟ فلكي نحرز التقدم الأمثل في أي مجال من مجالات

البحث السيكولوجي يجب ربط موضوعات البحث بالنظرية . ويمكن تحقيق ذلك بالتوفيق بين الموضوع (وهو هنا سلوك النمط ـ أ) وبين النظريات السيكولوجية الموجودة ، وإلا فعلينا إيجاد نظريات جديدة توفر لنا فروضا يمكن التحقق من صدقها . وأود عند هذه النقطة أن أشير إلى ما أعتقد أنه تمييز لابد منه ، فأفضل نظرية لتفسير سلوك النمط ـ أ قد تتغير استنادا إلى ما نتناوله سواء كان السلوك الظاهر (النمط ـ أ في كليته) أو أبنية سيكولوجية (المكونات الفعالة) أو ميكانيزم فسيولوجي كامن قد يشترك في العملية . وبقدر ما أعلم لم يتعرض أي باحث لهذا التمييز عند مناقشته للنظريات المتعلقة بالنمط ـ أ . واستمر الوضع كما هو بعد إعلان هذا التمييز أي ظل مستندا إلى الافتراض القائل بأن تفسير شيء ما بواسطة ميكانيزم فسيولوجي يمكن ملاحظته هو أكثر اختزالية (وبالتالي أفضل) من الاعتماد على أفضل بناء سيكولوجي (Construct) مهما كان راسخا . وانتقل الآن إلى تقديم ترشيحاتي لأفضل التفسيرات النظرية الواعدة لمختلف جوانب الجشطالت المعروف بالنمط ـ أ .

لقد ركزت معظم بحوث النمط ـ أ على السلوك الظاهر له . وبُذلت حديثا جهود لتطبيق النظرية السيكولوجية في هذا المجال ، واقترِحَت أنماط (موديلات) سلوكية* أميل إلى الحذلقة والتعقيد . ومثال ذلك نظام يعتمد على نظرية التعلم المعرفي ـ الاجتماعي ويستند بقوة إلى القدوة الاجتماعية (باندورا ١٩٧١) والتعزيزات الأسرية ـ الثقافية . ولمزيد من التفاصيل أرشح كتاب (Price,1982) .

وقد تحمل النظريات السيكولوجية التقليدية وعدا أكبر إذا استطعنا جعل مفهوم النمط ـ أ مظهرا لاضطراب نفسي يقع ضمن الفئات المصنفة تقليديا . فمن المحتمل أن يكون النمط ـ أ مجرد مثال آخر لاضطراب مألوف كالحواز الوسواسي القهري . وربما لأن تعبير (النمط ـ أ) لا يشابه التعبيرات المستعملة في الدليل التصنيفي والاحصائي للاضطرابات النفسية (DSM) . فقد صرفنا عن فهم الطبيعة الحقيقية لهذا التكوين النفسي .

وسيكون أمرا للسخرية مثيرا إذا ثبت أن التسمية هي التي جعلت من دراسة سلوك النمط ا ـ مشكلة ، فهذا التعبير الذي لا يشير إلى صفة ما قد ظهر نتيجة لجهود روزنمان وفريدمان ، ليتجنبا أي خلط لو استخدما تعبيرا قد يحمل معاني زائدة عن المطلوب . وعلى أي حال فإن هذا الإجراء قد يساهم في دفعنا إلى اتجاه آخر ، أي نحو الاعتقاد بأن ـ النمط ا ـ يمثل اضطرابا لم يسبق الكشف عنه بدلا من أن يكون ببساطة شكلا لم يسبق تحديده لاضطراب معروف سلفا .

القهرية الوسواسية . ويمنعني ضيق المساحة من تقديم شرح مطول لكيف يمكن لكل نظرية من تلك النظريات أن تفسر سلوك - النمط أ - أو ماهية البراهين الأمبيريقية التي تدعمها . وأكتفي بالقول أن هذه النظريات تتناول مسألة تكوين العادات وفضها . وأنا أفضل معالجة هب عن كل من جوثري وأولبورت لأنها تقدم بناء أكثر تحددا وأميل إلى النيوروفسيوجيا (ولو أنه سيكولوجي) .

كذلك فإن نظرية مفهوم الذات لروجرز لا تعدم مقدرة على تفسير الميول القهرية الوسواسية ، وبخاصة سلوك - النمط أ . والمسلمة الأساسية لنظرية روجرز هي أن الفرد يتصرف بشكل يتسق مع مفهومه عن ذاته . وينشأ مفهوم الذات مما يسمى « بالتفاعلات التقويمية » مع الآخرين ، وبخاصة من كان منهم ذا مكانة خاصة كالأبوين . ويقرر روجرز (١٩٥١) أن الدافع أو الحافز الأكثر أهمية هو « أن نحقق ذواتنا ونشد من أزرها ونتعهدها بالرعاية والعناية » (ص ٤٨٧) . وهكذا ، فإن كل ما يلزم لتفسير سلوك النمط - أ هو مجموعة من الظروف تؤدي بالمرء إلى أن يعتبر نفسه «كفئا» (وبخاصة فيما يتعلق بالوقت) « منجزا » « شديد المراس » « لا ينثني » « متعدد المواهب » وما إلى ذلك . وأن المشاعر عن الذات لا يحب أن تتلو مشاعر بالتفاهة أو قلة القيمة أو الشعور بأن احترام الفرد لذاته وتقديره لها متوقف على الانجاز . وفي الحالات التي يحس فيها الفرد بذلك ، فإن سلوك صاحب النمط - أ يمكن اعتباره استجابة تعويضية تمزج بين خاصية إيجابية واحدة على الأقل (الثقة) وأخرى سالبة (ضعف تقدير الذات مما يتطلب شكلا من أشكال التعويض) . إلا أن نظرية روجرز قادرة أيضا على تفسير سلوك النمط - أ في غياب السلبيات ، أي دون وجود التعويض في أساسه . ذلك لأن من سبق اقتباسهم من المؤلفين (مثل هانس (١٩٨٣) وماتيوز (١٩٨٠) قد اقترحوا أن هناك جوانب تكيفية في سلوك النمط - أ ومن هنا يكون من المريح وجود نظرية واحدة على الأقل تسمح بقيام أنواع من السلوك ، مشابهة لسلوك النمط - أ يكون فيها الانحراف عن المعيار النفسي أميل إلى الاتجاه الإيجابي منه إلى الإتجاه السلبي .

الميكانيزمات الكامنة وراء الربط بين سلوك النمط - أ وأمراض الشريان التاجي

بعد تناولنا لدور النظرية النفسية في تفسير نشوء السلوك الظاهر للنمط - أ ، نتعرض بعد ذلك لعلاقة النظرية النفسية بالميكانيزمات النفسية المحتملة التي قد تربط النمط - أ بأمراض الشريان التاجي . وهناك نظريتان أساسيتان في كيفية

إفساد ميول النمط ـ أ للشرايين التاجية . الأولى هي نظرية اليوت وبيويل « الميكانيكية » (١٩٨٣) وتقول بأن الشدة التي يتعرض لها بعض الأفراد (بما في ذلك الشدة التي يولدها أصحاب النمط ـ أ بأنفسهم) تسبب اختناقات في المناطق المحيطية من الجسم ، وفي الوقت نفسه تزيد من معدل ضربات القلب . وهذا يعني أن هؤلاء الأفراد يحاولون نقل المزيد والمزيد من الدم خلال أوعية تتقلص أو تضيق باستمرار . ويشبّه اليوت وبيويل هذا الموقف بسيارة نضغط فيها على الفرامل والبنزين في وقت واحد ، وهذا يؤدي إلى ما يسمى « بالانهاك (wear & tear) للشرايين التاجية ، الذي يؤدي بالتالي إلى التلف الناشىء عن تصلب الشرايين والمسؤول عن معظم أمراض الشريان التاجي . ويطلق على الأفراد الذين يوجد لديهم هذا الميل إلى اختناق الشرايين اسم « أصحاب الطبع الحامي » (hot reactors).

وهناك ميكانيزم آخر لتفسير تأثير سلوك النمط ـ أ على الشرايين التاجية وهو النظرية الكيميائية (المرتبطة بالهورمونات) التي اقترحها باحثون أمثال هافت (١٩٧٤) ورايت (١٩٨٤) ودمبروسكي وويليامز (تحت الطبع) وغيرهم . فبينما ثبت أن ضغط الدم العالي هو عامل خطورة لا شك فيه ، فإن « الطبع الحامي » لم تثبت صلته تجريبيا بأمراض الشريان التاجي ، في حين ثبت وجود صلة بينها وبين الهورمونات مثل الأدرينالين والنورأدرينالين . وأصبح معروفا أن تلك الهورمونات تؤدي إلى تلف عضلة القلب . وبقي علينا أن نبين كيف يمكن لنظرية نفسية أن تفسر استجابة إفراز الكاتيكولامين . ويبدو أن التطويع الكلاسيكي (classical conditioning)* هو نقطة بداية منطقية . (ملحوظة : ربما يوجد تفسير ، ولكني مازلت في انتظار مقال متخصص لشرح نموذج التطويع الكلاسيكي كوسيلة لتفسير سلوك النمط ـ أ) .

ولكي نطبق نموذج التطويع الكلاسيكي ، فما علينا إلا أن نفترض أن المنبه غير المطوع هو حالة « طوارىء » تطلق الاستجابة غير المطوعة أو الطبيعية (مثل إفراز الادرينالين والنورادرينالين وغيرهما من الهرمونات) . أما المنبه المطوع فهو أي مجموعة من المهديات (cues) المرتبطة أو المتزاوجة مع الاستجابات المطوعة المشابهة لحالات الطوارىء . وفي حالة سلوك النمط ـ أ يتم هذا الارتباط أو التزاوج غالبا من خلال تعميم المنبه بدلا من التقديم في آن واحد (أي حدوث المنبه

---

* التطويع هي في رأينا الترجمة الادق لكلمة Conditioning وليس الاشراط كما هو شائع في الكتب العربية انظر (الارشاد النفسي والتوجيه التربوي ، لطفي فطيم وآخرون ، دار المريخ الرياض ، ١٩٨١) . [المترجم]

والاستجابة في وقت واحد أي ما نسميه التآني - المترجم) . ونظرا لأن الجهاز العصبي المركزي لا يفرق بين الخطر الواقعي والمتوهم ، فإن كل ما هو مطلوب لتعميم المنبه هو اتجاه حقيقي نحو العمل أو ما شابه من المنبهات المرتبطة بالإنجاز ، والأمثلة على ذلك كثيرة « النشر أو الموت » «ستنبذني أمي أو زوجتي ما لم أنجح » .. الخ .

ولكن لماذا تكون هورمونات النمط - أ حارقة أو جارحة أو كاشفة لجدران الشرايين التاجية ، في حين أنه لا يوجد أي دليل على أن استجابة « القتال أو الهرب » لها نفس الأثر الجارح في ظل الظروف العادية ؟ بل إن بعض الاستجابات المفرزة للأدرينالين كالركض يبدو أنها مفيدة من وجهة نظر أطباء القلب ؟ والإجابة ذات جانبين ، فأولا ، قد يكون للأمر علاقة بها إذا كان التنشيط أو الإثارة (وبالتالي إفراز الأدرينالين وغيره من الهورمونات) متقطعا أو مزمنا (أي منذ الاستيقاظ في الصباح حتى الرقاد في المساء سبعة أيام في الأسبوع) ، وثانيا يحتمل أن الأدرينالين الذي يفرز في ظل ظروف مقصودة (كالجري أو القتال) يتم تمثله بطريقة مختلفة عن الأدرينالين الذي يفرز عندما لا يكون في الإمكان القيام باستجابة عضلية كبيرة . ففي هذه الحالة الأخيرة ، يترك الفرد في حالة من « الشك الهائم » (suspended suspense) ، التي سبق الإشارة إليها ، والتي قد تجعل أيض الهورمونات «يتم» بطريقة مختلفة وبالتالي تتقاضى ثمنا باهظا (ومؤذيا) من الجدران الرقيقة المبطنة للشرايين التاجية .

● ● ●

وهذا التفسير يسمح أيضا بتقديم أساس منطقي لمسألة لماذا يكون الغضب المكتوم (الموجه إلى الداخل) أكثر ملاءمة لتوليد مشاكل الشرايين التاجية من الغضب المكشوف المعبر عنه . (وهو ما اقترحه بعض الباحثين ..) . ففي تلك الحالة الأخيرة (الغضب المكشوف) يكون هناك قدر أقل من « الشك الهائم » والذي يحتمل أنه يغير من أيض الهورمونات الضارة بالقوة (potentially) . كذلك فإن الركض قد يكون صحيا لأنه إما أن ينهك الفرد أو يلينه بحيث أن الإفراز الكلي للهورمونات ينخفض على مدار فترة أطول من الوقت (لبقية اليوم مثلا) .

وهذا الاختلاف في كيفية أيض الهورمونات خلال نشاط العضلات الكبيرة في مقابل نشاط العضلات الصغيرة أو انعدام النشاط قد يكون أيضا مفتاحا لفهم لماذا تنشأ لدى أصحاب الياقات البيضاء (موظفي المكاتب) أمراض الشريان

التاجي المرتبطة بالنمط ـ أ ولا تنشأ لدى أصحاب الياقات الزرقاء (العمال) . ذلك أن العمال عندما يستثارون أو ينشطون فهم أقرب إلى الاستجابة بنشاط العضلات الكبيرة (العمل الشاق) وهو أكبر شبها بما نشأ من أجله استجابة القتال ـ الهرب بادىء ذي بدء . وهكذا فإن هذا النشاط للعضلات الكبيرة يثير استعدادا أو تهيؤا أكثر صحة أو سلامة من الظروف الأيضية للسيطرة على الهورمونات ذات القدرة التسممية الكامنة .

وإذا فكرنا أي النظريات النفسية أفضل لتفسير استجابات القتال ـ الهرب وما شابهها لن نجد أمامنا إلا النظرية السيكوبيولوجية الناشئة . فإذا كان الميل نحو ارتفاع مستوى الهورمونات التي تهمنا ناشئا عن المبالغة في عدد استجابات القتال ـ الهرب ، فإننا نكون عندئذ بصدد ميل إلى الاستجابة التي يقوم بنقلها (DNA) . ويصبح السؤال الرئيس هو : لماذا تكون استجابات القتال ـ الهرب عند بعض الأفراد سهلة الاستثارة بمنبهات مرتبطة بالعمل ؟ هل يكون هؤلاء الأفراد مهيئين خلقيا لسلوك النمط ـ أ بسبب أن غددهم الصماء مفرطة النشاط ؟ لم لا ؟!!

وحتى يومنا هذا فإن من المسلم به أن مركز الضعف الوراثي لأمراض الشريان التاجي يستقر في جدران الشرايين التاجية أو ربما في الميكانيزمات المتعلقة بالكولسترول . ولكن إذا كان هناك شيء يمكن أن يسمى « دونية العضو » organ inferiority (كما اقترح أدلر عام ١٩١٧) ، فسوف يكون هناك أيضا ما يمكن أن يسمى « تفوق العضو » (organ superiority) في شكل جهاز بالغ القوة منتج للهرمونات . ويكون المكون الشامل أو النمط الأول العام (Archtype) من اللاشعور الجمعي في نظرية كارل يونج هو طريقة أخرى في النظر إلى الغرائز المستقرة في الغدد الصماء والتي ينقلها (DNA) ، التي تفسر الفروق أو الاختلافات الأثنية والثقافية بل والفردية في ميول سلوك أصحاب النمط ـ أ ومن المفروض أن يشمل هذا أيضا الميل إلى إستجابات القتال ـ الهرب التي تطلق استجابة للمنبهات المتعلقة بالعمل .

ولدي فكرة أخيرة (قياساً على ما تقدم) بشأن كيف يمكن للجوانب الهورمونية في استجابة القتال ـ الهرب أن تصبح عادة : فعندما يكون للمواد الكيميائية يد في الموضوع فنحن نسمي العادة بأنها « إدمان » . والأدرينالين وغيره من الهورمونات هي مواد كيميائية ومن المحتمل أن بعض أصحاب النمط ـ أ هم في الواقع « مدمنون لهورموناتهم » فإذا أصبح المرء معتمدا على منبهات مثل الكافيين والنيكوتين التي تنتج استجابة فسيولوجية مشابهة لتلك الناتجة عن الأدرينالين ،

ألا يصح لنا القول بأن المرء يصبح مدمنا للأدرينالين نفسه ؟ لماذا يتحتم على أصحاب النمط ـ أ أن يظلوا طول الوقت منشغلين بعمل ما ؟ (الأنهم لا يرتاحون للبقاء بلا عمل !) ولماذا يحسون بعدم الارتياح (أو الانزعاج) . كما تقول بعض التقارير ، عندما يستولي عليهم النوم أو عندما يبدأون في الاستيقاظ ؟ ألا يمكن اعتبار ذلك أعراضا انسحابية ؟ وربما كان هذا هو السبب في أن أصحاب النمط ـ أ يميلون إلى « الانشغال بالعمل » حالما ينهضون من فراشهم في الصباح . فالنهوض من الفراش عندهم يماثل القهوة أو السيجارة عند الآخرين ، أي طريقة لفتح الباب أمام الأدرينالين وبالتالي تخليص أنفسهم من الإزعاج الناشيء عن الانسحاب .

استراتيجيات البحث الملائمة

ولنأت الآن إلى سؤالنا الثالث ، ما هي أنواع البحوث المعتمدة على المعلومات التي تقترحها شطحاتنا النظرية ؟ ويتناول هذا القسم أنواع الدراسات التي ، وجدتها في ظروفي ، أكثرها مدعاة للانتباه .

في هذه المرحلة من شيوع المسألة (Zeitgeist) ، نحتاج بوضوح إلى تجربة حاسمة تفرق بين البناءين النظريين المفترضين ، أي بين الإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن المتوجه إلى انجاز المهام من ناحية ، وبين الغضب والعدوان الموجه إلى الأشخاص المحيطين بالمرء من ناحية أخرى . ويمكن معالجة هذه المسألة بطريقتين . الأولى هي نوع من الاصطياد التجريبي بقصد استبعاد احد الفرضين ، على أساس أن الساحة ، أي سلوك النمط ـ أ ، لا تتسع للاثنين . وتفترض أن واحدا منهما وليس الاثنين قد يكون المكون النشط «الحقيقي» . أما الطريقة الثانية فتفترض أن الساحة تسع الاثنين معا ، فكلا الفرضين له دور يقوم به ، إما معا وإما كل على حدة . وعلى أي حال فإن التحيز لبعض مكونات المنط ـ أ (وليكن الغضب أو نفاد الوقت أو غير ذلك) يبدو ملائما في هذه الفترة .

وبالنسبة لي ولزملائي فقد أوحي هذا الوضع بأربع استراتيجيات على الأقل للبحث لكل منها إمكاناته المثمرة : (١) ـ دراسة مكونات النمط ـ أ ومتلازماتها (بحيث تقدم صورة أوضح للنمط ـ أ ومكوناته النشطة) . (٢) ـ تكوين أدوات جديدة لقياس المكونات المنفصلة (والتي يفترض أنها نشطة) للنمط ـ أ (٣) ـ بحوث تنبؤية تصمم لتصل ما بين المكونات النشطة وأمراض الشريان التاجي . (٤) ـ بحوث تتناول الميكانيزمات وترمي لتفسير العملية الفسيولوجية التي تربط مكونات النمط ـ أ بأمراض الشريان التاجي .

تسعى الاستراتيجية الأولى (المكونات والمتلازمات) إلى توضيح صورة المكونات النشطة عن طريق التحليل العاملي أو غيره من الأساليب الارتباطية . كما تسعى إلى تعيين متلازمات معينة للنمط ـ أ ، التي ولو أنها ليست جزءا من الشكل التقليدي له ترتبط به وقد تمتلك درجة من خطر الاصابة بأمراض الشريان التاجي في حد ذاتها .

ويعتبر مفهوم التحكم (Control) مثالا لأحد هذه المتلازمات . فمن ناحية تعتبر بعض أشكال التحكم (مركز التحكم locus of control) عند روتر (١٩٦٦) (الرغبة في التحكم عند (بيجر وكوبر ١٩٧٩) (desirability of control) تكيفية. ومن ناحية أخرى توحى الملاحظات الكلينيكية أن أصحاب النمط ـ أ يميلون إلى التحكم بصورة غير مناسبة في الآخرين وبخاصة في العمل وفي الأسرة وفي المواقف الاجتماعية . أي أنه يبدو أنهم يحملون على عاتقهم أكثر من نصيبهم من مسؤولية اتخاذ القرار بالنسبة للمجموعة .

ويعتبو تعبير عدم القابلية للتبادل(nonmutuality) ، أنسب وصف لهذا الاتجاه . وفي أحد دراساتنا الأولى (Bussman , Friedman, Walker, Wright 1987) بحثنا العلاقة بين النمط ـ أ والأنواع الثلاثة من التحكم التي أشرنا إليها باستخدام عينة من غير المرضى بأمراض الشريان التاجي للقلب (CHI) . وبينت النتائج عدم وجود علاقة بين سلوك ـ النمط ا ـ وبين كل من مركز التحكم والرغبة في التحكم . بينما أظهرت نفس النتائج أن الشكل اللاتوافقي من التحكم الاجتماعي « عدم القابلية للتبادل » متلازم لسلوك النمط ـ أ وقادر بالقوة على الأقل على أن يصبح مكونا نشطا في نشوء أمراض الشريان التاجي . وهذا الاحتمال في زيادة المخاطرة بحدوث أمراض الشريان التاجي لبعض أشكال التحكم يدعمه ما سبق أن اكتشفه ويس وستون وهاريل (١٩٧٢) وكونترادا وزملاؤه (١٩٨٢) من زيادة تدفق الأدرينالين والنورأردينالين لدى كل من الفأر والإنسان ، وارتباطه « بمحاولات » السيطرة على الأحداث المركبة في البيئة

وفي دراسة تالية استخدمت فيها عينة من مرضى الشرايين التاجية (رايت ١٩٨٧) تم اختبار العلاقة بين أنواع التحكم التي سبق ذكرها وبين أمراض الشرايين التاجية . وأردنا منها أن نرى إذا كانت النتائج التي حصلنا عليها من عينة يفترض أنها تحتوي نسبة كبيرة من الايجابية الزائفة (أساتذة جامعات لا

يوجد في تاريخهم الطبي المسجل ما يدل على الإصابة بأمراض الشرايين التاجية) تختلف عن تلك التي حصلنا عليها من جماعة يفترض أنها تحتوي نسبة أكبر من الإيجابية الحقيقية (مرضى الشرايين التاجية من متوسطي العمر) . وكانت نتائج الدراسة الثانية مطابقة في جوهرها لنتائج الأولى : فلم تكن هناك علاقة بين النمط ـ أ والأشكال التوافقية للتحكم ، ولكن كانت هناك علاقة دالة بين سلوك النمط ـ أ والأشكال سيئة التوافق من التحكم الاجتماعي (أي اللاتبادليـة) . وقد استخدمنا لقياس هذا المتغير الأخير مقياس طريقة الحياة The Way of Life Scale ('WOL') الذي وضعه رايت (١٩٨٥) . ويجري الآن ضبط وإحكام هذا المقياس من الناحية السيكومترية ، ويمكن طلبه من المؤلف .

ولما كانت الدراستان اللتان أشرنا إليهما آنفا قد اعتمدتا على مقياس للتقدير الذاتي وهو (JAS) لتقويم سلوك النمط ـ أ فقد بقيت هناك إمكانية متاحة هي أن شكلا من أشكال التقبل الاجتماعي (social desirability) يمكن أن يفسر النتائج . فهل الأفراد المستعدون للاعتـراف أنهم متلاعبـون اجتماعيـا (socially manipulative) أكثر استعدادا للاعتراف بأنهم من النمط ـ أ ؟ ولكي نزيد تلك الإمكانية إيضاحا بدا لنا أنه من الأصوب أن نقيم العلاقة بين اللاتبادلية أو التحكم الاجتماعي غير الملائم وبين ميول ـ النمط ا ـ باستخدام كلٍ من — SI) (JAS وهو مشروع نقوم به حاليا .

ومثال ثان لنوعية استراتيجيات البحث في المكونات والمتلازمات هو ما نقوم به لمقارنة عدة متغيرات (بدلا من مجرد النمط ـ أ واجراءات التحكم كما فعلنا في الدراسات الثلاث السابقة) . فإذا طبقنا مقاييس لعدة متغيرات نشك في أنها مكونات فعالة للنمط ـ أ على عينة واحدة ، فإن معالجة البيانات الناتجة بواسطة التحليل العاملي ستساهم شيئا فشيئا في توضيح الصورة بحيث تحدد لنا بدقة أي المتغيرات ستندمج في بناء (Construct) واحد وأيها ستكون أبنية منفصلة . وقد استخدمت معظم بحوث التحليل العاملي للنمط ـ أ مقاييس خاصة به فقط أي SI) (JAS — . وكما ذكرنا ، سابقا فإن تلك المقاييس تميل إلى إظهار عامل مفرد يتكون من النمط ـ أ الغضب .

وشعرنا أن صورة النمط ـ أ قد تصبح أكثر وضوحاً إذا استعملنا التحليل العاملي لتحليل المعلومات المستقاة من (JAS) و (SI) بالإضافة إلى مقاييس أخرى للمكونات المحتملة للنمط ـ أ مثل مقاييس سبيلبرجر للسمة / الحالة (١٩٧٩)

ومقاييس أخرى للغضب والتحكم . وأدى هذا إلى نشوء دراسة ذات ثلاث مراحل .

ففي الدراسة (المرحلة) الأولى قورنت عدة مقاييس شملت ، مقاييس تقرير ذاتي للوجدانات السالبة (الغضب والقلق) ، التحكم التكيفي (مركز التحكم والرغبة في التحكم) والتحكم سيىء التكيف ، (التحكم الاجتماعي غير الملائم أو اللا تبادلية) بالإضافة إلى مقياس للنمط ـ أ (اختبار HAS مقسما إلى مقاييسه الأربعة الفرعية للنمط ـ أ وهي : السرعة ونفاد الصبر والانشغال بالعمل والطموحات المتأججة الحارقة . وأعطانا التحليل العاملي عاملين ، أحدهما مألوف نوعا وهو عامل سلبي يتكون من سمة الغضب وسمة القلق للنمط ـ أ (بدون المقياس الفرعي رقم ٣ في JAS الانشغال بالعمل) . أما العامل الثاني فقد كان يبدو عليه الايجابية ويتكون من المقياس الفرعي ٣ في (JAS) (الانشغال بالعمل) بالإضافة إلى حالة وسمة حب الاستطلاع . وفسرت هذه البيانات باعتبارها تؤيد فكرة أن النمط ـ أ هو (١) بناء نظري متعدد الأوجه . (٢) وأنه يحتوي ، كما اقترح بعض الكتاب مثل هانسون (١٩٨٣) ، وماتيوز (١٩٨٢) مكونات ايجابية وسلبية .

وفي الدراسة الثانية طبقت الاختبارات نفسها على مجموعة من مرضى الشريان التاجي بالمستشفيات ، وحصلنا على نتائج مطابقة في الأساس لما حصلنا عليه في الدراسة الأولى . ومن الجدير بالملاحظة أنه في هذه الدراسة الثانية حصلنا على البناء العاملي نفسه عندما أعدنا تطبيق المقاييس النفسية على مرضى الشريان التاجي وطلبنا منهم أن يجيبوا على الأسئلة في حالة لو لم يكتشفوا أنهم مصابون بأمراض القلب . بل لقد حصلنا على البناء العاملي نفسه ـ وهذا هو المدهش ـ عندما طبقنا نفس الاختبارات على زوجات المرضى وطلبنا منهن ئأعطاء تقديرات لأزواجهن .

وفي المرحلة الثالثة لجهودنا كي نحلل بواسطة التحليل العاملي سلوك النمط ـ أ والمقاييس المرتبطة به (الدراسة الثالثة) نقوم الآن بمقارنة المتغيرات نفسها ، ولكن مع المعلومات المستقاة من المقابلة المقننة ومن مقاييس التقدير الذاتي . ونحن نفترض هنا أنه لن يتكرر التركيب العاملي نفسه ، وإنما ستظهر عوامل غير عالية الارتباط من التقدير الذاتي والملاحظة الكلينيكية (SI) . فإذا حصلنا عليها فستدعم تلك النتائج وجود عوامل تفضيل اجتماعي أو إنكار تعمل في حالة استخدام اختبارات التقارير الذاتية (self report) لقياس مكونات النمط ـ أ .

تطوير أدوات جديدة

سأحاول فيما يلي أن أعرض بعض الدراسات التي قمنا بها فيما يتعلق باستراتيجية البحث الثانية ألا وهي تطوير أدوات القياس . لقد اتضح لنا منذ البداية ضرورة إنشاء مقياس جديد (WOL) يمكّننا من دراسة متلازمات النمط ـ أ التي تهمنا . ومع ذلك فإن نقص الأدوات لم يكن قاصرا على المتلازمات المتوقعة للنمط ـ أ ، بل إنها مشكلة أحاطت أيضا بجهودنا في بحث المكونات ذات التاريخ المحترم كالغضب والإحساس بنفاد الوقت .

إلا أن وجود مقاييس في مجال الغضب كان أقل إشكالا . فقد وجد عدد معقول من المقاييس النفسية لقياس الغضب قبل ازدهار البحوث المتعلقة بالنمط ـ أ . مثل مقياس (Hostility) الذي استمده كوك وميدلي (١٩٥٤) من أختبار مينوسوتا المتعدد الأوجه للشخصية ، ومقاييس الحالة/ السمة للغضب التي وضعها سبيلبرجر وزملاؤه (١٩٧٩) . وقد وضع هؤلاء أخيرا (١٩٨٥) مقياسا للغضب الموجه إلى الداخل . ولكن لم يوضع قط أي مقياس نفسي للإحساس بنفاد الوقت أو النشاط المزمن . فإذا كنا نريد بحثا ذا قيمة في هذين المكونين للنمط ـ أ فلابد من إيجاد أختبارات متينة وخالية من التحيز لقياسهما (وذلك بالنظر إلى ظواهر القبول الاجتماعي والإنكار التي ذكرناها من قبل) . ولسوء الحظ فإن كلا من JAS ، SI لا يحويان إلا عددا صغيرا (SI= 12, JAS = 20) من الفقرات الخاصة بالإحساس بنفاد الوقت ، بل ويحويان عددا أقل من فقرات النشاط المزمن SI= 2 (JAS = 9) .

ولكي نعالج هذه المشكلة فكرنا أولا في إمكان استخدام إجراءات لا تنتمي إلى القياس النفسي . فقام كولسون ورايت (١٩٨٦) بمراجعة الكتابات النفسية الموجودة في محاولة لنشر كتالوج (بيبلوجرافيا .. مع تعليقات تقويمية) للإجراءات التي لا تنتمي للقياس النفسي للإحساس بنفاد الوقت . وتم تعيين ٥ إجراءات : (١) الوصول إلى مكان اللقاء في الموعد (٢) تصور السلوك في حالة موعد نهائي لعمل ما . (٣) ملاحظة سلوك قيادة السيارة والتعامل مع إشارات المرور (٤) تقدير الزمن . (٥) زمن الرجع .

وبعد ذلك اتجه فريقنا البحثي الصغير في جامعة أوكلاهوما الى معالجة موضوع الإجراءات السيكومترية . ولما كان لا يوجد في الوقت الحالي مقاييس (غير تلك الفقرات التي ذكرناها في JAS, SI) لقياس الإحساس بنفاد الوقت أو النشاط

المزمن ، فقد قام ماكوردي ورايت (١٩٨٦) بدراسة أدت إلى وضع مقياس من ١٠٦ فقرة للاحساس بنفاد الوقت ، ومقياس من ٢٧ فقرة لقياس النشاط المزمن . وتجرى الآن دراسات للارتقاء بهذين المقياسين (أي حساب درجة الاعتداد (relaiability) والصدق والتركيب العاملي) . ويمكن للباحثين الحصول على نسخة من هذه الاختبارات إذا كتبوا إلى المؤلف .

وكما سبق لنا القول ، فإن مشكلة القبول الاجتماعي وإنكار ميول النمط ـ أ قد تكون شديدة الوطأة . إذ يبدو أنه توجد قابلية أو استعداد هائل لدى الكثيرين من أصحاب ـ النمط ـ ب أن يصفوا (بكل إخلاص) ميولهم التي تجعلهم من أصحاب النمط ـ أ وبالمثل هناك استعداد كبير من جانب الكثيرين من أصحاب النمط ـ أ لإنكار أنواع سلوكهم التي تدرجهم في عداد ذلك النمط . وهكذا فإن أي أداة سيكومترية ترمي إلى قياس ظاهرة النمط ـ أ قد تستفيد من شكل من أشكال التحكم في التحيز .

• • •

وكانت محاولتنا الأولى للتحكم في ميول التحريف لدى أصحاب النمط ـ أ هي إيجاد مقاييس من نوع الاختيار الحتمي ، المقاوم للتحيز لقياس الإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن . واتبعنا الطريقة نفسها التي ابتكرها ويرى وفراير (١٩٤٩) . فجمعنا مجموعة من المتلازمات الصادقة لمحك ما (وكان في دراستنا الأولى هو الإحساس بنفاد الوقت) . وتأكد لدينا تقبلها الاجتماعي ، وكذلك التقبل لمجموعة أخرى من الفقرات التي لا تمتلك أي صدق لتقويم الإحساس بنفاد الوقت . وقد فعلنا ذلك بأن طلبنا من مجموعة كبيرة من أصحاب النمط ـ أ من الذكور أن يضعوا تقديرين لكل تلك الفقرات على مقياس ذي ست درجات من نوع ليكرت . وكان أحد التقديرين هو درجة الاستعداد لكتابة عبارة يصفون بها أنفسهم (وهو المؤشر المسجل الدال على التقبل الاجتماعي المرغوب للفقرة) . وكان التقدير الثاني هو مدى صحة انطباق العبارة عليهم (التقبل الاجتماعي الفعلي الواقعي للفقرة) . وقرنّا بين الفقرات التي تمتلك درجات متساوية من التقبل المرغوب والفعلي ولكن تختلف درجات صدقها ، قرنّا بينهم في أزواج بحيث يضطر المستجيب إلى الاختيار بينهما ، وهكذا كان على المستجيب أن يصنف نفسه فإما أن يكون من النوع الذي يسوقه الوقت بسياطه أو العكس ، دون أن يتدخل التقبل الاجتماعي المرغوب أو الإنكار في الاختيار .

ونقوم حاليا بتطوير هذا الاختبار ، وآخر مماثل له لتقويم النشاط المزمن وسيطرحان للتداول مستقبلا . وفي الطريق أيضا مشروع لوضع مقياس مشابه خال من التحيز للمفهوم الشامل للنمط ـ أ ، باستخدام فقرات مشابهة لمقياس جنكنز مقرونة بفقرات غير صادقة ولكن متساوية معها في التقبل الاجتماعي المرغوب والتقبل الواقعي . وسيطرح أيضا للتداول في المستقبل .

وهناك جانب ثالث لخطتنا في تطوير المقاييس يتضمن ابتكار أسلوب جديد للمقابلة المقننة . فقد أثبتت أساليب المقابلة المقننة بوضوح أنها الأفضل لتقويم ظاهرة نموذج سلوك النمط ـ أ (TAB - P) (Matthews, 1982) . إلا أننا عندما واجهتنا مسائل الاحساس بنفاد الوقت ، والنشاط المستمر ، والعداء فشل اختبار المقابلة المقننة (SI) (Rosenman, 1978) التقليدي في أن يكون أداة قوية وفعالة (من حيث عدد الفقرات) . والواقع أنه لا يحتوي سوى ١٢ فقرة فقط يمكننا أن نستخلص منها شيئا عن الإحساس بنفاد الوقت ، وفقرتان فقط للنشاط المستمر و٤ للغضب الموجه إلى الخارج و٥ للغضب الموجه إلى الداخل .

ولكي نعالج تلك المشكلة وضع رايت وشميدت وولكر (Wright, ١٩٨٦ Schmiat& Walker 1986) ملحقا لاختبار المقابلة المقننة (SI) صمم ليساعد على تقويم الاحساس بنفاد الوقت ، والتنشيط والغضب الموجه للخارج والغضب الموجه للداخل . وقد اختبر هذا الملحق في دراسة استطلاعية على حوالي مائة مفحوص كان ٦٥ منهم تقريبا من أصحاب أمراض الشريان التاجي (CHD) . وقد استبعدت ثلاثة من الفقرات الأربع والعشرين الملحقة على أساس أنها لا تضيف شيئا إلى قدرة المقياس الأصلية . وكان الاختيار النهائي للفقرات يتم على أساس اتفاق اثنين من المطبقين (القائمين بالمقابلة) على أن تلك الفقرة الإضافية تضيف شيئا هاما لتقويم الاحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن والغضب الموجه للداخل والخارج .

الأبحاث التنبؤية

بعد أن لخصت أعمال مجموعة جامعة أوكلاهوما في كلا الاتجاهين ، المكونات والأدوات ، سأحاول الآن تلخيص جهودنا في اتجاه التنبؤ . والهدف الواضح لهذه الجهود بالطبع ، هو : أي المكونات الفعالة قادر على التنبؤ بأمراض شرايين القلب التاجية أفضل من المقاييس الشاملة لنموذج سلوك النمط ـ أ . فإذا أثبتت مقاييس المكونات الفعالة أنها أفضل في التنبؤ ، فالمفترض أن يرجع ذلك إلى أنها تحتوي نسبة أقل من الخطأ المرتبطة بالمكونات الخامدة أو حتى الصحية .

ومثل هذا النوع من الأبحاث التنبؤية - من الناحية المثالية - يجب أن يتضمن دراسات مستقبلية طولية . ولكن لسوء الحظ فإن متطلبات الوقت والانتقالات (Logistics) لمثل هذه الدراسة تفوق قدرة المجموعة . وعادة ما تقتصر هذه الإمكانات الضخمة على البحوث الأكثر طموحا مثل دراسات فارمنجهام أو وست كولابوراتيف ، وهكذا لم يكن أمامنا إلا الاعتماد على جهودنا المتواضعة .

وقد حاولت البحوث التقليدية ، في غياب إمكان القيام بدراسات طولية تتبعية ، أن تربط بين منبىء (مؤشر) معين وأمراض الشرايين التاجية ، فتفحص عدد مرات تكرار خاصية معينة (مثل ارتفاع ضغط الدم) لدى مرضى الشريان التاجي بالمقارنة بمرضى لا يعانون منه . وتعتبر دراسة روزنمان وزملاؤه (١٩٧٥) مثالا نموذجيا لهذا الأسلوب .

فإذا افترضنا أن بعض مكونات النمط - أ لها القدرة على إحداث أمراض الشريان التاجي في غياب عناصر المخاطرة الأخرى ، فلنا أن نتوقع حضورا قويا لبعض المكونات الشبيهة بنموذج سلوك النمط - أ لدى مرضى الشريان التاجي الذين لا توجد لديهم العناصر التقليدية من التدخين وتاريخ الأسرة ، وما إلى ذلك . ولقد تدعم هذا المنطق بأحد جوانب دراسة روزنمان الذي بين أن تأثير سلوك النمط - أ في خلق الاستعداد للإصابة بأمراض الشريان التاجي لا يرتبط بعوامل المخاطرة الفسيولوجية التقليدية .

وقد حاولنا أن نختبر احتمال وجود فئتين من مرضى الشريان التاجي ، الأولى يوجد لديها عوامل المخاطرة التقليدية والثانية لا توجد لديها تلك العوامل . فأتينا بأربعين مريضا من الذكور تتراوح أعمارهم بين ٤٠ الى ٥٥ عاما وكانوا من مرضى وحدة العناية بمرضى الشريان التاجي في مركز طبي كبير ، وطبقنا عليهم التقرير الذاتي وتقرير الزوجة ومقاييس المقابلة المقننة للكشف عن النموذج الشامل للنمط - أ . كما طبقنا عليهم أيضا التقرير الذاتي وتقرير الزوجة ومقاييس المقابلة المقننة للكشف عن احتمال وجود المكونات الفعّالة للإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن والغضب الموجه إلى الداخل والغضب الموجه إلى الخارج ، وحسبنا معاملات ارتباط كل واحد من هذه المقاييس بالمخاطر السبعة المتفق عليها بالنسبة لأمراض الشريان التاجي : التاريخ العائلي والتدخين ، تاريخ من ارتفاع نسبة الكوليسترول في الدم وتاريخ من ارتفاع ضغط الدم ، وطريقة في الحياة ليس فيها حركة ونشاط ، وملاءمة الغذاء ، واختلال التحكم في الوزن . وبالإضافة إلى ذلك حُسب معامل ارتباط لكل درجة من درجات المكونات الفعالة في سلوك النمط - أ مع

درجة شاملة للمخاطرة حصلنا عليها بجمع الدرجات الموزونة للمخاطر السبعة وفقا لطريقة اقترحها روزنمان وزملاؤه (١٩٧٥) وأخيرا أجرينا تحليلا عامليا لكل درجات الارتباط هذه .

وكانت النتائج مثيرة إلى أقصى حد . فقد أشارت إلى وجود خمس طرق منفصلة على الأقل للوصول إلى أمراض الشريان التاجي : (أ) مخاطر موروثة (مرتبطة بالتاريخ العائلي) . (ب) مخاطر يخلقها الفرد (ولكن ليست من النمط ـ أ) مثل التدخين وفقر الغذاء وقلة النشاط الجسمي . (جـ) توجيه الغضب إلى الداخل . (د) توجيه الغضب إلى الخارج مع اقترانه بالإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن . (هـ) نموذج سلوك النمط ـ أ التقليدي وفقا لروزنمان وفريدمان . كما بدا أيضا وجود طريق سادس محتمل يتكون من التفاعل بين السمنة على أساس من قلة النشاط والغضب الموجه إلى الداخل .

وبالنسبة لخطر التعرض لأمراض الشريان التاجي على أساس من صفات مشابهة لسلوك النمط ـ أ ، ظهر أن الغضب الموجه إلى الداخل هو المكون الأساسي . والواقع أن أقوى عاملين من العوامل المشابهة لسلوك النمط ـ أ كانا : (أ) الغضب المتحكم فيه والإنكار ، (ب) الغضب الموجه إلى الداخل والمتحكم فيه عن وعي (وتوجد هذه السمة لدى الأفراد الذين يدركون ما يعملون ولكن إما أن يحسوا بأنه من غير اللائق أن يعبروا عن غضبهم أو أنهم لا يستطيعون التعبير عنه) . أما العامل القوي الثالث فكان الغضب الموجه إلى الداخل والمقترن بالإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن .

وكان العامل الرابع هو النموذج التقليدي لسلوك النمط ـ أ وفقا لروزنمان وفريدمان . وهكذا بيّن التحليل العاملي وجود نوعين من المكونات الفعالة (الغضب الموجه إلى الداخل ، والإحساس بنفاد الوقت مع الغضب الموجه إلى الخارج) تميزا عن النمط ـ أ الشامل . وبدا أن هذين العاملين أكثر ارتباطا بأمراض الشريان التاجي (CHD) من النمط ـ أ الشامل ، مع الاستقلال عن عوامل التعرض للخطر التقليدية كالتدخين والتاريخ العائلي وما إلى ذلك .

وخلافا لما قلته قبل ذلك عن التشابه بين الغضب والإحساس بنفاد الوقت ، ظهر أن الغضب الموجه إلى الداخل والإحساس بنفاد الوقت يميلان إلى الانفصال في عاملين متمايزين . وبدا أيضا ـ وياللدهشة ـ (حيث كنا مبهورين إكلينيكيا بدور الإحساس بنفاد الوقت) أن الغضب الموجه إلى الداخل هو المكون الأقوى . إلا

أنه ، ووفقا لتوقعاتنا السابقة ، اجتمع الغضب الموجه إلى الخارج والإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن في عامل واحد .

ويبدو ـ وفقا للمعلومات السابقة ـ أن نموذج سلوك النمط ـ أ التقليدي وفقا لروزنمان وفريدمان كان تجميعا من مكونين على الأقل (الغضب الموجه إلى الداخل في مقابل الإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن) لا تجمعهما ببعضهما البعض علاقة جوهرية . وبدا أن الغضب الموجه إلى الداخل هو الممهد الأكثر شيوعا ويحتمل أنه الأقوى أيضا لحدوث أمراض الشريان التاجي (CHD) . وهذا هو ما يفسر حصولنا على عوامل منفصلة لكل من : (١) الغضب الموجه إلى الداخل ، و(٢) الغضب الموجه إلى الخارج/ الإحساس بنفاد الوقت/ النشاط المزمن ، (٣) نموذج سلوك النمط ـ أ التقليدي . والحالات التي يتصادف أن يظهر فيها العاملان ١ ، ٢ معا (ولا يوجد بينهما رابط في الأساس) هي فقط الحالات التي نحصل فيها على العامل رقم٣ (النمط ـ أ التقليدي) .

وأصبح من الواضح ، أنه لكي نتنبأ بأمراض الشريان التاجي ، هناك ثلاث طرق منفصلة لقياس الظواهر الشبيهة بسلوك النمط ـ أ . وتشمل التقارير الذاتية ، والمقابلات المقننة التي سبق الركون إليها وبالإضافة إلى ذلك تقارير الزوجات . وفي حالة أقوى المنبئات الشبيهة بالنمط ـ أ (الغضب المحكوم والإنكار) لم يستطع إظهاره إلا تقديرات الزوجات (لا التقرير الذاتي ولا حتى المقابلة المقننة) ، فهي فقط التي استطاعت التقاط هذه السمة المركبة . كما ثبت أيضا أن تقديرات الزوجات هي أفضل وسيلة لقياس الغضب الموجه إلى الخارج أما المقابلة المقننة (SI) فقد ثبت أنها أكثر نفعا في قياس النمط ـ أ التقليدي والغضب الموجه إلى الداخل . وكان الاثنان ـ المقابلة المقننة وتقارير الزوجات ـ ذا كفاءة متساوية في قياس الإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن . وكان التقرير الذاتي ذا فعالية في تقويم عامل واحد فقط وهو الذي يشمل الغضب الواعي والإحساس بنفاد الوقت والنشاط المزمن .

البحث في الميكانيزمات المرتبطة بالنمط ـ أ

إذا تحولنا من البحث التنبؤي المعتمد على دراسات القياس النفسي ، إلى الفروق الفسيولوجية المتواضعة بين أصحاب النمط ـ أ والنمط ـ ب التي حصلت عليها الدراسات المختبرية (جيننجز وكوهي ١٩٨١ ـ لوفللو وبشكين ١٩٨٠ ـ شيرفيتز ، وبروتون و ليفينثال ١٩٧٨) نجد أنها لا تبرر الحاجة لدراسات

فسيولوجية حية . ونحن نفترض أن الأوضاع المختبرية المفتعلة تساهم في إيجاد أشكال من ضبط النفس لدى أصحاب النمط ـ أ ، لا يحتمل أن توجد في الواقع الحي (وبخاصة في المواقف المرتبطة بالعمل) . وأشك ـ من الناحية العملية ـ في أن البحث في الميكانيزمات الفسيولوجية الكامنة وراء سلوك النمط ـ أ (وهي الجانب الأخير الذي سأتناوله في هذا البحث) سيمكنه أن يصل إلى نتيجة نهائية في ظل الظروف المعملية .

وحتى وقتنا هذا ، فإن جهودنا لدراسة الميكانيزمات الفسيولوجية المحتملة المرتبط بالنمط ـ أ لا تحتوي إلا دراسة استطلاعية واحدة ، قصد منها الكشف عن ميكانيزم العلاقة بين معدل ضربات القلب (HR) وضغط الدم (BP) . فقومنا في ظروف الحياة المعتادة أنماط ضربات القلب وضغط الدم لأصحاب النمط ـ أ ممن يعانون وممن لا يعانون من أمراض الشريان التاجي ، وكذلك أنماط ضربات القلب وضغط الدم لأصحاب النمط ـ ب ممن يعانون وممن لا يعانون من أمراض الشريان التاجي . واخترنا أربعة أشخاص من كل فئة من الفئات الأربع باستخدام المقابلة المقننة (SI) واختبار جنكنز للنشاط (JAS) وكان الفرض هو أنه بالرغم من توقعنا أن الجميع ستزداد ضربات قلوبهم ويرتفع ضغط دمهم في ظل ظروف معينة (مثلا بعد صعود السلم بسرعة) فإن أصحاب النمط ـ أ ستظهر لديهم نفس الأعراض عندما يؤدون أعمالا بسيطة مرتبطة بعملهم كفتح البريد والتحدث في التليفون أو توجيه التعليمات إلى السكرتيرة .

وقد استخدمنا أحد الأجهزة المتنقلة لمختبرات الفضاء (ICR- BP5200) لقياس ضربات القلب وضغط الدم . وكان يمدنا بقراءة كل خمس دقائق للاثنين على مدار الساعة . وسجلنا لكل فرد ثلاث مجموعات من القراءات مجموعتين ليومي عمل ومجموعة ليوم عطلة . وكان الأفراد يسجلون بالصوت وصفا تفصيليا لنوع النشاط الذي يقومون به خلال فترات معينة ، مما يسمح لنا بأن نربط بين ضربات القلب وضغط الدم ونوع النشاط الجسمي أو العقلي أو الانفعالي الذي يقومون به في الوقت نفسه . وبينت النتائج التي حصلنا عليها أنه -لا توجد فروق دالة إحصائيا بين أي من المجموعات سواء في ضربات القلب أو ضغط الدم . كما لم توجد فروق بين المجموعات سواء عند قيامهم بعمل جسماني مجهد أو خفيف أو في درجة وتكرار الاستثارة الانفعالية أو كمية النشاط العقلي المرتبط بالمهمة . ويجري حاليا الإعداد لبحثين آخرين على الطبيعة (invivo) في مجال الميكانيزمات ، للربط بين إفراز الهورمونات ونموذج سلوك النمط ـ أ وذلك لاختبار وجود ما يسمى بالميكانيزم الكيميائي .

وفي ذلك البحث سنحاول في دراسة حية تحديد الفروق بين أصحاب النمط ـ أ وأصحاب النمط ـ ب المصابين بأمراض الشريان التاجي وغير المصابين بها من حيث إفراز أربعة هورمونات . فوفقاً لويليامز وزملاؤه (١٩٨٢) يُتَوقع أن يكون للأدرينالين والنورأدرينالين والكورتيزول و/أو التستوستيرون مثل هذا الأثر . والغرض هو أن قياسات تلك الهورمونات التي سنحصل عليها من الواقع الحي ستميز بوضوح أكبر أصحاب النمط ـ أ المصابين بأمراض الشريان التاجي عن المجموعات الثلاث الأخرى (أصحاب النمط ـ ب وممن يعانون من أمراض الشريان التاجي ومن لا يعانون وكذلك أصحاب النمط ـ أ ممن لا يعانون من أمراض الشريان التاجي) وستقارن تلك العلاقات بدرجة الارتباط بين أمراض الشريان التاجي و : (١) مقاييس نموذج سلوك النمط ـ أ ، (٢) المكونات الفعالة في النمط ـ أ ، (٣) إفراز الهورمونات في الظروف المعملية . ونحن نفترض أن إفراز الهورمون في الواقع الحي سيكون أفضل في تمييز أصحاب النمط ـ أ المصابين بأمراض الشريان التاجي عن كافة أصحاب النمط ـ ب ، وكذلك عن أصحاب النمط ـ أ غير المصابين بأمراض الشريان التاجي ، من أساليب القياس النفسي للنمط ـ أ ومكوناته الفعالة أو مقاييس الهورمونات في ظل الأوضاع المعملية المصطنعة .

الأهداف التشخيصية والعلاجية للبحوث

ونتعرض الآن لسؤالنا الأخير : «ما هي الإجراءات التشخيصية والعلاجية التي يجب أن نسعى اليها ؟» ستكون الإجابة نوعا من التخمين ولكن لا أستطيع أن أقاوم الإغراء .

من المؤمل أن بحوث النمط ـ أ ستؤدي عاجلا أو آجلا إلى مقاييس أفضل للمكونات الفعالة ، ومن خلال ذلك ستستطيع تحديد الميكانيزمات الفسيولوجية المتضمنة في ربط سلوك النمط ـ أ بأمراض الشريان التاجي . وقد يتضح أن الهورمونات هي صاحبة الذنب . أو قد يتضح أن وظائف أخرى كضربات القلب أو ضغط الدم و/ أو ضيق الشرايين تقوم بالدور الرئيس . وعلى أي حال فسيكون في مقدورنا ـ كما نأمل ـ أن نوجد تكنولوجيا لقياس الميكانيزم المذنب مباشرة وحال حدوثه . وتشجعنا الانطلاقات التكنولوجية المعاصرة في حالة الاضطرابات الأخرى ، كما تخلق في نفوسنا الأمل للتعامل مع سلوك النمط ـ أ المرتبط بالإصابة بالشريان التاجي . ففي حالة مرض السكر مثلا نستطيع الآن أن نمد مرضاه بقسطرة دائمة بشكل أو بآخر مثبتة تحت الجلد للحصول على عينة من الدم . كما

يوجد لدينا أيضا مستشعرات (sensors) تمدنا بدرجة السكر الحالية في الدم (Wallis, 1983) وهذا المقياس الشبيه باختبار صبغة عباد الشمس قادر على إخبارنا بتلك المعلومات على مدار الساعة. وعندما ينخفض مستوى الأنسولين بدرجة خطيرة تتخذ الإجراءات التصحيحية اللازمة.

فإذا ظهر أن هورموناً كالأدرينالين هو العامل المذنب في العلاقة بين سلوك النمط ـ أ والإصابة بأمراض الشريان التاجي فإن الأفراد الذين يتم تشخيصهم بمقاييس لا لبس فيها (كالمقاييس النفسية و/أو مقاييس المقابلات المقننة للمكونات الفعالة في النمط ـ أ) يمكن أن يستخدموا قسطرة مشابهة بحيث تمدنا بصورة واضحة لافراز الهورمون لديهم. وسيكون هذا بهدف التشخيص ويعالج الأمر بطريقة مشابهة لحصولنا على صور للشرايين (Arteriogram) لدى الأفراد الذين تطبق عليهم اختبارات الضغوط الموحية. والأمر بالمثل في حالة العلاج، فالأفراد الذين يصل إفراز الهورمونات لديهم إلى درجة خطيرة يمكنهم تركيب قسطرة. وعندئذ، وباستخدام المجسات الموعودة التي تبين لنا زيادة الإفراز في الهورمون، يستطيع المريض أو المريضة أن يقطع سلسلة الوقائع الضارة بصحته بأن يعالج نفسه أو نفسها بأكثر أشكال البيوفيدباك الهورموني (Biofeedback) فعالية. وتتضمن تلك الأشكال العقاقير وأساليب الاسترخاء، أو الأساليب المعرفية كالتأمل. وما أن تصل هذه الأساليب التشخيصية والعلاجية إلى حد الكمال فإنه يمكن استخدامها مبكرا غالبا في مرحلة المراهقة المتأخرة والبالغين من الشباب. وبهذا الشكل يمكن الوقاية من النتائج الضارة لسلوك النمط ـ أ والمؤدية إلى الإصابة بأمراض الشريان التاجي. وإني أعتقد مخلصا أننا على أعتاب آفاق جديدة في بحوث علاقة النمط ـ أ بأمراض الشريان التاجي. وسيعمل هذا على الإسراع بنمو الآمال والنشاط الواعد المرتبط بدراسة الصحة من زاوية علم النفس الكلينيكي.

الخلاصة بالنسبة لعامة الناس

وفي النهاية، أود أن أخرج من إطار الجوانب الاصطلاحية للنمط ـ أ، وأقدم ملخصا موجزا لهذا المفهوم النظري واضعا نصب عيني ما يجب أن يستفيده القارىء العادي. فما الذي نعرفه عن أصحاب النمط ـ أ وماذا يمكن أن نفعل لمشكلاتهم ؟

لم يقدم أحد حتى الآن طريقة لتشخيص أصحاب النمط ـ أ ولتغيير اتجاهاتهم بطريقة تقلل من احتمال اصابتهم بأمراض الشريان التاجي. وقد قدم ثوريسن

وزملاؤه (Friedman, Thoresen& Gill, 1981) طريقة للتدخل قائمة على تقليل نسبة عودة الإصابة بالأزمات القلبية . غير أن أصحاب النمط ـ أ معروفون بإنكار ميولهم السلوكية ورفض تغيير طريقتهم في الحياة قبل أن يصابوا بالأزمة القلبية أو تجري لهم جراحة القلب (by pass) .

وخلال السنوات الأربع الأخيرة تعاملت مع عدة مئات من أصحاب النمط ـ أ من نزلاء المستشفيات بواسطة عقد لقاءات معهم فيما يشبه الفصول الدراسية . ومثل هؤلاء المرضى يختلفون بشكل واضح عن أصحاب النمط ـ أ الموشكين على الاصابة بأمراض الشريان التاجي في أنهم واعون بميولهم السلوكية ومهتمون بشأنها . ويمكن أن نقدم وصفات سلوكية لهم ولغيرهم من المهتمين بالأمر ، وهي وصفات يمكن إدراجها في ثلاث فئات . ويجب أن ألفت النظر إلى أنه لا توجد أي أدلة تجريبية تدعم أي فئة منها سوى الملاحظة الكلينيكية . وبالرغم من ذلك فسأصفها بإيجاز :

الطريقة الأولى : هي توجيه الذات ، وتنمية مهارات حس استبطاني مرهف يحذر الفرد إذا انجرف في نشاط مبالغ فيه . وعندما يحدث ذلك يستخدم الأفراد أفضل الأساليب التي تنزع فتيل النشاط مثل التنفس العميق وتوقيف الأفكار وما إلى ذلك .

الطريقة الثانية : وهي طريقة فريدمان وأولمر (١٩٨٤) ، حيث توجه الميول الوسواسية القهرية لأصحاب النمط ـ أ ضد نفسها بطريقة تشبه ما يتبع مع مدمني الكحول حين يشجعون على تكوين أفكار وسواسية بشأن عدم وجود الكحول في كل شيء (مثل القلق الدائم بشأن وجود كحول في الحلوى التي يأكلونها أو الدواء الذي يتعاطونه) . فيشجع أصحاب النمط ـ أ على أن يقلقوا بشأن أشياء مثل الوقوف في أطول طابور في السوبرماركت ، أو الإلحاح على أن يستغرق تناول الطعام فترة زمنية معينة على الأقل .

والطريقة الثالثة : هي تغيير المكان . وتتطلب من صاحب النمط ـ أ أن يعترف بأنه لا يستطيع السيطرة على نفسه عندما يتعرض لمثير في عمله . ولذلك فعليه أن يتقاعد أو يغير عمله ، غالبا إلى عمل زراعي أو يدوي ، لا مستقبل له (وبالتالي لا ضغوط فيه) .

ونظرا لأن كل الإجراءات التصحيحية السابقة غالبا ما تفوق طموح معظم الناس ، فسأختم قولي بفكرة إذا ما استقرت في العقل قد تكون نافعة . ولا تقتصر منفعتها على أصحاب ميول النمط ـ أ ، وإنما تمتد إلى الذين يمكن أن يكونوا آباء

أو مدرسين أو مرشدين أو أصدقاء . والفكرة هي أنه بالرغم من أن الكثير من أفعال أصحاب النمط ـ أ قد يكون مثمرا ، إلا أن المرء ما زال يجب عليه أن يتعلم كيف يؤدي عمله بسلاسة .

فالمرء يستطيع أن يقود سيارته في حدود السرعة القانونية ولكن بطريقة « مستريحة » أو بطريقة « مشدودة » . ويحقق عدد متساوٍ من أصحاب النمط ـ أ والنمط ـ ب الشهرة ، ولكن الفرق أن أصحاب النمط ـ ب يميلون إلى إتقان شيء واحد بينما أصحاب النمط ـ أ متعددو الأوجه . فالاهتمام بالعمل ليس من الضروري أن يكون مكونا فعالا للاستعداد بالإصابة بأمراض الشريان التاجي .

وسيكون من الأحسن أن نحتفظ بالطفل (الطموح والدافعية) ونلقي بماء الاستحمام (النشاط المبالغ فيه وما ينتج عنه من أمراض الشريان التاجي) . ولسوء الحظ فإن الكثير من المقترحات التي تلقى على مسامع الشباب الأمريكي تتضمن نصائح لو اتبعت ستؤدي بهم إلى الاحتفاظ بالاثنين (الطفل والماء) أو التخلص منهما معا . إن ما نحتاجه هو أعراف وقيم جديدة أكثر رقيا ، وكذلك أساليب أفضل في نقلها إلى الأجيال الجديدة والطلاب والعملاء ، قيم وأعراف تميز بين الإنجازات التي تحرز عن كفاءة واقتدار وتلك التي تتطلب نشاطا مبالغا فيه واحتمال الإصابة بأمراض الشريان التاجي . إن ما نحتاجه هو أساليب لتدريب أنفسنا وغيرنا على الاحتفاظ باليقظة والخطو الواثق ـ أي أن نجري سباق الحياة باعتباره سباقا طويل الأمد (ماراثون) وليس سلسلة من انطلاقات المئة متر ...

● ● ●

المراجع

Adler, A. (1917). *Study of organ inferiority and its physical compensation: A contribution to clinical medicine*. New York: Nervous and Mental Disease Publication Co.

Allport, G. W. (1937). *Personality: A psychological interpretation*. New York: Holt.

American Psychiatric Association. (1980). *Diagnostic and statistical manual of mental disorders* (3rd ed.). Washington, DC: Author.

Bandura, A. (1971). *Psychological modeling: Conflicting theories*. Chicago: Aldine-Atherton.

Burger, J. M., & Cooper, H. M. (1979). The desirability of control. *Motivation and Emotion, 3*, 381–393.

Bussman, K., Friedman, A., Walker, K. S., Heston, P., & Wright, L. (1987). *Type A behavior pattern and measures of control*. Manuscript submitted for publication.

Colson, S., & Wright, L. (1986). *Catalogue of nonpsychometric measures for time urgency*. Unpublished manuscript.

Contrada, R. J., Glass, D. C., Krakoff, L. R., Krantz, D. S., Kehoe, K., Isecke, W., Collins, C., & Elting, E. (1982). Effects of control over aversive stimulation and type A behavior on cardiovascular and plasma catecholamine responses. *Psychophysiology, 19*, 408–419.

Cook, W., & Medley, D. (1954). Proposal hostility and pharasaic-virtue scales for the MMPI. *Journal of Applied Psychology, 238*, 414–418.

Dembroski, T. M., MacDougall, J. M., Williams, R. B., Haney, T. L., & Blumenthal, J. A. (1985). Components of type A, hostility, and anger-in: Relationship to angroginphic findings. *Psychosomatic Medicine, 47*, 219–233.

Dembroski, T. M., & Williams, R. B. (in press). Definition and assessment of coronary-prove behavior. In N. Schneiderman, P. Kaufmann, & S. M. Weiss (Eds.), *Handbook of research methods in cardiovascular behavioral medicine*. New York: Plenum.

Eliot, R. S., & Buell, J. C. (1983). The role of the central nervous system in sudden cardiac death. In T. M. Dembroski, T. Schmidt, & G. Blunchen (Eds.), *Biobehavioral bases of coronary-prone behavior*. New York: Karger.

Friedman, H. S., Hall, J. A., & Harris, M. J. (1984). Nonverbal expression of emotion: Healthy charisma or coronary-prone behavior? In C. Van Dyke, L. Temoshok, & L. S. Zegans (Eds.), *Emotions in health and illness: Applications to clinical practice* (pp. 151–165). Orlando, FL: Grune & Stratton.

Friedman, M., Thoresen, C. E., & Gill, J. J. (1981). Type A behavior: Its possible role, detection, and alteration in patients with ischemic heart disease. In J. W. Hurst (Ed.), *The heart: Update V*. Hightstown, NJ: McGraw-Hill.

Friedman, M., & Ulmer, D. (1984). *Treating type A behavior and your heart*. New York: Alfred A. Knopf.

Glass, D. C., Lake, C. R., Contrada, R. J., Kehoe, K., & Erlanger, L. R. (1983). Stability of individual differences in physiological responses to stress. *Health Psychology, 2*, 317–341.

Guthrie, E. R. (1959). *Association by contiguity*. New York: McGraw-Hill.

Haft, J. I. (1974). Cardiovascular injury induced by sympathetic catecholamines. *Progress in Cardiovascular Disease, 17*, 73.

Hansson, R. O., Hogan, R., Johnson, J. A., Schroeder, D. (1983). Disentangling type A behavior: The roles of ambition, insensitivity, and anxiety. *Journal of Research in Personality, 17,* 186–197.
Hebb, D. O. (1949). *The organization of behavior.* New York: Wiley.
Herd, J. A. (1978). Physiological correlates of coronary-prone behavior. In T. M. Dembroski, S. Weiss, J. L. Shields, S. G. Haynes, & M. Feinleib (Eds.), *Coronary-prone behavior.* New York: Springer-Verlag.
Jenkins, C. D. (1971). Psychologic and social precursors of coronary disease. *New England Journal of Medicine, 284,* 244–255; 307–317.
Jenkins, C. D. (1976). Recent evidence supporting psychological and social risk factors for coronary disease. *New England Journal of Medicine, 294,* 987–994; 1033–1038.
Jenkins, C. D., Zyzanski, S. J., & Rosenman, R. H. (1971). Progress toward validation of a computer-scored test for the type A coronary-prone behavior pattern. *Psychosomatic Medicine, 33,* 193–202.
Jennings, J. R., & Choi, S. (1981). Type A components and psychophysiological responses to an attention demanding performance task. *Psychosomatic Medicine, 43,* 475–488.
Lovollo, W. R., & Pishkin, V. (1980). A psychophysiological comparison of type A and B men exposed to failure and uncontrollable noise. *Psychophysiology, 17,* 29–36.
Marx, J. L., & Kolata, G. B. (1978). *Combating the #1 killer: The SCIENCE report on heart research.* Washington, DC: American Association for the Advancement of Science.
Matthews, K. A. (1982). Psychological perspectives on the type A behavior pattern. *Psychological Bulletin, 91,* 293–323.
Matthews, K. A., Glass, D. C., Rosenman, R. H., & Bortner, R. W. (1977). Competitive drive, pattern A, and coronary heart disease: A further analysis of some data from the Western Collaborative Group Study. *Journal of Chronic Diseases, 30,* 489–498.
Matthews, K. A., Helmreich, R. L., Beane, W. E., & Lucker, G. W. (1980). Pattern A, achievement-striving, and scientific merit: Does pattern A help or hinder? *Journal of Personality and Social Psychology, 39,* 962–967.
Matthews, K. A., & Jennings, J. R. (1984). Cardiovascular responses of boys exhibiting the type A behavior pattern. *Psychosomatic Medicine, 46,* 484–497.
Matthews, K. A., & Volkin, J. I. (1981). Efforts to excel and the type A behavior pattern in children. *Child Development, 52,* 1283–1289.
McCurdy, S., & Wright, L. (1986). *A test for time urgency.* Unpublished manuscript.
National Institutes of Health, Review Panel on Coronary Prone Behavior and Coronary Heart Disease. (1981). Coronary-prone behavior and coronary heart disease: A critical review. *Circulation, 63,* 1199–1215
Price, V. A. (1982). *Type A behavior pattern: A model for research and practice.* New York: Academic Press.
Raab, W., Chaplin, J. P., & Bajusz, E. (1969). Myocardial necroses produced in domesticated rats and in wild rats by sensory and emotional stresses. *Proceedings of the Society of Experimental Biology and Medicine, 116,* 665–669.
Rogers, C. R. (1951). *Client-centered therapy.* Boston: Houghton Mifflin.
Rosenman, R. H. (1978). The interview method of assessment of the coronary-prone behavior pattern. In T. M. Dembroski, S. G. Haynes, & M. Feinleib (Eds.), *Coronary-prone behavior* (pp. 55–69). New York: Springer-Verlag.
Rosenman, R. H., Brand, R. J., Jenkins, C. D., Friedman, M., Strauss, R., & Wurm, M. (1975). Coronary heart disease in the Western Collaborative Group Study: Final follow-up experience of 8½ years. *Journal of the American Medical Association, 233,* 872–877.

Rosenman, R. H., Friedman, M., Strauss, R., Wurm, M., Kositchek, R., Hahn, W., & Werthessen, N. T. (1964). A predictive study of coronary heart disease. *Journal of the American Medical Association, 189,* 15–22.

Rotter, J. B. (1966). Generalized expectancies for internal versus external control of reinforcement. *Psychological Monographs, 80* (1, Whole No. 609).

Scherwitz, L., Berton, K., & Leventhal, H. (1978). Type A behavior, self-involvement, and cardiovascular response. *Psychosomatic Medicine, 40,* 593–609.

Spielberger, C. D., Jacobs, G. A., Crane, R. S., Russell, S. F., Westberry, L., Barker, L., Johnson, E. H., Knight, J., & Marks, E. (1979). *Preliminary manual for the State-Trait Personality Inventory (STPI).* Tampa: University of South Florida Human Resources Institute.

Spielberger, C. D., Jacobs, G., Russell, S. F., & Crane, R. S. (1983). Assessment of anger: The State-Trait Anger Scale. In J. N. Butcher & C. D. Spielberger (Eds.), *Advances in personality assessment (Vol. 2,* pp. 159–187). Hillsdale, NJ: Erlbaum.

Spielberger, C. D., Johnson, E. H., Russell, S. F., Crane, R. S., Jacobs, G. A., & Worden, T. J. (1985). In M. A. Chesney & R. H. Rosenman (Eds.), *Anger and hostility in cardiovascular and behavioral disorders* (pp. 5–30). New York: Hemisphere/McGraw-Hill.

Steinberger, L. (1986). Stability (and instability) of type A behavior from childhood to young adulthood. *Developmental Psychology, 22,* 393–402.

Wallis, C. (1983, December). Diabetics' new gospel of control. *Time,* p. 75.

Watkins, P. L. (1986). *Behavior assessment of interpersonal skill among type A and B college students.* Unpublished doctoral dissertation, Virginia Polytechnic Institute and State University, Blacksburg, VA.

Weiss, J. M., Stone, E. A., & Harrell, N. (1972). Coping behavior and brain norepinephrine in rats. *Journal of Comparative and Physiological Psychology, 72,* 153–160.

Wherry, R. J., & Fryer, D. H. (1949). Buddy ratings: Popularity contest or leadership criterion? *Personnel Psychology, 2,* 147–159.

Williams, R. B. (1984). An untrusting heart. *The Sciences, 24,* 31–36.

Williams, R. B., Haney, T. L., Lee, K. L., Kong, W., Blumenthal, J. A., & Whalen, R. (1980). Type A behavior, hostility, and coronary atherosclerosis. *Psychosomatic Medicine, 42,* 539–549.

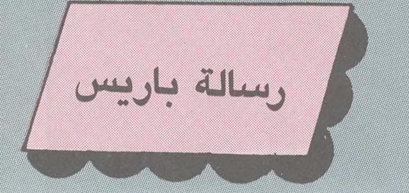
Williams, R. B., Lane, J. D., Kuhn, C. M., Melosh, W., White, A. D., & Schanberg, S. M. (1982). Type A behavior and elevated physiological and neuroendocrine responses to cognitive tasks. *Science, 218,* 483–485.

Wright, L. (1984, April). *A possible biochemical mechanism for explaining type A related coronary artery disease.* Speech presented at the Michael Dinoff Memorial Lecture, University of Alabama, Tuskaloosa.

Wright, L. (1985). *The Way of Life (WOL) Scale.* Unpublished test.

Wright, L. (1987) *Type-A behavior pattern and measures of control: A replication.* Unpublished manuscript.

Wright, L., & Schmidt-Walker, K. (1986). *An expanded structured interview for measuring time urgency and chronic activation.* Unpublished manuscript.



[١]

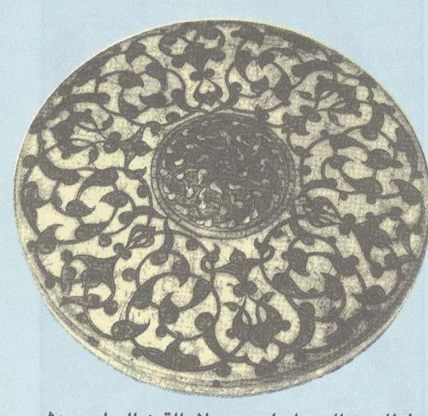
الشتاء هنا أشهر معدودات تتسابق فيها دور الأوبرا والمسارح والمعارض إلى تقديم نشاطاتها المتكاثرة قبل أنت ويتوزع القوم داخل فرنسا وخارجها عند تباشير الصيف . والشتاء قبل هذا وفوق هذا استمرار لموسم النشر الكبير الذي يبدأ في الخريف ويشتد ويغزر في أشهر الشتاء ، ومن هنا كان من العسير أن يتحدث المرء حتى عن قليل القليل مما يقذف به موسم النشر هذا من نتاج في شتى ميادين المعرفة . وفي موسم الشتاء في هذا العام بوجه خاص هطلت شآبيب من العطاء الفكري والأدبي وسواهما وسوف نتريث عند نماذج قليلة منه .

أولا : أحداث ثقافية عامة وهامة

١ ـ معرض للفن الاسلامي في متحف اللوفر :

بين السادس عشر من تشرين الأول أكتوبر ١٩٨٩ والخامس عشر من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠ أقيم في متحف « اللوفر » بباريس معرض حوى المجموعة الفرنسية من الفن الإسلامي ، وكان موضوع ذلك المعرض : « فن الزخرف العربي (الأرابيسك) وحدائق الجنة » .

لقد كان من الشائع في الغرب اعتبار الفن الإسلامي فناً مجرداً ، قوامه الهندسة . غير أن هذه الفكرة ما لبثت حتى تلاشت في السنوات الأخيرة ، من خلال العديد من المعارض والدراسات والمنشورات . واستبان نتيجة لهذا كله أن الفن الإسلامي في معظمه فن « مصوِّر » للأشياء بمجالاتها العديدة.أ



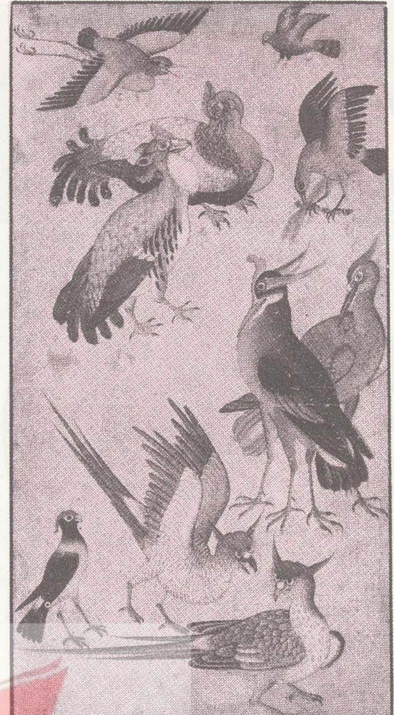
غطاء من السيراميك يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي (إزنيك ، تركيا)

والمعرض الذي نحن بصدده يضم قطعا فنية مأخوذة من المجموعات الفرنسية الرسمية . والتصور الذي يحكم العرض فيه هو الانتقال من الإشارة البسيطة التي مصدرها الطبيعة حتى بلوغ أكثر المظاهر رمزية ، نعني ما سمي باسم « حديقة الجنة » . وهذا التدرج يتحلق حول أجزاء أربعة أو رؤى للطبيعة أربع متباينة هي قوام الفن الإسلامي على نحو ما يظهره المعرض :

الرؤية الأولى هي رؤية الطبيعة من خلال الأشكال التزيينية المختلفة التي يوحي بها عالَم النبات وعالَم الحيوان . والرؤية الثانية هي رؤية الطبيعة من خلال الطابع العلمي لصور النباتات والحيوانات . والرؤية الثالثة تعالج الطبيعة من خلال الواقع اليومي المعاش . وهذه الرؤية تضم الحياة الرسمية (من استقبالات وأعياد وصيد) والحياة الفردية الخاصة . أما الرؤية الرابعة فهي



نسر على شكل مبخرة من البرونز المحفور
القرن الحادي عشر ـ القرن الثاني عشر
(خراسان ، فارس)



عشرة عصافير
نهاية القرن السادس عشر إلى بداية القرن السابع عشر
(الهند المغولية)

المعنية بالمعنى العميق للطبيعة ، وبانعكاساتها الرمزية والصوفية . وينتهي المعرض بتصور الحديقة أو الجنة .

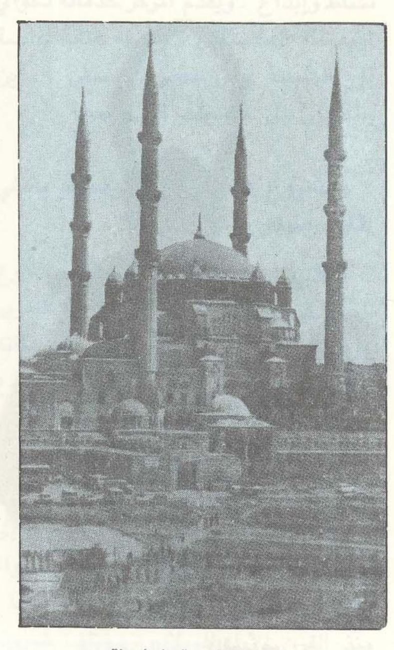
٢ ـ كنوز السلطان سليمان القانوني :

في الرابع عشر من شهر شباط/ فبراير ١٩٩٠ ، افتتح في « القصر الكبير » بباريس معرض فخم يقدم صورة عن حكم السلطان العثماني الشهير ، سليمان « الرائع » كما يسميه الغربيون ، وذلك من خلال ثلاثمائة قطعة فنية وأدبية نادرة (مخطوطات ـ سيراميك ـ مجوهرات) ، ويستمر المعرض حتى ١٤ أيار/مايو ١٩٩٠ .

وما كان لمثل هذا المعرض الضخم أن يرى النور لولا القرار السياسي الذي اتخذته



السلطان سليمان (القانوني)
نقش فرنسي من القرن السابع عشر



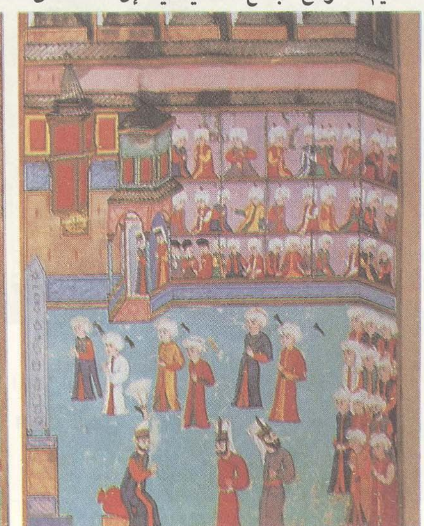
جامع السليمية في أدرنة

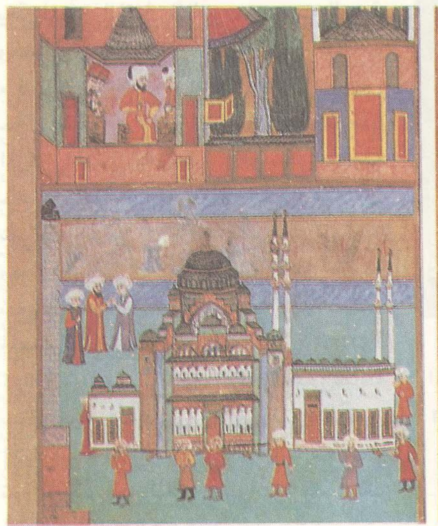
حكومة أنقرة عام ١٩٨٧ ، وسمحت من خلاله بخروج بعض قطع من التراث الثقافي الفني الاسلامي من تركيا إلى بعض البلدان في المناسبات الكبرى الاستثنائية .

ولقد أقيم معرض مماثل عن السلطان سليمان وعصره في واشنطن وشيكاغو ونيويورك عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ ، غير أنه على غناه ، لم يكن يضم أكثر من مائتي قطعة ، بينما يضم معرض باريس (٣٢١) قطعة ، وذلك بفضل الرفد الذي قدمته بوجه خاص المجموعات الفرنسية والأوروبية . وكان بين قطع هذه المجموعات قطع هامة تعرض للمرة الأولى وتستحق وحدها أن تُشَد الرحال لزيارة هذا المعرض . من بين هذه القطع « مشاهد حياة البلاط والحياة اليومية التركية » (١٥٧٣ ـ ١٥٨٢) التي رسمها رسامون ألمان أقاموا على ضفاف البوسفور .

ولا شك أن عهد السلطان سليمان اشتهر بالآثار المعمارية الرائعة ، ولا سيما الزينة الداخلية للجوامع والقصور ، عن طريق اللجوء إلى مربعات الفخار المعروفة التي تجدد فن السيراميك . ومن المعروف أن السلطان سليمان وجد في المعماري الفذ «سنان» بناء عبقرياً ومنتجا يرجع إليه الفضل في أجمل ما نجده من جوامع اسطنبول والجوامع السليمية في أدرنة

تقديم أنموذج جامع السليمانية إلى السلطان سليمان قبل بنائه





وسواها . وقد أصاب فن البناء الرائع الذي ابتكره «سنان » حظاً من النجاح جعله يذيع في أنحاء السلطنة العثمانية كلها ، من البوسنة حتى الجزائر ماراً بالبحر الأبيض المتوسط .

ولقد كان «سنان» رئيساً لعدد كبير من الورشات (تبلغ جوالي ١٥٥٠ ورشة) تستجيب لرغبات السلاطين وطموحهم إلى أن يصنعوا أشياء كبيرة تتجاوز ما صنعته الامبراطورية الرومانية والامبراطورية البيزنطية ، وتنافس أوروبا . وقد عمّر زهاء مائة سنة ، مما أتاح له أن يبني نيفاً وثمانين جامعا ، أي جامعاً كل عام تقريباً . ولا شك أن من أشهر ما بني « جامع السليمانية » .

ويحدثنا المعرض عن هذا كله وسواه . ونجد فيه قطعاً متنوعة رائعة روعة ما يجده زائر « توبكابي سراي » في اسطنبول .

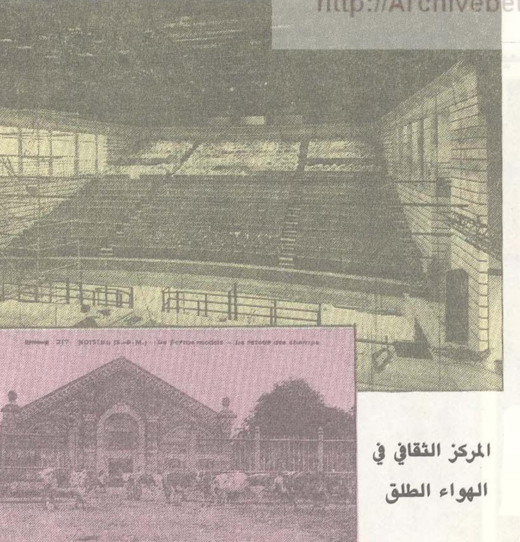
٣ ـ مركز ثقافي جديد يقام في قلب الريف سر في باريس :

قام وزير الثقافة الفرنسي بالنيابة عن الرئيس ميتران ، في الخامس عشر من شباط/فبراير ١٩٩٠ ، بتدشين مركز ثقافي يعدّ المركز الثقافي الثاني من حيث السعة والشأن ، بعد « دار الفنون » في ضاحية « كريتيي Creteil » يقام في شرقي باريس خلال السنوات العشر الأخيرة . وقد فتح هذا المركز المعني بالرقص والموسيقى بوجه خاص ، أبوابه للجمهور في الثامن عشر من شباط/ فبراير ١٩٩٠ . وقد أنشىء المركز وسط الريف في المكان الذي كان مزرعة نموذجية من قبل . وفي مسرحه الذي صممه المعماري الشهير « برنار أوي Bernard Huet » (وهو الذي أعاد تنظيم ساحة ستالينغراد بباريس) ، نلقي فنان الرقص الإيقاعي « دانييل لاريو Larrieu » ، الذي تم التعاقد معه لثلاث سنوات ، يعد منذ الآن نشاطاته الكثيرة .



قربة من الذهب المقصوص
(تركيا حوالي القرن السادس عشر)

وقرب المسرح مشغل عملي يتسع لمائتي شخص ، هدفه أن يطلع الشباب على الأعمال المسرحية وعلى ما وراء العمل المسرحي من



المركز الثقافي في الهواء الطلق

نشاط وإبداع . ويقدم المركز خدماته لحوالي أربعمائة ألف ساكن . ويوجه عناية خاصة إلى الشبيبة وإلى بعض السكان الذين ينتسبون إلى جنسيات غير فرنسية

٤ ـ مشروع هام لمنظمة اليونسكو يقتفي آثار « ماركو بولو » :

وأخيرا أخذ سبيله نحو التحقيق مشروع اليونسكو الذي عرف باسم «طرق الحرير طرق الحوار » ، بعد أن مكث يراوح في مكانه نيفاً وخمس سنوات ، ولا يقتصر المشروع على السير في خطى الطريق التي تمضي من البندقية حتى بكين مارة بآسيا الوسطى ، وهي الطريق التي سلكها عام ١٢٧١ « ماركو بولو » وأبوه وعمه ، بل تتجاوز ذلك إلى البحث عن الطرقات الفرعية الكثيرة ، سواء كانت برية أو بحرية ، التي نمت من خلالها ، منذ القرن الأول للميلاد ، مختلف ضروب تبادل البضائع الثمينة والمبدعات الفنية والتقنيات والأفكار والمعتقدات بين الشرق والغرب .

وهكذا سوف يتم اجتياز (٢١) بلداً من إيطاليا إلى كوريا الجنوبية ، ومن تركيا إلى اليابان ، قبلت جميعها المشاركة في هذا المشروع على شاكلة أو أخرى . ولقد بدأت الفرق العلمية التي ستقوم بالرحلة بجمع مئات الباحثين والاختصاصيين من أنحاء العالم جميعها ، بينهم المؤرخون والجغرافيون وعلماء الآثار وسواهم .. وقد تم اختراق الطريق الصحراوية منذ شهر نيسان/ابريل الماضي ، كما سيتم اختراق السهوب الروسية والآسيوية عام ١٩٩١ . وفيما يتصل بالرحلة البحرية أعار سلطان عُمان مركبه الشخصي الذي سيغادر البندقية في تشرين الأول/ أكتوبر القادم بحيث يبلغ « أوساكا » بعد خمسة شهور ، بعد أن يكون قد توقف بوجه خاص في مصر والإمارات العربية المتحدة والهند وسيلان وأندونيسيا . غير أن هذه البعوث العلمية لن تكون مجدية إذا لم تترك على الأرض أي أثر يدل على مرورها . ولهذا سوف تضاف إليها ، عبر المسيرة كلها ، مهرجانات وأعياد ومعارض وندوات ، فضلاً عن برنامج هام لإصلاح الأوابد الأثرية المنسية . هكذا ، وعلى سبيل المثال ، سوف يقوم نادي « بين Pen Clube » بجمع عدد من المختصين في أدب الرحلات القديم ، ولا سيما العربية والأوروبية . وفي مسقط ستقام الندوات والمناظرات الأساسية . وفي باريس ، عام ١٩٩٣ ، سوف يقوم مهرجان كبير يعرض فيما يعرض القطع الفنية النادرة التي تضمها متاحف أوروبا وآسيا .

وطبيعي أن يكون ثمة برنامج حافل لنشر كتب أساسية في الفن . وقد عبئت لهذه الغاية منذ الآن أشهر المجلات العالمية . هذا بالإضافة إلى إصدار دورية خاصة عن « الشرق والغرب » بدأ بإعدادها « آندريه بيرينو Perinaud » .

على أن الوسائل السمعية البصرية لم يغفلها المشروع ، بل جند لها إمكانات كبيرة . وسوف يقوم التلفزيون الياباني بتصوير الرحلة بكاملها بلا انقطاع . وقد تولت محطات تلفزيونية أخرى في فرنسة وسواها تقديم برامج حول هذه الرحلة الهامة ، وتصوير الكثير من وقائعها . هكذا ، ومن قبيل المثال ، سوف يقوم « جان ـ كلود كاريير Carriere » بتصوير فيلم طويل عن الفارسي « ماني » (٢١٦ ـ ٢٧٧) مؤسس الديانة المانوية . ومن المأمول أن يشارك في هذه الرحلة العلمية عبر العصور ، والأمصار رسامون ومسرحيون وسواهم من رجال الفن . بل إن خبير الرقص الإيقاعي الفرنسي الشهير «دانييل لاريو Larrieu » قد بدأ خلال الأشهر الأخيرة بتقديم شطرين من ثلاثيته التي أطلق عليها اسم « طريق الحرير » ، وإن كانت لا تمت إلى المشروع الذي نتحدث عنه بصلة وثيقة .



مشهد من مسرحية
« دانييل لاريو » البناة



مشهد من فيلم
« حلقة الذين قضوا
من الشعراء »

ثانياً : أحداث فنية

١ - هل الأساتذة حقاً خطرون ؟

في مطلع عام ١٩٩٠ ظهر فيلم فريد في موضوعه وإنتاجه ، عنوانه ، « حلقة الذين قضوا من الشعراء » ، من إخراج «بيتر فير Peter Wier» . وفيه يتحدث عن مدرسة ثانوية في «فيرمون» هادئة مطمئنة ، يأتيها القلق والشك والهذيان من خلال درس الأدب. وكأن قولة « ناتانائيل » الشهيرة (بلسان أندريه جيد) تصدق هنا : «سوف أعلمك اللوعة والجوى» .

وتقدم لنا الصور الأولى من الفيلم مشاهد مألوفة تنقل إلينا جو الثانويات القديمة التقليدي : برودة الأبنية القوطية وفخامتها ، حفلات افتتاح العام الدراسي وجلالها ، الخطبة الصارمة لمدير المدرسة ، باحة المدرسة وأشجارها الملتهبة وسط حرارة الشمس ، الخ ... وكأن كل شيء بحسبان ، وكأن الهدوء يخيم في الأرجاء . غير أن ظننا ما يلبث حتى يخيب . لقد أصاب الخرق هذا العالم المحكم ، وقدم الطيش من خلال الأدب .

ذلك أن قادماً جديداً من خارج المدرسة أخذ ببث الاضطراب في أرجائها . إنه أحد تلاميذ المدرسة القدامى ، قدم المدرسة أستاذاً يحل محل أستاذ شيخ . وهو يعرف المدرسة بالتالي ويعرف أساليبها . أما أساليبه هو فشأن آخر .

في اليوم الأول يبدأ كل شيء . الأستاذ يدعو الطلاب إلى الممر ليتأملوا صور الطلاب القدامى الذين يشبهونهم ، وقد غدا بعضهم الآن في عداد الأموات . إن صوتهم ـ كما يقول الأستاذ ـ يصلنا من وراء القبور . وهذا كله يمنح طعماً خاصاً ومعنى خاصاً للقصيدة التي كان يقرؤها أحد الطلاب منذ قليل والتي تتحدث عن الوردة .

وبعد ذلك ، تتلاحق يوماً بعد يوم المواقف التعليمية الغريبة ، وهدفها جميعها أن ينضو الطلاب عن أجسادهم ونفوسهم العادات والمواقف والاتجاهات التي تعلموها ، وأن يخلعوا ثوب الرياء . فتلك القوقعة التي فرضتها علينا الأسرة وفرضها المعلمون ينبغي أن تتمزق كي تفسح المجال للنظرات الذاتية الحرة المستقلة ، ينمي خلالها كل طالب معرفته عن طريق قراءة النصوص وفهمها فهماً جديداً . ذلك أن الشعراء هم مفتاح نفوسنا . وهكذا يدخل الطلاب جو الشعر بأجوائه المختلفة ، ويجتمعون كل ليلة في كهف من كهوف الحديقة ، ويستمتعون بأنفسهم وبالشعراء ، ويتلون الأشعار بالتناوب . ويجيد الفيلم أيما إجادة في عرض وجوه المراهقين وقد امتلكتهم النشوة ، وفيه تصوير للمشاهد الرقيقة التي كثيراً ما تبللها الدموع .

وقد أثار الفيلم الكثير من التعليقات . بل إن مجلة « الأوبسرفاتور الجديدة » قد عقدت حول هذا الفيلم مناظرة في ثانوية « فينيلون » شارك فيها حوالي عشرين طالباً . واستبان من المناظرة أن الفيلم يحظى بإعجاب الطلاب جميعهم .

٢ ـ « سيرك » من الحديد :

لقد انقضى عهد الخيول والأسود والدببة في «سيرك» « آركاووس Archaos » في باريس ، وحلّت محلها السيارات والدراجات النارية وسيارات الشحن .

مشهد لندوة في ثانوية « فينيلون » بباريس تناقش الفيلم



لقد بدأ صاحبه « بيير بييو Pillot صدفة بداية متواضعة بل فقيرة ، فجمع ما تقذف به مصانع الحديد والتوتياء وسواها من « العوادم » وأضاف إليها بعض الحيوانات وبوجه خاص بعض الخيول ، وصنع من هذا كله «سيركا» متواضعا ينظر إليه الناس شزراً ، عرف باسم «سيرك الصفائح » .

غير أن هذه البداية ما لبثت حتى تطورت ، وحلّت محل الخيول المطهمة في ذلك السيرك الحقير الشاحنات والسيارات والدراجات النارية . ولا يعني هذا أننا نجد أنفسنا في هذا «السيرك» وكأننا في أمسية مزدحمة بالسيارات وبمشكلات السير . فهذا «السيرك» الذي نتحدث عنه يقدم لنا صورة معاكسة لهذه الصورة . وأصحابه ، شأنهم شأن الغالين من السرياليين ، ينطلقون من بعض جوانب الحياة الحديثة من أجل أن يسخروا منها . فرافعة الأثقال مثلاً لا تحمل الحاويات بل تغدو جبلاً يتسلق عليه اللاعبون ، ومكاناً لألعاب التوازن ، بل زرافة لها عنق طويل من الفولاذ . أما الدراجة النارية فتغدو ، على يد سائقها البطل ، ضربا من السباق السماوي العامر بالقوة والأحلام البعيدة ، إنها تعبر الدروب الضيقة ، وتتسلق السلالم ، وترتمي في الفراغ ، وتقف أمام المشاهدين ، وتتقن الكر والفر ، لا يلجم جماحها سوى سائقها « دوبون Depont » الشاب في العشرين من العمر وأحد الأبطال السابقين في فن « السوْق » . على أن هذا «السيرك » المحدث لا ينسىٰ السيرك التقليدي تماماً . ففيه نجد طائفة من الألعاب المألوفة في «السيرك » ولا سيما الألعاب البهلوانية . وهذا السيرك ، الذي بدأ فقيراً ، يشق فيما يبدو طريقه نحو الثراء ، فهو الآن في قلب الريف ، وسوف ينتقل عما قريب إلى باريس ، ومنها يطوف أوروبا طول العام كله ، من لندن إلى موسكو ، ثم يشد رحاله إلى أوستراليا والولايات المتحدة . وهو يتلقىٰ دعوات من كل حدب وصوب لا يقوىٰ على



بطل الدراجة النارية « دوبون Depont » على ظهر دراجته الطائرة

تلبيتها جميعها . ومن هنا يفكر أصحابه في قسمته إلى فريقين : فريق يقيم في فرنسا دوماً (في منطقة « الغار Le Gard ») ، وفريق يجول في أرجاء العالم وبعد هذا كله ، من قال إن « السيرك » قد مات ؟

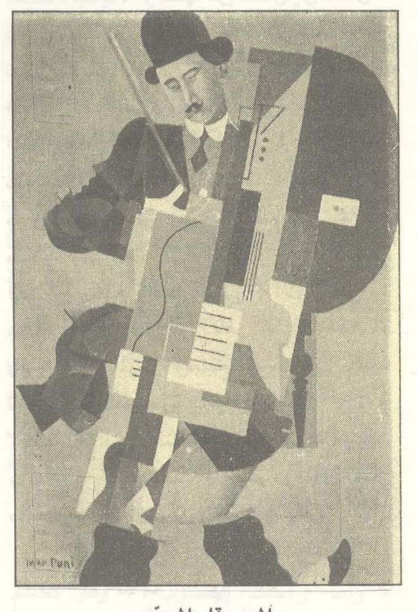
٣ ـ الصالون الدولي للمتاحف والمعارض :

بين العشرين والثامن والعشرين من شهر كانون الثاني / يناير الماضي أقام « الصالون الدولي للمتاحف والمعارض » معرضه الثاني في « القصر الكبير » بباريس . ويجد الزائر على يمينه عدداً كبيراً من « الواجهات » فيها يقدم حوالي مائة متحف وصفاً كاملاً للمجموعات الفنية التي تملكها أو لبعض مشروعاتها . وعلى الشمال يجد الزائر الوجه المناقض : يجد المهن والحرف التي يتزايد عددها والتي تتحلق حول هذه المؤسسات ، نعني المتاحف التي هي إحدى السمات البارزة المميزة للقرن العشرين .

والحق إننا نعيش عصر المتاحف والصالون الذي نتحدث عنه أكبر شاهد على ذلك . وأقدم هذه المتاحف وأعرقها وأكثرها جلالاً مخصصة بالدرجة الأولى للأعمال الفنية منذ عصر ما قبل التاريخ حتى الفن المعاصر . على أن التاريخ ، التاريخ القومي والتاريخ الطبيعي ، يحتل مكاناً بارزاً في هذه العروض .

وبعض المتاحف المشاركة في المعرض تقدم قطعاً نادرة من ممتلكاتها ، وبعضها الآخر يقدم نماذج تقلدها ، وبعضها كذلك لا يعدو أن يعلن عن ولادة متحف جديد . ومن هنا كانت المعلومات التي يشيعها المعرض معلومات تهم الجمهور العريض كما تهم المحترفين المتخصصين .

وقد شارك الأوروبيون في هذا المعرض على نطاق واسع ، ولإسبانيا مكان بارز فيه .



« الموسيقار المجمّع »
رسم للفنان جوان بوني Joan Puni » عام ١٩٢١

والنماذج التي تقدمها تبرز برنامجها الطموح من أجل تجديد المعارض أو بنائها في مدريد وسائر المقاطعات . ومعروضات «بون» و«برلين» (الغربية) تبرز أيضاً المشروعات الكبرى في ألمانيا وعلى رأسها متحفان للتاريخ . وإسهام فرنسة في المعرض هو الأوسع والأهم (٧٠٪ من جملة المعروضات) . وهكذا تتوالى في هذا المعرض أجنحة الدول المختلفة ، كل منها يقدم صورة عن نشاطاته في عالم المتاحف .

٤ ـ النحت أمام صدمة «التبعيض» :

أجل ، لقد أقيم في «متحف أورسي» بباريس معرض مدهش عن «تبعيض جسم الانسان» في النحت ، محوره النحات الكبير « رودان Rodin » .

لقد كان من المألوف دوماً القيام بجراحة تجميلية تتناول التماثيل المنحوتة . وبعض هذا التجميل والتطعيم الذي يأخذ شكل زرع

أعضاء جديدة أو نقلها من تمثال إلى تمثال، يثير الابتسام أحياناً. هذا هو مثلاً شأن تمثال لويس الثاني عشر في قصر «غايون Gaillon» الذي نحته «لورنزو موغيانو Lorenzo Mugiano» عام ١٥٠٨. لقد شُوّه هذا التمثال أيام الثورة الفرنسية ومُثّل به واجتُثت بعض أجزائه، فلم يبق منه إلا صدره وقد علاه درع منمّق. وهذا التمثال المشوه أُصلح وأُكمل مرتين: الأولى على يد بوفاليه «Beauvallet» الماهر الذي وضع له رأساً من المرمر وصنع يده التي كانت تعوزه. وأكمل مرة ثانية بإزميل «لانج Lange» الذي صنع له ساقين، لأنه لم يكن من اللائق أن يعرض في قصر فرساي تمثال ملِك لا يعدو أن يكون جذع إنسان!

وتمثال لويس الثاني عشر هذا، الذي أعيد ترميمه في القرن العشرين، ومعه الأجزاء الجديدة التي أضيفت إليه على شكل قطع تبديل يمْكن نزعها كما تنزع «وجبة» الأسنان، هو بين ما يعرضه علينا هذا المعرض الذي نحن بصدد الحديث عنه. وإلى جانبه يعرض عددا من أمهات التماثيل الشهيرة التي رممت وأضيفت إليها أجزاء من مواد مختلفة. كما يعرض علينا مجموعة من الأجزاء والقطع التي خلفها النحاتون ولم يكملوها واعتبروها أعمالاً كاملة. وهذه الأجزاء تمثل قطعاً تشريحية من جسم الإنسان في معظم الأحيان.

وفي هذا، كما نرى، انقلاب في النظرة إلى النحت، بل إنقلاب في تذوقه، ومعالجة جديدة طبية تشريحية لجسم الإنسان، تضعنا في قلب مرحلة متفجرة وحاسمة في تاريخ النحت. وبطل هذه المرحلة دون شك هو النحات الكبير «رودان». فعن طريقه دخلت الفضيحة، إن كانت ثمة فضيحة. فلقد هجر كما نعلم المثل العليا الأكاديمية ومارس، بدلاً من فن التركيب، علم



أرجل من نحت النحات «بولوكس Pollusc»
(إيطاليا ـ القرن السادس عشر)

الصياغة. وهكذا استثمر حتى النهاية وبشكل منهجي منظم ما في «الجزء» من قدرة تعبيرية، وما يحتويه من قوة مركزة يستطيع النحات من خلالها أن يفجر ما في الجسد من حياة ومتعة. وفي حانوته في مدينة «مودون Meudon»، المليء بالأدراج والرفوف العامرة بالأرجل والأيدي والأذرع المختلفة الحجم، كان «رودان» بعد عام ١٩٠٠، يعنى بلصق الأجزاء بعضها ببعض، ويجمع الفتات والبقايا. لقد كان «رودان» يجمع: لقد كان يجمع مثلاً وجه «كامي كلوديل Claudel» ويد «بييرويسانت Pierre Wissant» أحد بورجوازيي مدينة «كاليه». وحصاد الجمع يأخذ بالقلوب والأنظار. حصاده جمال أخاذ.

على هذه الشاكلة يقدم لنا هذا المعرض الفريد، قصة النحت المنطلق من الأجزاء. أوَ ليس النحت الحديث إلى حد كبير وليد محبة هذا النحت القديم الذي وصل إلينا محطماً مهشماً.

ثالثا : أحداث ثقافية اجتماعية هامة

١ ـ الأدب في بلاد التفرقة العنصرية :

وسط الأحداث التي رافقت إطلاق سراح الزعيم الأفريقي نلسون « مانديلا » وفي أجواء الحملات على التفرقة العنصرية ، عنيت الصحافة الفرنسية وعني بعض الكتاب بموضوع قلما توقفت عنده الأقلام ، نعني موضوع الأدب في بلاد « الأبار تايد » .

وقد سلطت الأضواء بوجه خاص على كتاب أفارقة أربعة عرفوا بأدبهم المناهض للتفرقة : أولهم الروائية الشهيرة « نادين غورديمر Nadine Gordimer» ، وثانيهم الروائي « أحمد إيسوب Essop » ، والثالث هو الشاعر « سيفو سيباملا Supho Sipamala » ورابعهم أستاذ الأدب الأفريقي « إسحق مفاليلي Mphalele » .

أما « نادين غورديمرفقد ولدت في جوها نسبرغ » عام ١٩٤٢ ، في مدينة صغيرة يعمل سكانها في المناجم ، من أب مهاجر من روسيا ومن أم إنجليزية . وقد دخلت منذ أمد طويل في صفوف المواطنين السود المناضلين داخل حزب «المؤتمر الوطني الأفريقي» وهي من أعند المناضلات ، في حياتها وأدبها ، ضد التفرقة العنصرية . وقد كتبت في الآونة الأخيرة ، رواية عنوانها « نزوة الطبيعة » ترجمت إلى اللغة الفرنسية مؤخراً ونشرتها دار « آلبان ميشيل » . وفيها تطرح مشكلة « الرواية » ذاتها ومشكلة الأدب بوجه عام . وتتحدث بوجه خاص عن تلك المشكلة التي كانت ذائعة في أوروبا خلال الأربعينات ثم تجاوزها الزمن هناك ، غير أنها ماتزال مطروحة في بعض البلدان ، نعني مشكلة الالتزام في الأدب .

وأما « أحمد إيسوب » ، وهو مسلم هندي ، فقد كان أستاذاً خلال فترة طويلة ثم تفرغ للكتابة . ويشيد إشادة واضحة صريحة في أدبه بمعتقداته الدينية وثقافته الأصيلة . وقد ولد في الهند عام ١٩٣١ وانتقل إلى أفريقيا الجنوبية عام ١٩٣٤ .

احدى المظاهرات في مدينة الكاب ابتهاجا بإطلاق سراح نيلسون مانديلا



وقد اغتذى بقراءة الكتاب السود من جنوبي أفريقيا ، كما اغتذى بقراءة الكتاب الأفارقة بوجه عام والكتاب الهنود والكتاب العرب . وكثير من كتاباته تدور حول الجماعة الهندية في جنوبي أفريقيا . وقد ترجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغة الفرنسية .

وفي بيت ذي أربع حجرات شبيه بسائر البيوت التي تبنى لسكنى السود ، وفي ضاحية من ضواحي « جوهانسبرغ » اسمها « بينوني » تكتظ شوارعها الضيقة بالصبية ، يقيم كاتبنا الثالث « سيفو سيبا ملا » ، وهو من السود ، ويدير مركز « اتحاد الفنانين السود » . وقد اشتهر بوجه خاص بقصائده المكتوبة باللغة الهجينة لسكان المدن ، تلك اللغة التي هي خليط من الإنجليزية و « الزولو » والـ « سيزوتو » . وقد ولد شاعرنا عام ١٩٣٢ في منجم الذهب . وكان أبوه أستاذاً قديماً ترك التدريس وأصبح مستخدماً في مكتب للمناجم . وقد اشتهرت له مسرحية كتبها عام ١٩٦٤ ولم تسمح الأوضاع السياسية بتمثيلها . ومنذ عام ١٩٦٨ بدأ بكتابة قصائده الشعرية الأولى . ومعظم كتاباته تهكمية هجائية ، لأن رجل الشارع كما يقول ساخر وهجّاء بطبعه وهو أكثر صدقاً وأصالة من الرجل المتعلم .

وفي مكتب باهت ، ولكنه مليء بالكتب ، في جامعة ، « ويتس Wits » ، يجلس الكاتب « إسحق مفاليلي » الذي عاد إلى قسم الأدب الأفريقي ، وهو القسم الذي أنشأه عام ١٩٨٣ قبل أن يبلغ سن التقاعد عام ١٩٨٧ ، وقد ولد الكاتب عام ١٩١٩ في بلدة « ماراباستاد Marabastad » ، تلك الضاحية الأفريقية (التي غدت هندية) في « بريتوريا » . ويحدثنا عن طفولته وحياته قبل أن يغادر بلدته إلى نيجيريا (عام ١٩٥٧) في كتاب هو بمثابة سيرته الذاتية ، عنوانه « هبوطاً نحو الشارع الثاني » ترجم إلى اللغة الفرنسية . وفي نيجيريا ، حيث غدا أستاذاً ، أدرك أن عليه أن يتعلم الأدب الأفريقي وأن يغتذي بالثقافة الأفريقية التي ما تزال صلبة العود ، رغم غزوات الثقافة الأجنبية . وفي ذلك العام (عام ١٩٥٧) كان الأدب النيجيري في أوج تفتحه ، وبدأ كبار الكتاب بنشر مؤلفاتهم الأولى . ومن هنا أنشأ وإياهم نوادي للكتاب والفنانين . بل تعلم الفرنسية ليقرأ نتاج الكتاب الأفريقيين الذين يكتبون بالفرنسية . إن دور الكاتب ، كما يقول ، هو أن ينقل الأحداث والمشاعر من خلال الخيال أو الشعر أو المسرح أو المقالة . وفي أفريقيا الجنوبية للكاتب دور إضافي هو ، على حد قوله ، أن يصف آلام المضطهدين ؛ وأن ييسر للشعب فهم معنى اضطهاده ، وأن يوحي إليه بالوسائل التي تجعله ينزع نير هذا الاضطهاد عنه » . وقد منعت كتبه عام ١٩٦٦ وأخضعت للرقابة .

٢ - المهاجرون في فرنسة و « فلسفة الدمج » :

كلنا يذكر تلك الأجواء المحمومة التي اجتاحت فرنسة في أواخر العام الماضي ، والتي كان محورها « مشكلة الحجاب » وإطارها مشكلة « المهاجرين » في فرنسة وما رافق ذلك من دعوات « لتنظيم » الجماعات الإسلامية في فرنسة !

وقد استمرت هذه المشكلة حية ، بأشكال مختلفة . لا سيما بعد أن طُرحت مسألة مشاركة المهاجرين في التصويت في الانتخابات المحلية .

غير أن من الهام أن نتحدث عن مذهب الدولة في ميدان الهجرة هذا ، لا سيما أن هذا المذهب الذي بدأ يتبلور شيئاً بعد شيء في الآونة الأخيرة يحمل معاني ثقافية ينبغي أن تناقش . وتنطلق نظرية الدولة هذه من مبدأ قوامه أن معظم المهاجرين سوف يبقون في

فرنسة ويقيمون فيها إقامة دائمة . ومن هنا فالمسألة عند الدولة ليست «مسألة تعايش بين جماعات لا يرتد أحدها إلى الآخر» . وإنما هي مسألة إتاحة الفرصة «لكل أسرة» (أوجماعة) من أصل أجنبي لأن « تكتسب المواطنة الكاملة » ، انطلاقاً من المبادىء الفرنسية الأساسية ، مبادىء العلمانية والتسامح والتضامن . ومن هنا ينبغي أن تعامل هذه الجماعات معاملة سواها انطلاقاً من مبادىء الحق العام ، وينبغي ألا تكون هنالك نظم خاصة أو مؤسسات لها طابعها النوعي المميز .

وواضح أن هذه الفلسفة التي تبدو في ظاهرها فلسفة منطلقها المساواة بين المواطنين الفرنسيين جميعهم ، مهاجرين كانوا أو أصليين ، تناقض سائر الاتجاهات الحديثة التي ينادي بها المفكرون وتدعمها المنظمات العالمية والمنظمات التابعة لهيئة الأمم المتحدة بوجه خاص ، تلك الاتجاهات التي تؤكد حق كل جماعة في المحافظة على هويتها الثقافية وأصالتها الذاتية . ولئن كان في المذهب الذي تجنح الحكومة الفرنسية إلى الأخذ به جوانب إيجابية تتصل بحقوق المهاجرين وبضرورة تحسين أوضاعهم الحياتية والاجتماعية وبلوغهم شأن سواهم من المواطنين ، فإن هذا المذهب يمضي بعيدا في عملية « الدمج » ويبسّط المشكلة حين يظن أن من السهل (فضلا عن أنه من غير الجائز) إذابة الثقافة العربية الإسلامية لدى المهاجرين العرب والمسلمين في فرنسة في بوتقة ثقافة فرنسية جامعة . بل لعل هذه « الإذابة » وذلك « الدمج » ليسا من مصلحة تلك الثقافة الفرنسية التي تغتني دون شك عن طريق حوارها مع الثقافات الأخرى لا عن طريق طمسها لها ، والشعار الواجب والممكن هو عندنا شعار « بناء مجتمع متنوع الثقافات » ، وليس الشعار السليم والممكن هو بناء مجتمع وحيد الثقافة أو مسطّح الثقافة كما يقال .

وفي هذا الإطار نقع على مقالين هامين نشرا متقابلين في صحيفة «الموند» بتاريخ ٨ شباط/ فبراير ١٩٩٠ ، الأول للأستاذ المغربي « جمال الدين بن شيخ » ، أستاذ الأدب العربي في العصر الوسيط في جامعة باريس الثامنة . والثاني بقلم المستعرب الشهير « أندريه ميكل Andrie Miquel» الأستاذ بالكوليج دي فرانس . وكلا المقالين يتحدثان بأسلوب رائع عن زيف المشكلة ، مشكلة المهاجرين العرب إلى فرنسة . فالأستاذ « بن شيخ » يحدثنا عن « تعايش » الثقافة العربية والثقافة الفرنسية لديه ، وعن اغتذائه بكلتيهما ، وعن انعدام التعارض بينهما في أعماق فكره ونفسه . والأستاذ « ميكل » يحدثنا عن امتزاج الثقافة العربية لديه بالثقافة الفرنسية ، حتى أنه يقرض الشعر باللغة العربية . وينادي بدولة فرنسية « لا تستبعد أحداً » ، ولا تنكر أي ثقافة . ولا يرى أي حرج في أن تكون فرنسة « بلد الإسلام » (بل هي اليوم كذلك) مادام كل من الطرفين يحترم الآخر . وليس الهام في نظره أن يختار المسلمون الذين يعيشون في فرنسة سبيل الإندماج بالثقافة الفرنسية أو سبيل التعلق بحضارتهم وثقافتهم الأصلية ، بل الهام أن يكونوا أحراراً في اختياراتهم ، سواء منها الاقتصادية أو التشريعية أو الثقافية . ويشير من خلال تجربته الشخصية ، إلى اغتناء كل من الثقافة العربية والثقافة الفرنسية بعضهما ببعض ، ويقول في هذا : « من ذلك الكنز الهائل من الأدب العربي خلال أربعة عشر قرناً ، حفظتُ بعض النصوص التي أرتبطُ بها اليوم ارتباطاً جوهرياً لا يقل عن ارتباطي بأفضل ما أحب من كنوز أوروبا وكنوز فرنسة الأدبية » .

رابعاً : كتب جديدة هامة

كما ذكرنا في مطلع هذه الرسالة ، تغص أسواق باريس في هذا الفصل بالنتاج الغزير

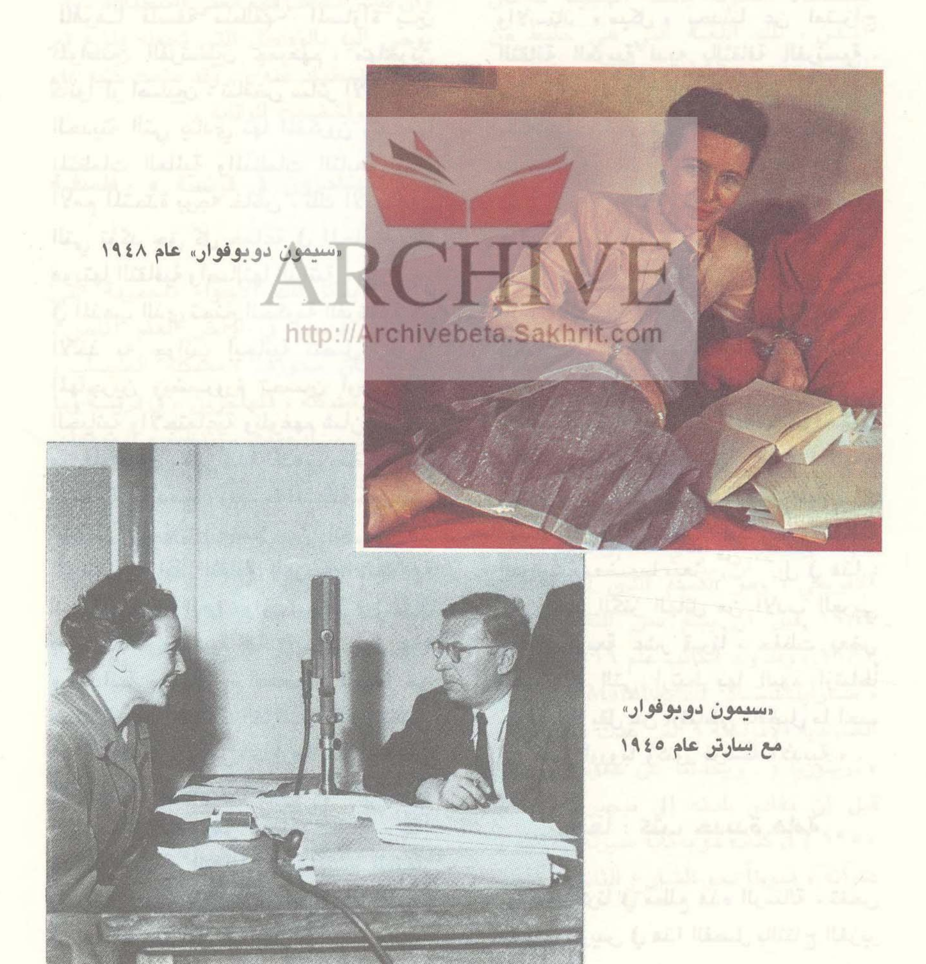
المتدفق . ومعظم هذا النتاج قمين بأن نتريث عنده . ولكن لابد مما ليس منه بد . لابد من الاقتصار على القليل من كثير الكثير .

١ ـ رسائل «سيمون دوبوفوار» إلى « سارتر » :

عنيت الصحافة عناية فذة برسائل « سيمون دوبوفوار » إلى « سارتر » ، تلك الرسائل التي نشرتها دار « غاليمار » مؤخرا في مجلدين كبيرين : أولهما يخص الفترة الواقعة بين ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩ (في ٤٠٦ صفحات) ، وثانيهما يخص الفترة الواقعة بين ١٩٤٠ ـ ١٩٦٣ (في ٤٥٠ صفحة) .

ومعظم هذه الرسائل التي نشرت حديثاً ، نعني رسائل دوبوفوار إلى سارتر ، كانت بفضل انفصالهما أحدهما عن الآخر في بعض الفترات . وأكثرها تم تبادله عندما كان « سارتر » يشارك في الحرب العالمية الثانية ، جنديا ثم سجيناً ، بينما كانت هي رابضة بالنيابة عنه بباريس عند ساحة « فافان » الشهيرة بمقاهيها ، تستقبل الأصدقاء والصديقات والرائح والغادي . وكان عمر سارتر في ذلك الحين ثلاثاً وأربعين سنة ، وعمر دوبوفوار إحدى وثلاثين سنة .

لقد كان يغلب على الظن حتى حين ، أن تلك الرسائل التي تكمل رسائل سارتر إلى



«سيمون دوبوفوار» عام ١٩٤٨

«سيمون دوبوفوار» مع سارتر عام ١٩٤٥

سيمون دوبوفوار ـ التي نشرت عام ١٩٨٣ تحت عنوان « رسائل إلى كاستور » (وكاستور هو الاسم الذي أطلقه سارتر على « سيمون »)ـ قد فقدت . فإذا بها تظهر صدفة بعد وفاة « سيمون دوبوفوار » عن طريق ابنتها بالتبني . وقد نشرت هذه الرسائل كما هي ، دون أي رقابة عليها ، بخلاف ما كان عليه الأمر عندما نشرت رسائل سارتر إلى « كاستور » ، باعترافها هي نفسها . وتحتفظ المكتبة الوطنية بجميع المراسلات بين سارتر وبفوار كاملة تقريباً . ومن هنا ينتظر الناس صدور مؤلف كامل يتيح الكشف عن « قصة حياة » الكاتبين كاملة غير منقوصة .

في هذه الفترة كانت « سيمون» تكتب إلى سارتر كل يوم تقريباً (وكان هو أيضاً يفعل مثل ذلك) ، وقد عزما على أن يبوح كل منهما للآخر بكل شيء . وهكذا حكت له في رسائلها قصة حياتها اليومية بدقائقها ، من خلال روح مضحكة وحرية في التعبير يصعب تخيل مثلها . لقد كانت شرسة في الملخصات التي كانت تقدمها لما تقرأ من كتب . وكانت لاذعة في تصويرها للناس ، وفي وصفها لأنماط السلوك التي تبدو لها كريهة . وكانت رقيقة مع الأشخاص الذين تجد لديهم الكرم والجمال ، بينما لا تعرف الرحمة مع الأشخاص الجفاة الأدعياء ...

ولم تغفل في هذه الرسائل الحديث عن نزهاتها ووصف مشاهد الطبيعة التي تمر بها ، رغم أن « سارتر » ، كما هو معروف ، لم يكن يشاطرها تذوقها للطبيعة . وطبيعي أن تتحدث في هذه الرسائل عن حياتهما الخاصة المشتركة وعن أسرارهما وعن دخائل أجوائهما العاطفية ، وأن تتحدث كذلك عن مشكلاتهما المالية . ولكن عبر هذا كله ، يقع القارىء على تأملات عميقة في الحياة ومعانيها ، وعلى الأسلوب الفريد في التفكير الذي لا يفقد صاحبه مع ذلك الرغبة في أن يحيا حياة مليئة عامرة ، وعلى تلك الإرادة الخارقة التي ترفض الرضوخ والاستسلام .

٢ - كتاب عن « الاشتراكية - الديمقراطية » :

في حميا التغيرات السريعة التي تمت في بلدان شرقي أوروبا ، خطر لكثير من الكتاب ، وهم يبحثون عن بديل للنظام الشيوعي الذي اهتزت أركانه ، أن يعودوا من جديد إلى نظرية « الاشتراكية - الديمقراطية » التي نادى بها كما نعلم ، منذ مطلع الثورة الشيوعية ، « كاوتسكي Kautsky » و « باور Otto Bauer » وسواهما .

ومن أبرز من أغراه هذا العود إلى « الاشتراكية - الديمقراطية » كاتبان فرنسيان هما « آلان بيرغونيو Alain Bergouniouse» و « برنار مانان Bernard Manin» في كتاب ظهر لهما مؤخراً عنوانه « النظام الاشتراكي - الديمقراطي » ، نشرته « دور النشر الجامعية P U F » (في ١٩٠ صفحة) .

على أن قصة هذين الكاتبين مع الاشتراكية الديمقراطية ليست حديثة ، ولا تنبع من أحداث أوروبا الشرقية وحدها . ففي عام ١٩٧٩ نشرت « دور النشر الجامعية » أيضاً لهما كتاباً عنوانه « الاشتراكية الديمقراطية أو الحل الموفّق » . وفيه يتحدثان عن مراحل نشأة هذه النظرية وعن جذورها في فرنسة وسواها ، وعن « كاوتسكي » بوصفه نداً لـ « لينين » وضداً له . وعن مرحلة فضح هذه النظرية ثم عن أنواعها .

أما كتابهما الجديد فيعاودان فيه الكرة مسلحين بمعطيات جديدة وبحقيقة



« يا عمال العالم اتحدوا» رسم بريشة «ستينلن Steinlen» في خاتمة القرن التاسع عشر

هامة عندهما ، وهي أن الدول التي تأخذ بنظام الاشتراكية الديمقراطية الآن (وهي ألمانيا والسويد والنروج والنمسا) استطاعت أن تجتاز الأزمة الاقتصادية الأخيرة بنجاح أكبر من سواها .

ذلك أن مزايا هذا النظام ، في نظرهما ، أنه يرتبط في جذوره العميقة بالحركة العمالية وأنه يحمل على الديمقراطية البرلمانية حين لا تقوى على تمثيل هذه الحركة ، وحين تمثل على العكس من ذلك سيطرة البورجوازية وهذا التمثيل البرلماني الخاضع للبورجوازية ما يزال هو السائد في معظم الدول الرأسمالية ، على عكس ماهي عليه الحال في الدول التي تبنت الاشتراكية الديمقراطية مثل ألمانيا والنمسا والسويد . ففي هذه البلدان يتم تنظيم المصالح العمالية قبل إقامة نظام التصويت العام أو جنباً إلى جنب معه . والتساوي في الحقوق السياسية وتخفيف الفروق الطبقية وتحقيق العدالة الاجتماعية أمور تسير في هذه البلدان في موازاة الحريات السياسية والديمقراطية .

لقد عارض الاشتراكيون ـ الديمقراطيون حوالي عام ١٩٢٠ ، بزعامة « كاوتسكي » أتباع لينين . ورفضوا خلافاً لهم ، اللجوء إلى العنف ومبدأ الوصول إلى السلطة عن طريق سيطرة أكثرية برلمانية . ومع ذلك كانوا مثلهم حريصين على إحداث انقلاب فعلي وثورة فعلية في حياة المجتمع عن طريق امتلاك المجتمع لوسائل الإنتاج .

على أن التطور الحاسم لديهم اكتمل ونضج عام ١٩٦٠ . فإلى جانب المنافسة الانتخابية بين العديد من الأحزاب السياسية ، بدا لهم أن التعددية تعني أيضاً أن ثمة وجوداً مشروعاً في أي مجتمع للعديد من المصالح المتنافسة والمتصارعة . وهكذا فعلى حزب الأكثرية ، بدلاً من ممارسة سلطة مطلقة ، أن يخفف من سلطانه ويقيده بأن يأخذ بعين الاعتبار إرادة الأقلية ومصالحها ، بحيث يقيم معها في نهاية الأمر ضرباً من الوفاق .

ماذا يستطيع أن يقدم نظام « الاشتراكية ـ الديمقراطية » من حلول للمعادلة الصعبة ، معادلة التوفيق بين الديمقراطية السياسية (بمعنى الحريات السياسية الفردية) وبين الديمقراطية الاجتماعية (بمعنى التحرر من قيود التخلف والفقر والمرض والجهل) ؟ سؤال ليس من أغراض هذه الرسالة الإجابة على مثله ، فضلاً عن أنه يلتهم الصفحات بل المجلدات . غير أن

الاطلاع على هذه النظرية ، فيما نرى ، اطلاعاً دقيقاً وعميقاً ، خطوة لابد منها في معركة البحث عن نظام اجتماعي جديد بإنسان القرن الحادي والعشرين .

٣ - « بول كينيدي» يكتب عن القوة والثروة :

من الكتب الهامة التي ترجمت إلى الفرنسية ولقيت رواجاً واسعاً كتاب المؤرخ البريطاني « بول كينيدي Paul Kennedy » بعنوان « بزوغ القوى العظمى وأفولها » . وقد نشرته دار « بايو Payot » (في ٧٣٠ صفحة) . والكتاب تحليل عميق وشامل ، منذ عصر النهضة الأوروبية حتى اليوم ، للتطور المتلاحم للقوى العسكرية والموارد المالية للدول العظمى .

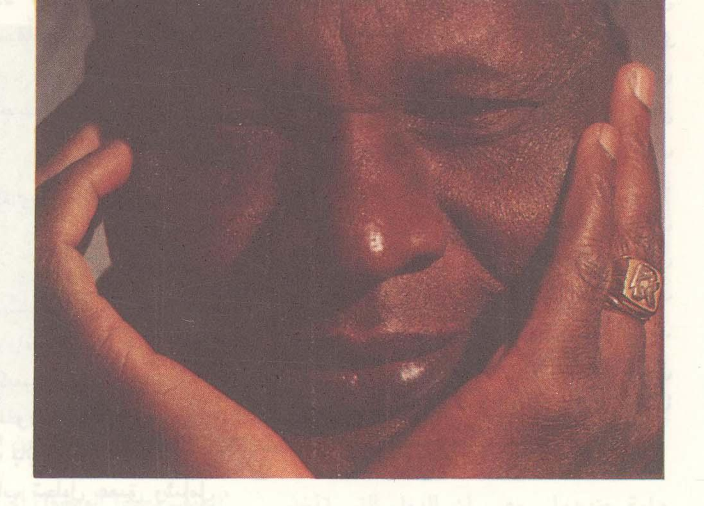
وقد ظهر الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٨ ، ولقي في الولايات المتحدة رواجا خاصاً لا يرجع إلى هذه النظرة الخلفية إلى القرون الخمسة الماضية ، بمقدار ما يرجع إلى النظرات والإرهاصات المستقبلية التي نجدها في الفصل الأخير حول المستقبل الممكن للخمسة الكبار اليوم ، وبوجه أخص إلى الرؤى المتشائمة نسبياً التي توحي إليه بها حال الولايات المتحدة . ذلك أن الكاتب يرى أن الوضع المتحرك والمتغير لعلاقات القوى في العالم يوحي بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يفقدان بعض سرعتهما ، بينما تصعد دول كاليابان والصين ، وبينما المجموعة الأوروبية تحمل مفاجآت يصعب التنبؤ بها .

هذه النبوءات يقدم الكاتب بين يديها حججاً مكينة ، ولكنها ترتد في نهاية التحليل إلى المتغير الأساسي الذي اصطنعه الكاتب مقياساً لتحديد مسيرة المجتمعات ، نعني العلاقة بين القوة الحربية والإمكانات الاقتصادية . وهي علاقة ذات معنى ملتبس مزدوج : ففي مرحلة أولى يكون النمو الاقتصادي شرطاً للقوة الحربية ، وفي مرحلة ثانية تغدو النفقات الحربية عبئاً على الاقتصاد وعلى نمو الانتاج . وقد يكون كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد أدرك هذه المرحلة التالية ، الأمر الذي يجعل كثيراً من المسؤولين الأمريكيين ينبهون إلى مخاطر هذا المصير . وعلى العكس من ذلك يرى « كينيدي » أن الصين واليابان قد عرفتا أن تبقيا نفقاتهما العسكرية ضمن الحدود المعقولة ، مما ييسّر لاقتصادهما الانطلاق حاضراً ومستقبلاً .

٤ - ترجمة رواية شهيرة للكاتب الأفريقي « أحمده كوروما Ahmadou Kourouma» :

تمت في الآونة الأخيرة ترجمة رواية للكاتب الأفريقي الشهير « أحمده كوروما » وعنوانها « موني ، إهانات وتحديات » ، وقد نشرتها دار « سوي » بباريس . ولقد كان جديراً بهذه الرواية أن تسمى « قصة سنوات الرمل والدم والجيفة » ، بدلاً من ذلك الاسم الرمزي « موني Monne» ، الذي يعني في آن واحد الإهانة والازدراء والتحدي والإذلال والغضب المستطير .

وصاحب الرواية كاتب أفريقي عملاق ، من ساحل العاج ، له من العمر ثلاثاً وخمسين سنة . وقد عاش دوماً على دروب النفي والاضطهاد ، فلقد طرد من « باماكو» وهو بعد مراهق ، لمشاركته في إضراب للطلاب . وبعد سنوات نفي إلى الهند الصينية بعد أن رفض الإسهام في قمع «التجمع الديمقراطي الأفريقي » . وفي عام ١٩٥٣ اتهم بالمشاركة في مؤامرة ، وفقد على أثر ذلك عمله ولجأ إلى الخارج ، إلى فرنسا ثم



الكاتب
«أحمدوه كوروما»

الجزائر . وهكذا تتوالى في حياته المحن ويعرف دروب الشوك صبياً ويافعاً وكهلاً .

وفي عام ١٩٦٠ يمسك بالقلم ويخط روايته الأولى « شمـوس الاستقـلال » ، وتنشر الرواية أولا في كندا ثم تنشرها بعد عشرين عاماً دار نشر «سوي» في فرنسا . وتثير الرواية فضائح كثيرة .

ويكتب بعد تلك الرواية الأولى مسرحية عنوانها «قوّال الحق » .

ويكتب ويكتب ، وأخيراً يكتب روايته التي نحن بصددها والتي هي جديرة بأن نعدها إحدى الحجارة الأساسية للرواية الأفريقية المعاصرة . وفيها يقدم وصفاً لا يعرف الرحمة لمغامرة القارة الأفريقية .

● ● ●

● **وفاة الأستاذ الشاعر (داماسو ألونسو Damaso Alonso) :**

توفّي بمدريد في الخامس والعشرين من كانون الثاني /يناير الأستاذ الشاعر (داماسو ألونسو)، بعد مرض عضال أقعده في منزله خلال عدّة شهور، عن عمر ناهز الثانية والتسعين، وقد أقيمت له جنازة مهيبة شارك فيها كبار الأدباء والمفكّرين الأسبان الذين شارك بعضهم في إلقاء حفنة من التراب على جثّته الهامدة في مقبرة «المدينة» (Almudena) هي كلمة من أصل عربي، تصغير لكلمة المدينة المستعملة في الأسبانيّة كذلك

ولد (داماسو ألونسو) في مدريد عام ١٨٩٨ من أسرة غنيّة ليبراليّة، وهو شقيق الناقد المعروف (أمادو ألونسو Amado Alonso) الذي تخصّص في دراسة أدب أمريكا اللاتينيّة حيث عاش ومات فيها. حصل على الاجازة في الحقوق وعلى الدكتوراه في الأدب من جامعة مدريد المركزيّة، ثمّ عمل أستاذا للغة الأسبانيّة وآدابها في عدّة جامعات أجنبيّة وبخاصّة في انجلترا والولايات المتحدة الأمريكيّة، وفيهما تعلّم اللغة الانجليزيّة وترجم بعد ذلك إلى الأسبانيّة قصائد الشاعر الإرلنديّ (جويس) (Joyce). ولعلّ أهمّ دراساته

(داماسو الونسو) ـ الأول في الصف الثاني من اليمين ـ وإلى جانبه (اليكساندره) وبينهما في عمق الصورة ـ (غارثيا لوركا). وظهر في الصورة بعض أعضاء «جيل السابع والعشرين» من شعراء ورسامين.



هي شروحه لقصائد الشاعر القرطبيّ (لويس دى غوغونغورا Luis de Gongora) من القرن السابع عشر ، الذي كان يشبه أبا تمّام في غوصه على المعاني وفي استعارته عويصة الفهم إذ لم يكن يقول بل كان يريد أن يُفهم ما يقول وكان هذا أمرا صعبا إلى أن جاء هذا العلامة الأسبانيّ ففسّر شعره إلى القرّاء وإلى الشعراء كذلك ، فانعقد شمل بعضهم في أحد نوادي أشبيلية عام سبعة وعشرين من قرننا هذا لإحياء انقضاء ثلاثمائة سنة على وفاته ، وكان (داماسو) من أبرزهم بالإضافة إلى (لوركا) و (البرتي) و (خيراردو دييغو) و(بيثينته اليكساندره) وغيرهم ، وهذا الأخير نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٧وذلك تكريماً له ولشعراء جيله الذين عُرفوا باسم جيل السابع والعشرين ، وقد وصف (داماسو) هذا الجيل بأنّه « بدأ في برودة هادئة وانتهى إلى عاصفة هائجة » .

أمّا أهمّ ديوان شعر له فهو بلا شكّ « أبناء الغضب » (Hijos de La ira) الذي نشره عام ١٩٤٤ وأهداه إلى أستاذنا (أميليو غارثيّا غوميث) الذي أهداه بدوره ترجمته لكتاب ابن حزم « طوق الحمامة » ، وكانا زميلين في المجمع الملكيّ للغة الأسبانيّة الذي ترأسه (داماسو) خلال سنوات عديدة إلى أن استقال من الرئاسة قبل عشر سنوات من وفاته . وفي هذا الديوان تعبير عن غضب جيل من الأسبان بعد انتهاء الحرب الأهليّة الأسبانيّة ، وإليكم ثلاث قصائد من شعره المكتئب ، والاكتئاب سمة من سمات الشعر الأسبانيّ :

علم الحبّ

« لست أدري ،
لا أدرك في ينبوع عينيك
ألاّ الخبر القاتم الإلهيّ ،
لا أحسّ في شفتيك
إلاّ مداعبة عالم سنابل مذهّبة
مداعبة سماويّة .
هل أنت بلّور صاف
أم أنت عاصفة جليديّة مدمّرة ؟
لا ، لست أدري .. عن هذه اللذّة
أنا لست أعرف غير جشعها الدنيويّ
وغير الخفق الفلكيّ الذي به أحبّك
أنا لست أدري
هل أنت ممات
أم أنت حياة ؟
هل أنادي الله
أم أناديك حين أناديك ؟
أأنت خيزران في الماء ،
أم أنت حجر أصمّ مكلوم
لست أدري
إلاّ أنّ المساء شاسع وجميل ،
لست أدرى
إلا أنّني إنسان
وأنّني أحبّك .»

مـوت

«عبر صحراء من ضباب ،
قافلة الليل ،
الريح تحكي لليل
سرّك ،
والصدى
تحمله إليك بومة عمياء في الإياب
ـ حمامات الليل ـ أعمى .
عبر المدى
عوالم باردة تحت أقمار
وضباب ، تموت
لمعرفة الموت لابدّ من الخلود .
عوالم من ضباب
شيئا فشيئا

تعطّل لك عظاما
أقداما وسواعد
قلبا
ـ مصباح صدرك ،
مهرجان حزيران ،
إلى النهر ـ
عوالم من ضباب
حيث حفرة سوداء ،
أجفاف من أشباح
مطرقة الصدى ربح ـ
سلّة من وضوح
ظلال ،
تُبنى لك .»

نحن نعدّ النجوم

« أنا متعب ،
أرى هذه المدينة
ـ أيّة مدينة ـ
حيث أعيش منذ عشرين عاما ،
كلّ شيء كما كان ،
هناك طفل في الشرفة المجاورة
عبثا يعدّ النجوم
وأنا أتهيأ للعدّ ...
غير أنّه يشعر أكثر منّي
فلا أتمكّن من مجاراته ،
واحدة ،
اثنتان ،
ثلاث ،
أربع ،
خمس ...
لا أتمكّن من مجاراته
واحدة ، اثنتان ، ثلاث ..
أربع ....
خمس ...» .

وقد نعته كافّة الصحف الأسبانيّة الصادرة في اليوم التالي على وفاته . فَمِمّا جاء في افتتاحيّة صحيفة « البايس » نقتطف ما يلّي : « أمّا كانت للبلدان روح فإنّ الشعر ينطق عنها ، واسم (داماسو الونسو) الذي فارقنا في التو ! هو رمز لهذا الشعر كما هو رمز لتاريخنا ..» ، أمّا أنا فإنّني تغنّيت بالموشّحة التي طالما طلب منّي أن أغنّيها له في العشيّات التي كنّا نلتقي بها : هل تستعاد أيّامنا بالخليج وليالينا ؟.

● الاقتصاد يغلب الأدب في المجمع الملكيّ الأسبانيّ للغة :

كان الناس ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة تصويت الخالدين في المجمع الملكيّ الأسبانيّ للغة لاختيار أحد المرشّحين الاثنين (فرانثيسكو اومبرال Francisco Umbral) و (خوسه لويس سامبيدرو Jose Luis Sampedro) لشغل الكرسيّ رقم «ف» (F) الذي شغر بوفاة (مانويل الكون) الذي أطلق النار على رأسه عن غير قصد ، كما ذكرنا ذلك في تقرير سابق ، ولكنّ الطامّة الكبرى وقعت بوفاة (داماسو ألونسو) الذي كان رئيسا لهذا المجمع ، ممّا جعل التصويت يتأخّر أسبوعا آخر ، فظلّ الناس يتلّهفون لمعرفة

فريق من أعضاء المجمع الأسبانيّ الملكيّ للغة ، بعد خروجه من جلسة التصويت .



الفائز منهما ، وكان معظمهم يميل إلى (أومبرال) الشهير جدّا بمقالاته الصحفيّة الجريئة اللاذعة بالإضافة إلى رواياته الجيّدة الكثيرة .

وهرع الصحفيّون والمتطفّلون إلى بوابة هذا المجمع الذي يقع في قصر كبير جميل جدّا خلف متحف « البرادو » (EL Prado) الذي يطوف الزّوار حوله لأنهم لا يستطيعون مزاحمة السوّاح الأوربيّين والأمريكيّين المصطفّين عند مدخل هذا المتحف منذ الساعات الأولى من الصباحَ ، وبين كلّ سائح أوربيّ طويل وآخر أمريكيّ ضخم ثلاثة



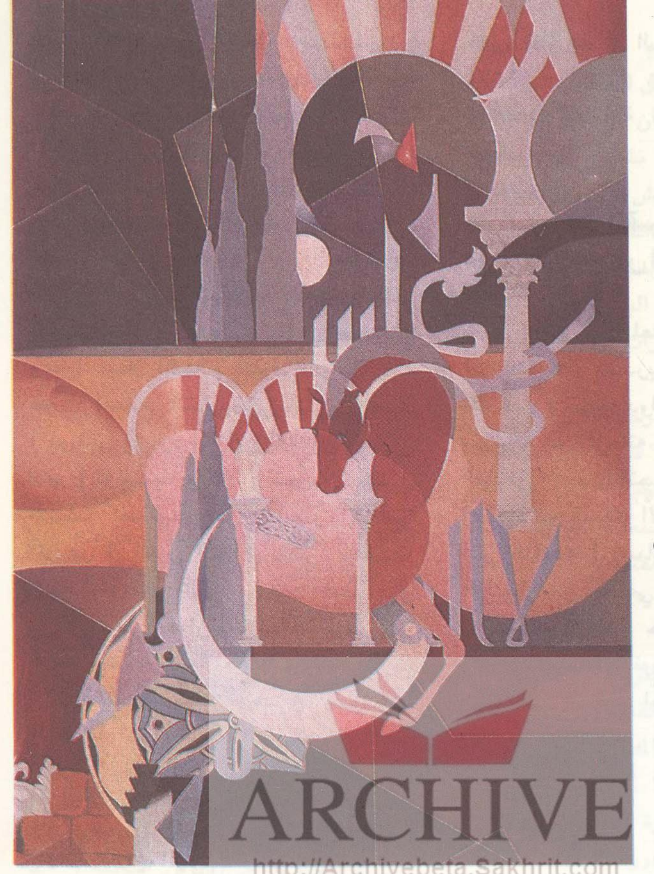
الروائيّ - الاقتصاديّ (سامبدرو)

يابانيين على الأقل لا يُرون من بعيد ، للولوج إليه بغية التفرّج على أهمّ معرض للرّسام الأسباني (بيلاثكيث Velazqtiez) ، ولسوف نتحدّث عن هذا في تقريرنا القادم إن شاء الله . وفي تمام الساعة الثامنة والربع مساء من يوم الخميس الواقع في الأول من شباط /فبراير فتح مصراع الباب ، الأمين العامّ لهذا المجمع الشاعر (خوسه غارثيّا نييتو Hose Garcia Nieto) ليخبرهم بما مفاده أنّ الاقتصاد غلب الأدب في المجمع إذ قرّر أغلبيّة الخالدين اختيار (خوسه لويس سامبيدرو) .

ولد هذا الكاتب المختّص كذلك بالاقتصاد في برشلونة عام ١٩١٧ ، وحين بلغ الثلاثين من عمره نال جائزة عن روايته « ظلّ الأيام » (La Sombra de Los Dias) وبعد أربع سنوات حصل على جائزة (كالديرون لا باركا Calderon de la Barca) - كاتب أسباني من القرن السابع عشر - عن روايته الثانية « حمامة من ورق » (La Paloma de Cartion) ، وفي العام التالي نشر رواية حازت على الشهرة الواسعة ، وهي « مؤتمر في استوكهلم » (Congreso en Estocolmo) وفي عام ١٩٥٥ دشّن مسرحيّته « مكان للحياة » (Un Sitio Para Vivir) وفي عام ١٩٧٠ ظهرت له رواية « الحصان العاري » (El Caballo Desnudo) . أمّا أهمّ رواياته وأكثرها شهرة فهي : « أوكتوبر ، أوكتوبر » (Octubre, Octubre) ١٩٧٠ و« النهر الذي يحملنا » (El Rio Que Nos Lleva) ١٩٦١ ، أوردناهما حسب ترتيب الأهمّيّة . غير أنّ أهمّيّته ترجع إلى دراساته عن الاقتصاد ، وقديما قيل : أدركتني حرفة الأدب ، أمّا هو فقد عوّض عن مهنة الفاقة والفقر بمهنة المال ، وكلمة « مالْ » بالأسبانيّة تعني : الشرّ ، وقد جلب له المال الخير الكثير فصار من الخالدين ، ومازال الكاتب الآخر عاكفا على مهنة الفقر .

● الرسم يستوحى من الشعر العربيّ :

أقامت الرّسامة (كريستينا بركالا Cristina Barcala) التي تفتخر دوما بأنّها من أصل عربيّ وأنّ اسم عائلتها هو بركة الله ، معرضا لرسومها المستوحاة من الشعر العربيّ ، في ايوان - أقترح هذه الكلمة لكلمة « غاليري » (Galeria) اللاتينيّة - « دكال » (Dacal) بمدريد ، وذلك من التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير حتى الثامن عشر من شهر شباط/ فبراير من



لوحة «البكاء على اطلال مدينة الزهراء» للرّسامة (كريستنينا)

هذا العام . وفي حفل الافتتاح الذي حضره عدد كبير من عشّاق الرسم ومن أصدقاء العرب ألقى كاتب هـذا التقريـر بعض القصائد التي استوحت منها هذه الرّسامة المبدعة المطلّعة على الثقافة العربيّة المولعة بها وبالعرب ، وكانت قد دعيت مرّتين إلى بغداد لحضور المهرجان الدوليّ للفنون التشكيليّة وذلك عامي ١٩٨٦ و١٩٨٨ ، وكان يرافقني أثناء إنشاد الشعر بالعربيّة والأسبانيّة عازف للقيثار يموسق على أوتاره أنغاما أندلسيّة عاطفيّة شجيّة للبكاء على أطلال مدينة الزهراء : « مدينا ثآرا » ، « مدينا ثآرا » ،

قفا نبك هذي الديارا
وتلك الديارا
ويهطل فوق «مدينة ثآرا» وخيم المطرْ
تتاوش شَعري الخفافيش قبل ولوج السحرْ
.... فلسطين زهراء ! اهذي قبور بني مُضرْ
اتخذيها قوارير عطر وبلسمْ
وخلّي السبيل لأعمى بصير
فإنّي أعود غدا أو بعيد غد الله أعلمْ
وللتأسي على سقوط غرناطة :
آهِ غرناطة ، لو تعطينني الثلج وأوتار القمرْ
أبدا قلبي على ابني وقلب ابني حجر
آه ما أقسى العمى فيك وما أقسى البصرْ !
فلياليّ على أعتاب بابكْ
ودمي الأحمر آجرّ رحابكْ
وأنا المنفيّ من جنّات غابكْ
جئت ، غرناطةُ ، شاميّ الألمْ
ناصريّ الجرح ، لوركيّ النغمْ

جئت أعطيك فمي ، أعطيك دمْ
آه ، غرناطةُ لو تعطينني الثلج وأوتار القمرْ !
آهِ ما أقسى العمى فيك وما أقسى البصر !
آهِ لو أنّك قلبي ! آه لو أنّي حجر !.

وقد تحدّث نقّاد الفنّ عن هذا المعرض الهامّ الذي لم يحضره ، مع الأسف أيّ مسؤول عربيّ في العاصمة الأسبانيّة التي تشهد نشاطا واسعا للاعلام الصهيونيّ وغيابا كاملا للاعلام العربيّ ، وممّا قاله عضو المجمع التاريخيّ الملكيّ الأستاذ (غونثالو آنيس Gonzalo Anes) : إنّ لدى (كريستينا بركالا) لتجربة كبيرة في الرسم المستوحى من الشعر الأندلسيّ المزدهر في القرن الحادي عشر . ومعروفة لدينا معارضها التي برهنت فيها على سيطرتها على الألوان واتقانها للخطوط . وقد عرفت ، كونها مطلعة اطلاعا عميقا على تاريخ فنّ الأندلس ، كيف توّحد في رسوماتها ولوحاتها أجواء العالم الإسلاميّة والشعر الأندلسيّ والفنّ العربيّ . وهي الآن تبيّن لنا مدى تطوّرها في السيطرة الكاملة على الأشكال والألوان مع احتفاظها بالوفاء لمفاهيمها الجماليّة التي هي رمز للكمال الربّانيّ ..!!.

● الرّسام القرطبيّ (خوسه دوارته) يعرض لوحاته في مدريد :

في إيوان الفنّ المعاصر (Galeria Duris de Samos) بمدريد ، عرض الرّسام القرطبيّ (خوسه دوارته Hose Duarte) مجموعة من لوحاته الزيتيّة ذات الطابع الواقعيّ الآخذ بالاتجاه نحو الذاتيّة ، وهذا الاتجاه هو السائد الآن في معظم اللوحات التي نشاهدها في أسبانيا بعد أن كان الاتجاه الواقعيّ هو الطاغي خلال الخمسينات والستّينات ، وذلك خلال شهري كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير . وقد رغب هذا الرّسام ابن عاصمة الخلافة الأمويّة في الأندلس أن أنشد نماذج من قصائدي بالعربيّة والأسبانيّة في حفل

لوحة «الفراغ» للرسام القرطبي (دوارته)



الافتتاح فلّبيت متغنّيا بأمجادنا العريقة الخالدة ، وقد قدّمني إلى الحاضرين الشاعر الأسبانيّ (خابيير بيّان Havier Villan) الذي أنشد بدوره « نشيدا إلى المقاومة الفلسطينيّة » ، (درويش ، فدوى طوقان ، سالم جبران ، زيّاد ، القاسم) ،
أنتم تبكون فلسطين وسيل الدموع
يلّقح الضمائر ، يرفع البيارق .
غاضبة هي المجازات والاستعارات ،
ساخطة قواعد النحو
تلعن الغازي اللئيم وترجمه .
الشعر ليس بحسام ولا قذيفة أو رصاصة .
إنّما الشعر لضمير عقيم .
بين غابات الزيتون المسمّدة بالبارود
يقصف رعد صوتنا المسهّد .
أفواه مليئة بالدماء المسفوحة كمسيل التيّار ،
طير يحلّق وغصن الزيتون بين أسنانه
والبندقيّة في القبضة والقنبلة فوق الأجنحة .
أيّتها القرى ، أيّتها المدن ، أيّتها الأرض السليبة
يا سكّان زوايا المعمورة الأربع
حيث الحريّة مهزلة مفروضة
حيث الكون نهب غزو البرابرة
حيث الرعب يملأ المنازل
والضحكات والكلمات والعيون والأيدي
حيث الحرمان يسود والجوع لا يرحم
حيث تشحن مستودعات العظام وتكتظ السجون .
يا شعراء المقاومة الفلسطينيّة
(درويش ، فدوى طوقان ، سالم جبران ، زياد القاسم) ،
إنّكم تبكون فلسطين ، تناضلون من أجل فلسطين ، تموتون في سبيل فلسطين ، وفي شعبكم تعشقون ،
المأساة الكونيّة للإنسان المنفيّ .
رايتنا واحدة ، غضبنا متحد .
أيّها الشعراء الفلسطينيّون جميعا ، يا عشّاق الأرض ،
إنّكم لتمثّلون الإنسان ، انسان البؤس العنيف والألم العميق ،
الإنسان الذي يتحوّل الخبز في يديه أفعى
والسمك بحرا أجاجا والنبع سمّا زعافا
لأنّ أعداء الحياة لا يريدون له الحياة .
إنّ الدماء لهي ثمن الفكرة الشجاعة
والسجون تؤجّج المشاعل الملتهبة
في اللحم الهائج ، المعذّب الثائر .
أبدا لن تسكت الريشة بأيدي المقاومة الفلسطينيّة
ولن تصمت البندقيّة .
ولابدّ أن يأتي النصر في الوقت المناسب .» .

ولد (خوسه دوارته) في قرطبة عام ١٩٢٨ ، حيث درس ، بعد تخرّجه من المدرسة الثانويّة ، الفنون التشكيليّة في « مدرسة الفنون والمهن » ، وبعد ذلك توّجه إلى أشبيليّة لمتابعة دراسته وتخصّصه في « المدرسة العليا للفنون الجميلة » وتخرّج منها عام ١٩٤٨ . وقد حصل عام ١٩٤٧ على جائزة الرسم من بلدية قرطبة ، وشارك في تأسيس « المدرسة التجريبيّة للفنّ في قرطبة » ، وخصائص هذه المدرسة هي : ١ ـ الواقعيّة ، ٢ ـ الألوان الفاقعة ، ٣ ـ تصوير المعالم والأحياء العربيّة . وقام هذا الرسّام بوضع الرسوم لكتاب « أغان عربيّة جديدة إلى غرناطة » .

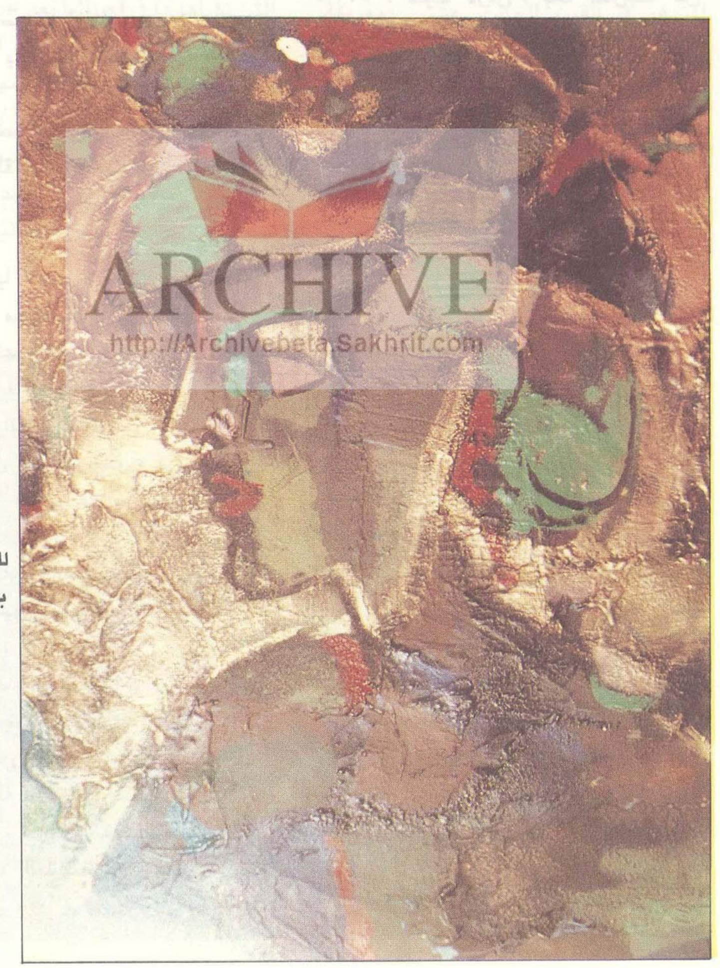
في عام ١٩٥٦ يقيم في باريس حيث يعرض لوحاته التي أدهشت الرسّامين الفرنسيين بما تتميّز به من ملامح قرطبيّة شعبيّة ومن تعبير عن الأجواء الواقعيّة التي يعبّر عنها بالفراغ وهو يرمز به إلى الجوّ السياسيّ ، أثناء العهد الديكتاتوريّ السابق . بعد عودته إلى أسبانيا يقرّر الإقامة في مدريد ويشرع في اتجاه آخر من سماته : الذاتيّة والتأمّل بألوان باهتة في معظم الأحيان .

في هذا المعرض الأخير الذي شارك مراسل مجلّة الثقافة العالميّة فيه اختار (خوسه دوارته) لوحات زيتيّة من كافة

مراحل تطوّره الفنّيّ . وكم كان رائعا حقًّا أنّ الحاضرين تمتّعوا كذلك بالاستماع إلى شريط من أغاني المرحومة أمّ كلثوم ، فطربوا على الأنغام الشرقيّة كما قرّت عيونهم بهذه الخطوط والألوان التي تنداح على مياه زيتيّة .

الرّسام السوريّ بسّام بغدادي يقيم معرضا في مدينة « كونكا » :

في مدينة « كونكا » (Cuenca) التي منازلها محفورة في الصخر أو معلّقة في الهواء أقام الرّسام السوريّ بسّام بغدادي معرضا لرسومه ولوحاته ، وذلك من السادس والعشرين من شباط/ فبراير حتّى التاسع من آذار/ مارس ، وقدّمت رئيسة «المجلس العامّ للمعاهد الرسميّة للفنون الجميلة» السيّدة (غواد الوبه ماتيّا Guadalupe Matilla) لهذا المعرض بكلمات مقتضبة ولكنّها عميقة : « اللون هو جمال ، فإذا أضفنا إليه الشكل والنغم والتعبير فإنّنا نستطيع أن نسمّيه فنّا . الفنّ هو التعبير العميق من خلال الجمال عن المشاعر العميقة بغية البثّ إلى الآخرين رسالة نبيلة . التوازن والنسق والنغم في أعمال بسّام الفنّيّة هي بيان حقيقيّ للفنّ في أسمى معانيه » .



لوحة الأميرة للرّسام الدمشقيّ بسّام بغدادي .

● **إحياء الذكرى المئوية لولادة طه حسين في غرناطة :**

انعقد في غرناطة باسبانيا مؤتمر دوليّ لاحياء الذكرى المائويّة لولادة طه حسين ، وذلك من الخامس حتّى العاشر من شهر آذار/ مارس ، بتنظيم من المعهد المصريّ للدراسات الإسلامية في مدريد ومن معهد التعاون مع العالم العربيّ ، التابع إلى أمانة الدولة الاسبانيّة للتعاون الدوليّ ، وتحت رعاية كلّ من الجهات التالية : وزارة التعليم في جمهوريّة مصر العربيّة ، سفارة جمهوريّة مصر العربيّة في مدريد ، وزارة السياحة والطيران المدنيّ ـ مصر للطيران في جمهوريّة مصر العربيّة ، بلديّة غرناطة ، المستشاريّة الثقافيّة في منطقة « أندلثيا » ، جامعة غرناطة ، الهيئة المشرفة على قصر الحوراء ، مدرسة الدّراسات العربيّة في غرناطة .

وقد شارك في هذا المؤتمر عدد هائل جدّا من الباحثين وكان معظمهم من مصر ومن اسبانيا ، أمّا البقيّة فهم من الأردنّ والكويت وفلسطين وسوريّا والعراق وتونس والمغرب ، وقبل أن نستعرض ما ورد في هذا المؤتمر من محاضرات علينا أن نبدي بعض الملاحظات : ١ ـ لقد أخطأ المنظّمون باختيار شعار المؤتمر : **آفاق العلاقات الثقافيّة العربيّة الأوربّيّة . الماضي ، الحاضر ، المستقبل** . إذْ لم تتناول الأبحاث التي ألقيت لا من قريب ولا من بعيد هذه الآفاق ، بل تركّزت معظمها على ظاهرة الاستشراق . ٢ ـ لقد توهّموا بأنّ في عقده بغرناطة تكريما للحضارة العربيّة في الأندلس ، فكانت المحاضرات عن هذه الحضارة قليلة جدّا وكذلك كان المحاضرون من أبناء هذه المنطقة يعدّون بأصابع اليد الواحدة ، حتّى أنّه لم يشارك من جامعة غرناطة سوى أستاذ



طه حسين

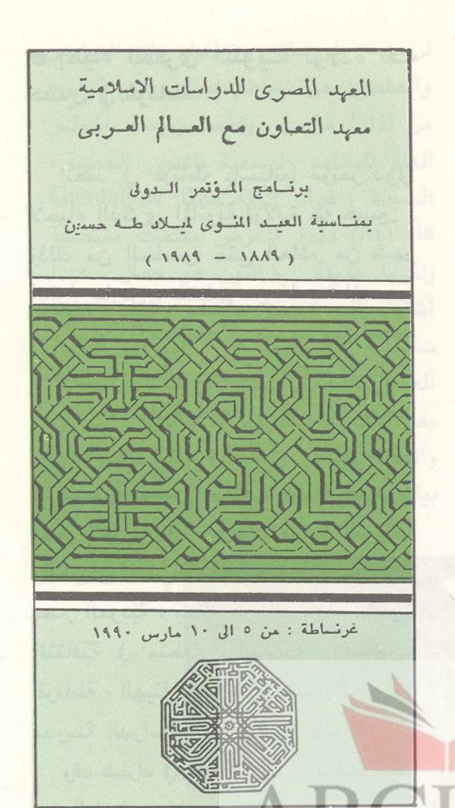
واحد . ٣ ـ اقتصر الحضور على المحاضرين فقط . ٤ ـ اختلط الحابل بالنابل إذ في جلسة واحدة كانت تلقى محاضرة عن (الفونسو العاشر) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعمّا ورد عن مصر من اشارات في بعض الأعمال الأدبيّة المكتوبة في الأندلس وعن أوجه الصلات بين الأدب العربيّ والآداب الأوروبيّة وعن نظرة موضوعيّة إلى الشرق من خلال جيل اسبانيّ معاصر . ٥ ـ لقد ضاع طه حسين بين تنوّع المواضيع وكثرة المحاضرين ، وكان من المفروض أن تكون معظم المحاضرات ان لم نقل جميعها منصبّة على دراسة عميد الأدب العربيّ ، وكان من اللائق أن تخصّص جلسات حوله وأخرى حول غيره ، علما بأنّه خلال أربعة أيّام انقسم المحاضرون خبط عشواء إلى فريقين في مكانين مختلفين وكان بعضهم يسمع الآخر هنا وبعضهم الآخر يسمع الآخر هناك حتّى أنّنا لم نعد نعرف مكاننا ، أهو هنا أم هناك ؟ وكان أخوكم يتنقّل من هنا إلى هناك حتّى ملّ وضجر فاختار أن يتأمل معالم غرناطة الجميلة أو أن يبكي على الأطلال واقفا وجالسا .

أ ـ محاضرات حول طه حسين :

١ ـ د . محمود الربيعي (مصر) : **طه حسين و« مستقبل الثقافة في مصر » ، قراءة حرّة في نصّ تنويريّ** ، يتتبّع هذا البحث الظروف التي كتب فيها طه حسين هذا الكتاب الهامّ ، ويسير مع الكتاب وصاحبه خطوة خطوة لكي يستجلي جوانبه المتعدّدة ، ومظاهر الإبداع فيه . انّ الكتاب في حقيقته نوع من العمل الإبداعيّ الذي يخلق حالة ذهنيّة ونفسيّة تلخّص حلمَ رائدٍ من روّاد التنوير ، وصانعٍ من صنّاع مصر الحديثة ، وداعية من دعاة التجديد .. ذلك التجديد الذي يعني لدى طه حسين الثورة التي تحوّلت في مجرى الزمن إلى واقع ثقافيّ جديد .

٢ ـ د . قاسم المومني (الأردنّ) : **هاجس الثقافة العربيّة عند طه حسين في « مستقبل الثقافة » بخاصة**. انّ الثقافة العربيّة والمشكلات التي تطرحها ظلّت هاجسه الذي يشغله ويؤرّقه . وليس هناك أدلّ على ما أقوله ممّا نطالعه في سيرته وممّا نقرؤه في أعماله ، فكلّ الذي نصادفه ذلك الحرص الشديد على أن يكون مثلا للثقافة التي لا تتوقّف عند حدود الماضي فحسب ، ولا تقتصر على لون دون آخر فقط ، ولا تنكفىء على نفسها فتنغلق في وجه ما هو أجنبيّ عنها .

٣ ـ د . ابتهال يونس (مصر) : **طه حسين والتوازن الثقافيّ المنشود بين الشرق والغرب** . هذا التوازن الثقافيّ المنشود بين الشرق والغرب ، نجد لمحاته ، على صعيد الإبداع الفكريّ ، في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » . وهذا التوازن طبيعيّ وبديهيّ لأنّ العقليّة المصريّة ليست



شرقيّة تماما ولا غربية تماما بل مزيج من هذا وذاك نظرا للظروف التاريخيّة والجغرافيّة والاقتصاديّة . على أنّ هذا التوازن المنشود بين الشرق والغرب لم يكن بدعة ابتدعها طه حسين بل حقيقة مؤكدة عرفتها الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أوج مجدها من خلال شبه الجزيرة الايبيريّة حيث كان التلاحم بين الشرق والغرب ، والذي أعطى للحضارة العربيّة الإسلاميّة أنبغ علمائها وفلاسفتها أمثال ابن رشد وابن عربيّ وابن حزم وغيرهم . هل كان من قبيل الصدفة أنّ الغرب الإسلاميّ ، وليس المشرق ، هو الذي أنجب هؤلاء النوابغ أم نتيجة للتوازن والتلاحم بين الشرق والغرب ؟ .

٤ ـ د . علي شلش (مصري انجلترا) : **رؤية طه حسين للثقافة العربيّة وعلاقتها بالثقافة الأوروبّيّة** . تأثّر بعمليّة المثاقفة التي جرت بيننا وبين أوروبّا قبل عقود ـ على الأقلّ ـ من مولده . ورحّب بها قبل أن يسافر إلى أوروبّا ، حيث شغله مفهومها أكثر من ذي قبل . وكانت دراسته هناك ، وزواجه بأوروبيّة على رأس الحوافز الشخصيّة التي أثرت في إلحاح على مفهوم المثاقفة على فكره ومتابعته له إلى النهاية . حتّى أصبح من أهمّ دعاة المثاقفة ، ومشرّعيها ، وبناتها ، في الفكر العربيّ الحديث ، إن لم يكن أهمّهم على الاطلاق ، بسبب الوظائف والمناصب التنفيذيّة التي أتيحت له

٥ ـ د . منية الحمامي (تونس) : **رؤية طه حسين لعلاقة الثقافة العربيّة بالثقافة الأوروبّيّة وأثر كلّ منهما في الآخر** . قد كانت خصوصيّات الدكتور طه حسين من بين أعلام المدرسة الليبراليّة تتمثّل في أنّه أولى اهتماما بالغاً بالجذور : جذور النهضة الأوروبيّة الحديثة وجذور الثقافة المصريّة وكانت محصّلة دراسته لهذه الجذور الوصول إلى نتيجة مفادها أنّ إتجاهنا نحو أوروبّا لا ينبغي محاصرته في حدود انجازاتها الحديثة بل لا بدّ من البحث عن الينابيع الأولى لكلّ من الثقافتين ، حتّى تتكامل الصورة الشاملة للحضارة الأوروبّية ، بدلا من الاقتصار على نتائجها . إنّما الوعي الحضاريّ المتكامل هو لبّ تفكير طه حسين حول الثقافة العربيّة في علاقتها بالثقافة الأوروبيّة .

٦ ـ د . سمير قطامي (الأردنّ) : **رؤية طه حسين لعلاقة الثقافة العربيّة في مصر بالثقافة الأوروبيّة** . يتناول البحث موقف طه حسين من الثقافة المصريّة القديمة والحديثة ، ذلك الموقف الذي يرى أنّ مصر أقرب إلى الغرب منها إلى الشرق ، وأنّ ثقافتها بالضرورة غربيّة لا شرقيّة ... كما يرى أنّ العقل المصريّ لا يختلف عن العقل الأوروبّيّ ، ولكن سبب تقدّم ذلك وتأخّر هذا يعود إلى اختلاف الظروف السياسيّة والاقتصاديّة بين مصر وأوروبّا .

٧ ـ د . محمود صبح (فلسطين ـ اسبانيا ، وقد ورد في قائمة الأسماء أنه من مصر ، وهذا يشرّفه أيضا) **الفكرة المتوسّطية عند طه حسين** . لا يستغربنّ أحد أنّي اتخذت الفكرة المتوسّطيّة عند طه حسين موضوعا لحديثي أليكم عنه ، فقد تتلمذت منذ نعومة أظفاري على أدبه الجمّ وعلمه العميق وأسلوبه الرشيق ، بعد أن أنعم الله عليّ بإعادة البصر إليّ كما منّ الله عليه بالبصيرة الثاقبة . وإن أنسَ لا أنسىٰ أنّي استمعت إليه وهو يلقي محاضرة على مدرّج جامعة دمشق عن الشعر في بلاد الشام فازداد اعجابي به وتقديري له ، ولكم كانت دهشتي كبيرة حين سمعته يقول لأستاذي شاكر مصطفى الذي كان دليله وعصاه في رحلته الشاميّة هذه : « أرني غوطة الفيحاء » ! ، ومنذذلك الحين طفقت أنتبه إلى كثرة ما يردّد . في كتاباته من هذا الفعل ومرادفاته ومشتقّاته . وهي كثيرة جدّا ، ولا أدري إن كان ثمّة دراسات لغويّة حول هذا الشأن . لكنّ الدراسات حول الفكرة المصريّة في إطار حوض البحر المتوسّط عنده كثيرة متنوّعة وان نعتها بعضهم أحيانا بالتأثير الأوروبّيّ ووصفها بعضهم الآخر أحايين أخرى بالميول الغربيّة . أمّا هو فإنّه أسهب في بسطها وعرضها على صفحات كتابه الذي أثار ضجيجا شديدا بقدر ما أثاره كتابه الآخر في الشعر الجاهليّ ، ألا وهو **مستقبل الثقافة**

في مصر ، وكان ثالثة الأثافي كتابه الثالث **قادة الفكر** ، حتّى أنّ بعض المتزمّتين اتهمه بالانحراف والتبعيّة والإلحاد ، فوقف هو صلبا عنيدا يدافع عن هذه الفكرة في حماسة بليغة أدّت إلى التطرّف أحياناً وإلى التناقض أحايين أخرى ، ومن هذه التناقضات : أ ـ لم ينظر إلى الدين أو إلى القوميّة باعتبارهما أساسا لبناء الدولة ، في الوقت الذي دافع فيه في كتاباته بحرارة عن القوميّة المصريّة وعن الإسلام . ب ـ كان يؤكّد على أنّ الشرق الأدنى تأثّر كثيرا بالحضارة اليونانيّة ، وأنّ اليونانيين أخذوا عن الساميّين والمصريّين معارف العلوم التطبيقيّة العمليّة ، في حين عبّر في مناسبات أخرى عن أنّ اليونانيّين كانوا تلامذة للحضارة المصريّة ولبعض الشعوب الساميّة . جـ ـ أعتقد بأنّ الإسلام كان متأثّرا بالمنطق اليونانيّ وكان بمثابة الناقل لما هو إغريقيّ إلى شعوب أخرى بما فيها الشعوب الأوروبّيّة ، في حين أنّه كتب في مناسبات أخرى مشيدا بالإسلام باعتباره دينا سماويّا وبالثقافة العربيّة على أنّها ثقافة أصيلة . ونحن نرى بوضوح أنّ طه حسين في فكرته المتوسّطيّة لم يكن متأثّرا بظروف تاريخيّة كانت تجتازها مصر آنذاك ، وكذلك لم تكن مرحلة من مراحل تطوّره الفكريّ بل كانت المحور الأساسيّ الذي كوّن فكره وكوّر عقله !

٨ ـ د . (مارثيلينو بيّيغاس غونثاليث (Marcelino Villegas Gonzalez) (اسبانيا) : **وسيلة أخرى للترجمة : دعاء الكروان ، من الكتاب إلى الشاشة** . إنّ السينما يمكن أن تكون الوسيلة المثاليّة للتعريف بروايات كبار الكتّاب وتقديمها لجمهور عريض . وقد كانت تجربة ناجحة عمليّة إخراج رواية **دعاء الكروان** التي كتبها طه حسين عام ١٩٣٤ وأخرجها للسينما هنري بركات في عام ١٩٥٩ . عرض المحاضر بعض المناظر من هذا الفيلم السينمائيّ وعلّق عليها بالاسبانيّة والعربية .

٩ ـ د . محمد زكي العشماوي (مصر) : **الحرّيّة والمنهج والكلمة** . لقد آمن طه حسين بأنّ الإنسان لكي يكون عظيما لا بدّ أن يكون حرّا ، والحرّيّة عنده هي حرّيّة كلّ جيل في أن يعبّر عن نفسه ، وأن يتصدّى لمعوقات الحياة والإنسان . وقد انعكس هذا على منهجه ورؤيته لقضايا الثقافة العربيّة ، ومن ثمّ كان من الطبيعيّ أن يكون سبّاقا في التصدّي لجمود الفكر ، وللمسلّمات التي ظلّت تتحكّم في العقل العربيّ واللسان العربيّ عن طريق منهج متميّز في دراسة الأدب ونقده ، وبما استحدثه في اللغة من أسلوب جديد فريد ، كتابة ونطقا . انّ أساس المنهج العام عنده هو الحرّيّة والتعقيل . ومعنى التعقيل هنا هو الالتزام بالمنهج العقليّ في الدراسة والبحث .

١٠ ـ (اينكارناثيون سانشيث آريناس (Encarnacion Sanchez Arenas) (اسبانيا) : **مهمّة الأدب الملتزم كما رآها طه حسين** . قامت منظّمة اليونسكو بالإعداد لحوار يتناول هذه القضيّة في بيروت عام ١٩٥٥ ، ودار الحوار بين طه حسين من جهة وبين رئيف الخوري من جهة أخرى ، وكان بغرض معرفة العلاقة الحقيقيّة بين الجمهور والكاتب في ذلك الوقت . ومن هذا الحوار نجد أنّ طه حسين يقبل بفكرة أنّ رجل الآداب يكتب دائما للصفوة ، في حين رأى رئيف الخوريّ أن رجل الآداب يجب أن يكتب دائما للكثرة الساحقة أو للجمهور الأعمّ . وقد أخذ هذا الحوار بين الرجلين أبعادا أخلاقيّة ذات أهمّيّة ، وأسفر عن مناظرات فكريّة استمرّت فترة طويلة بعد هذا الحوار .

١١ - (خيما مارتين مونيوث Gema Martin Munoz) (اسبانيا) : **طه حسين : رجل السياسة ، وعصره** . تسبّبت الاحباطات المتوالية للمؤسّسات التشريعيّة المصريّة منذ الأربعينات ، إلى خلق نقاش حادّ حول قضيّة الديمقراطيّة الليبراليّة وتطبيقها في مصر ، وشارك طه حسين في هذه المحاورات ، من خلال كتاباته ومحاضراته التي عبّر فيها عن رؤيته المتشائمة للديمقراطيّة المصريّة ، واعتبرها قائمة من الناحية النظريّة الدستوريّة فقط ، ولكنّها غير متحقّقة في الحياة اليوميّة للمواطنين .

١٢ - د . نصر حامد أبوزيد (مصر) : **النصوص الدينيّة بين الخاصّ والعام : قراءة جديدة** . منذ أن حاول طه حسين في قراءته للتراث العربيّ القديم ، تاريخا وأدبا وفكرا ، أن ينزع عنه طابع القداسة التي أضيفت عليه في عصور التخلّف والانهيار ، والمحاولات لم تتوقّف لإعادة قراءة ذلك التراث من منظور ملكيّتنا له وحرّيتنا في فهمه وتأويله انطلاقا من آفاق عصريّتنا ، واستجابة لحاجات واقعنا . لكنّ هذا النهج العقليّ الإصلاحيّ لم يتجاوز حدود التراث ليتعامل مع النصوص الدينيّة ذاتها . لقد ظلّ النظر إلى هذه النصوص يدور في دائرة النظر التراثيّ القديم ، ويعتمد في فهمها والاجتهاد في تأويلها على مبدأ القياس كما صاغه القدماء أنفسهم . وبعبارة أخرى : إذا كانت العقلانيّة الاصطلاحيّة قد نجحت في التعامل مع التراث من منظور تاريخيّ فإنها قد أخفقت في النظر إلى النصوص الدينيّة من المنظور التاريخيّ نفسه ، مع أنّها - مثل نصوص التراث - نصوص لغويّة .

١٣ - د . أسعد شريف عمر (مصر) : **نظرة متعدّدة الأبعاد في كتاب طه حسين «شجرة البؤس»** . في هذه الرواية أعطى طه حسين لمحات تفصيليّة عن التركيبة التاريخيّة لأحداث الرواية الزمنيّة وللعادات والتقاليد المنتشرة في قرى الصعيد المصريّ . وتسود الرواية روح النقد الواقعيّ ، الإقليميّ ، الطبيعيّ ، التي نستشعرها من خلال أنماط شخصيّات روايته ، ونحسّ بنقده المرير للحياة الإقطاعيّة المصريّة والتأثير القويّ الذي تمارسه الجماعات الدينيّة التي تسبّبت في بعض الأحيان في مأساة التخلّف بين أفراد الشعب ،ويصفها طه حسين بأنّها طبقة طفيليّة من الصعب مقاومتها أو القضاء عليها .

١٤ - (بياتريث مولينا رويدا Beatriz Molina Rueda) (اسبانيا) : **طه حسين وتبسيط قواعد اللغة** . إنّ النهج الاصلاحيّ لطه حسين في ميادين الأدب ، واللغة ، والتعليم ، والثقافة صرف اهتمامه أيضا إلى تجديد وتسهيل قواعد اللغة العربيّة . ويدور اسهامه في هذا الميدان حول فكرة عامّة من أجل سياسة التطوير وجعل التعليم ديمقراطيّا ونشر الثقافة . وفي إطار حركة التطوير العامّة لقواعد اللغة التي تمّت خلال القرن العشرين ، فإنّ أطروحاته تقوم على أساس المعارضة التقليديّة بين اللغة الفصحى واللغة العاميّة . وبالرغم من كون طه حسين أحد المدافعين الأشدّاء عن اللغة الفصحى فإنه دافع عن تجديد قواعد اللغة العربيّة وتطويرها من أجل الحفاظ على اللغة الفصحى من الاندثار أمام زحف اللهجات العاميّة .

١٥ - د . خالد سليمان (الأردنّ) : **عودة إلى كتاب « في الشعر الجاهليّ » لطه حسين** . لقد تصدّى لنقد هذا الكتاب عدد

كبير من الدارسين العرب والمستشرقين . سواء أكان ذلك في صورته الأولى : في الشعر الجاهلي (١٩٢٦) ، أم في صورته المعدّلة : في الأدب الجاهليّ (١٩٢٧) . وقد اتسمت معظم النقود العربيّة للكتاب بغير قليل من الغلوّ والتطرّف . ومن الجدير ذكره أنّ هذه الضجّة استقطبت مختلف فئات المثقفين ، مثل المحامين ورجال السياسة وعلماء الأزهر وأساتذة الجامعات . وقد تراوحت الانتقادات والمآخذ على الكتاب وصاحبه بين غضبة الناقدين لما يصطدم مع مسلّماتهم فيما يتعلّق بتراثهم ، وبين تهجّم قاس أُخِذ فيه صاحب الكتاب بالظّن والشبهة .

١٦ ـ د . رجاء عيد (مصر) : **أصول التفكير النقديّ عند طه حسين ورؤيته الثقافيّة** . يشكّل الجبر والحرّيّة جناحي مفهومه للأدب ، حتّى لتصبح وظيفة الأدب الاجتماعيّة نابعة أساسا من صورته الجماليّة ، وأنّ الاصلاح والتغيير لا قيمة لهما إذا كان الأديب لا يصدر في دعوته إليهما عن قناعة وحرّيّة . والنقد في النهاية ـ عنده ـ ممارسة ذوقية لها مقاييسها التي تضمّ التراث من ناحية ، والمناهج الحديثة من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى جانب آخر يميّز طه حسين بشكل خاصّ وهو غلبة القارىء فيه على الناقد عند تناوله للآثار الأدبيّة .

١٧ ـ (د . ماريّا خيسوس بيغيرا مولينس Maria Jesus Viguera Molins) (اسبانيا) : **محمّد مندور على النهج النقديّ لطه حسين** . لقد أشار محمد مندور دائما إلى أنّ لقاءه بطه حسين في كلّيّة آداب القاهرة عام ١٩٢٥ كان أحد العناصر الأساسيّة في تكوينه الشخصيّ ، وكانت العلاقة الأكاديميّة بينهما حاسمة في طبع



محمد مندور

بصماتها على مندور ، الذي كان يصرّح دائما أنه قريب جدّا من أستاذه القدير بالرغم من الاختلافات القليلة العابرة بينهما .

١٨ ـ د . ابراهيم الخطيب (المغرب ، وقد تغيّب عن الحضور) : **المثاقفة والترجمة وتحديث الثقافة العربيّة** .

١٩ ـ د . فاطمة الخليفة (الكويت) : **الخصائص التنغيميّة في بعض أحاديث طه حسين** : انّ أسلوب طه حسين يعتمد على السمع ، لذلك يتميّز بالتأنّي في اختيار الكلمات من الذاكرة ، لهذا السبب يعتمد على جمل طويلة تتخلّلها وقفات قصيرة كثيرة لا يزيد طول الكلمة الواحدة عن ثلث الثانية فكأنّها موزونة بميزان دقيق . أمّا إذا كان في الكلمة حرف علّة طويل فإنّ هذه الفترة الزمنيّة تطول لتصبح تسعة أعشار الثانية ، والسبب واضح ، فحروف الكلمة الطويلة دائما تأخذ زمنا أطول في الكلام ، كذلك الكلمة الطويلة الأخرى سببها هو مزج كلمتين مع بعضهما . فهو يتأنّى ليجعل المستمع يتعرّف على حدود كلماته حتّى يفهمها ، مع أنّه يعود إلى تكرار بعضها بمفردات جديدة تدلّ على وفرة المترادفات في لغته . والسبب الآخر أنّه لا يريد أن تتدخّل

لغته الثانية في الأولى بالرغم من تدخّل ثقافته الثانية عن طريق منهجه في البحث وابرازه للمواضيع .

٢٠ ـ محمد الخطّابيّ (المغرب) : « **أديب** » **بين الترجمة الذاتيّة وفنّيّة القصّة** . كثيرا ما يكتب طه حسين على هواه غير عابىء وغير مرتبط بهدف ولا مسوق إلى غاية سوى غاية الفنّ والجمال ، ولكنّنا ما نكاد نفحص أعماله حتّى نجدها صدى لنفسه . انّ « أديب » لا يسمو إلى بعض أعمال طه حسين الأخرى كما **الأيّام** مثلا ، وفي هذا الكتاب الآخر **أديب** كان يترجم لنفسه بطريقة غير مباشرة لم تتخذ صبغة التراجم الذاتيّة المعروفة وإنّما توارت وراء قوالب فنّيّة معيّنة .

٢١ ـ د . نادية جمال الدين (مصر) : **طه حسين والروح الثوريّة** . لقد دافع طه حسين عن الحرّيّات من خلال أعماله الأدبيّة : **شجرة البؤس والمعذّبون في الأرض** . وتبدّى فكره الليبراليّ ولمحاته المضيئة في كتابه **مستقبل الثقافة في مصر** كما اهتمّ عميد الأدب العربيّ بالتواصل بين الشرق والغرب ، وفي هذا وفي غيره نجد شبها كبيرا بينه وبين الكاتب المكسيكيّ (أوكابيو باث) الذي حاول أن يجد صيغة للشرق والغرب في أدبه .

٢٢ ـ د . وديعة النجم (الكويت ، من العراق) : **المتنبّي بين طه حسين وبلاشير** . **دراسة مقارنة** . انّ موازنة سريعة بين كتاب طه حسين **مع المتنبّي** وكتاب بلاشير **أبو الطيّب المتنبّي** تظهر مدى اشتراكهما في الاطار العامّ ، وأنّ كلّا منهما قد سلك منهج الرحلة مع المتنبّي بدءا من نشأته الأولى في الكوفة وحتّى نهاية حياته . ويجيء كتاب بلاشير دراسة أكاديميّة مدعمة بالحواشي والمصادر والشواهد التاريخيّة والجغرافيّة في رحلته مع طه حسين ، لكنّ بلاشير في مواضع كثيرة يبدو عاجزا عن تذوّق جماليّات شعر المتنبّي ممّا دفعه في بعض الأحيان إلى الغضّ من شأن هذا الشعر والازدراء له ، ووصفه أحيانا بالتفاهة وأحيانا أخرى بالغلوّ . أمّا دراسة طه حسين فتأتي لتضع بين أيدي الدارسين نمطا جديدا من الدراسة التي يمليها تذوّق ناقد عربيّ مثقّف بمناهج النقد والتذوّق الأوروبيّة ، ومن ثمّ سنجد أنّ أحكام طه حسين على شعر المتنبّي وشخصه تكاد تكون في واد ، وأحكام بلاشير عليه في وادٍ آخر .

٢٣ ـ د . ماريّا أنطونيا مارتينيث نونيث Maris Antonia Nunez (اسبانيا) : **مواقف طه حسين ازاء الأدب العربيّ** . يرى الدكتور طه حسين أنّ الأدب العربيّ المعاصر يجب أن يكون وريثا للأدب العربيّ الكلاسيكيّ ، وأن تكون له صفة الاستمراريّة لهذه الآداب العربيّة الكلاسيكيّة ، محاولا تحديد المفاهيم التي تعمل كأساس لهذا الموقف .

٢٤ ـ (فرناندو دي أغريدا Fernando de Agreda) (اسبانيا) : **في تكريم الذكرى المائويّة لكلّ من طه حسين و(أنخيل غونثاليث بالنثيا Angel Gonzalez Palencia**) . في عام ١٩٤٨ زار طه حسين اسبانيا بدعوة من كلّيّات الآداب ومعاهد الدراسات العربيّة في كلّ من مدريد وغرناطة ، وقد ألقى طه حسين عدّة محاضرات في هاتين المدينتين ، وفي ذلك الوقت كان (انخيل غونثاليث بالنثيا) ، وقد ولد في العام نفسه الذي ولد فيه طه حسين ،

مديرا لمعهد (ميغيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios) . وفي عام ١٩٥٠ عاد طه حسين لزيارة مدريد بصفته وزيرا للمعارف في مصر ، وكان هدف هذه الزيارة هذه المرّة هو افتتاح : « معهد فاروق الأوّل للدراسات الإسلاميّة » الذي أنشىء في ذلك العام . وقد وجّه طه حسين خطابا إلى (غونثاليث بالنثيا) عبّر له فيه عن تقديره العميق لترشيحه إيّاه لعضويّة الأكاديميّة ، وعن رغبته في أن يعبّر له شخصيّا عن شكره لأعضاء الأكاديمية الملكيّة للتاريخ . وتشاء الأقدار أن لا يتحقّق هذا اللقاء بين الرجلين العظيمين إذْ توفّي (غونثاليث بالنثيا) يوم ٣٠ من شهر تشرين الأوّل / أكتوبر سنة ١٩٤٩م .

٢٥ ـ (د . خوسه ماريّا فورنياس Jose Maria Forneas) (اسبانيا) : **المستشرقون وطه حسين من خلال كتاب « معك » ، بقلم أرملته** . حافظ طه حسين طوال حياته العائليّة والاجتماعيّة والفكريّة على اتصالاته بالمستشرقين ، في علاقة بين طالب علم وأساتذته في باديء الأمر ، والتي تطوّرت فيما بعد لتصبح علاقة زمالة ، وقد حفلت أعمال طه حسين باشارات عديدة لهذه الاتصالات وبخاصّة في يوميّاته . ولعلّ تلك العلاقة بين طه حسين وبين زوجته سوزان من الأمور المعروفة ، وهذه العلاقة نجدها في كتابها معك .

ب ـ الاستشراق :

١ ـ د . محمّد أبو العطا عبد الرؤوف (مصر) : **نظرة موضوعيّة إلى الشرق من خلال جيل أسبانيّ معاصر** . تضمّنت المعالجات الأيديولوجيّة والفكريّة لكتابات جيل الرواية الاجتماعيّة في أسبانيا (١٩٢٨ ـ ١٩٣٦) نظرة محددة للشرق عبر ثقافته ، وكرافد حي دائم يتم الاستشهاد به عند دراسة أفكار المثقّفين الأسبان في فترة معيّنة ، ومن أبرز صفات هذا الجيل مراجعة كافّة الثقافات الأخرى وعدم الاقتصار فقط على الثقافة الأوربيّة ، وكذلك مراجعة كافّة المقولات والنظريّات القديمة التي تشير إلى الجنوب وإلى الشرق .

٢ ـ د محمود ذهني (مصر) : **بين دون كيخوته وعنترة بن شدّاد** . من يقرأ سيرة عنترة بن شدّاد ورواية دون كيخوته بتمّعن سوف يلمح بعض السمات المشتركة التي توحي بوجود وشائج صلة بين العملين العظيمين : ١ ـ الاتفاق التامّ في العنوان : سيرة السيّد العبقري دون كيخوته دي لامانشا ، سيرة أبي الفوارس عنترة بن شدّاد ٢ ـ الاتفاق في وجود الشخصيّة الثانية أو مساعد البطل : سانشو بانثا شيبوب . ٣ ـ تشابه الفصول في العملين والتقارب بين الأحداث فيهما . ٤ ـ ادّعاء سرفانتيس أنّ بعض فصول روايته مترجمة عن مؤلّف عربي يدعى حمادة بن الجيلي .

٣ ـ (د . ألفونسو كارمونا غونثاليث (Alfonso Carmona Gonzalez) (أسبانيا) : **رومانسيّة التعاطف مع ما هو عربيّ عند بعض الأدباء الأسبان المعاصرين** . الجدير بالذكر أنّ هذا التعاطف مع ما هو عربيّ ليست له في كلّ الأحوال أيّة أهداف أو أغراض أيديولوجيّة مثل تلك التي اتسمت بها الأعمال الأدبيّة المتعاطفة مع المسلمين في عصور سابقة ، فالشخصيّة لم تعد تقتصر على شخصيّة المسلم (المورو) الأسبانيّ ، وتمّ التجاوز عن مرحلة التسامح الدينيّ للانتقال إلى مرحلة القبول والدفاع عن حقيقة الآخر .

٤ ـ (د. سيرافين فانخول Serafin Fanjul) (أسبانيا) : **أوز موروس (المسلمون) في الثقافة الشعبيّة الجليقيّة** . بالرغم قصر الفترة الزمانيّة التي كان فيها المسلمون موجودين تاريخيّا في القسم الشمالي الغربيّ من شبه الجزيرة الايبيريّة ، فإنّ ظهورهم في مختلف مجالات الثقافة الشعبيّة الجليقيّة يتسم بالوفرة والغزارة . والاسم الأكثر شيوعا للتدليل عليهم هو اسم (موروس) وتحت هذا اللقب فإنّهم يلعبون أدوارا تنسب عادة إلى شخصيّات أسطوريّة في الثقافات الأخرى .

٥ ـ (د. ميغيل كروث هيرنانديث Miguel Cruz Hernandez) (أسبانيا) **الاستشراق والدراسات الإسلاميّة** . الاستشراق ظاهرة ثقافيّة أوربّيّة ظهرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وتطوّرت خلال القرن التاسع عشر ، إلّا أنّه فقد صلاحيّته الاجتماعيّة اعتبارا من عام ١٩١٤ . وفي بداية الأمر تركّزت الدراسات الإسلاميّة العلميّة على المظاهر الخارجيّة للعالم الإسلامي . (التاريخ ، الجغرافيا ، الرحلات) بالإضافة إلى الروابط الفنّيّة والأدبيّة . ثمّ ظهرت بعد ذلك دراسة الموضوعات الأساسيّة (القرآن ـ الحديث النبويّ ـ الفقه ـ التصوّف ـ علم الكلام ـ الفلسفة) .

٦ ـ (فيكتور موراليس Vector Morales) (أسبانيا) : **رؤية أسبانيا للمسألة الشرقيّة (١٨٥٣ ـ ١٩١٤)** : يرجع تاريخ المسألة الشرقيّة دون شكّ إلى ما يقرب من مائتي عام سبقت الصراع المسلّح الذي نشب بين مختلف القوى الأوربيّة في شبه جزيرة القرم عام ١٨٥٣ . ويتناول هذا البحث الفصل الأوّل من حرب القرم من منظور مشاركة بعض القادة العسكريّين الأسبان في لجنة قامت بتحليل هذا الصراع العسكريّ . ويضمّ أيضا وجهات نظر بعض السياسيين والدبلوماسيّين الأسبان في نهاية القرن الماضي .

٧ ـ د.، عبدالنبي اصطيف (سريّة) : **نحن والاستشراق : تحوّلات ومؤشرات إيجابيّة** .أ) انفتاح الاستشراق على التطوّرات الأخيرة في مختلف ميادين المعرفة وبخاصّة في العلوم الانسانيّة ، ب) ازدياد مساهمة العرب أنفسهم في الدراسة العربيّة باللغات الأجنبية وما يخلق ذلك من مستويات أخرى ضمن تقليد الاستشراق نفسه ، ج) توّسع دائرة احتكاك المستشرقين بالوطن العربيّ وتعمّق صلاتهم المباشرة بمختلف وجوه الحياة فيه ، د) محاولة الاستجابة للنقد الداخليّ والخارجيّ الذي يواجهه منذ عقود من جهة ، وللتغيرات المؤسّسية التي فرضتها التطوّرات

جـ ـ الترجمة :

١ ـ د. محمود محفوظ ود. سيد رمضان هدارة (مصر) : **ترجمة العلوم ودورها في التنمية** . لاشكّ في أنّ الترجمة الحقيقيّة لأيّ مجتمع إنّما تقوم أساسا على العلم ، وما يتصل به من تكنولوجيا . ولن تتحقّق الفائدة من العلم إلّا إذا كانت اللغة التي يستخدمها العلماء هي لغتهم الوطنيّة التي من خلالها يمكن أن يتحقّق التواصل بينهم وبين مجتمعهم ، ومن ثمّ يؤدّي العلم مهمّته في التنوير والتقدّم والنهضة .. ويرتبط ازدهار الترجمة ، وبخاصّة ترجمة العلم ونتائجه بنهضة المجتمع ، فما من نهضة علميّة في أيّ عصر إلّا وسبقتها ترجمة الانجازات العلميّة التي تمّت من قبل في لغتها الأصليّة إلى لغة المجتمع الناهض . ومن هنا كان نشاط

الترجمة لا يمكن أن يؤتي ثماره إذا كان نشاطا فرديًا ، إذ ينبغي أن يكون ركنا أساسيًا في سياسة عامّة تتبنّاها الدولة للنهوض العلميّ والرقيّ الاجتماعيّ .

٢ - مونسرّات أبو ملهم Montserrat Abumalham) (أسبانيا) : **ملاحظات حول الترجمة والمترجمين** . نلاحظ عدم تقدير دور النشر للعمل الذي يقوم به المترجم ، وهو نفس عدم التقدير الذي يصيب المترجم على الصعيدين المدرسيّ والأكاديميّ ، إذ ينظر إلى الترجمة باعتبارها عملا أقلّ أهمّيّة من البحث مع أنّ العديد من المؤلّفين الكبار كانوا يعتبرون من المترجمين الكبار ، وبالنسبة للغة العربيّة كان لهذه الظاهرة نتائجها المثمرة فيما يتصل بالابداع الأدبيّ والتوليد اللغويّ .

٣ - د. ممدوح البلتاجي (مصر) : **دور الترجمة من العربيّة وإليها في تحقيق التواصل بين الثقافتين** . يمكن المساهمة في إزالة جانب كبير من سوء التفاهم الحاليّ بين العربيّ بصفة عامّة والعربيّ المعاصر بصفة خاصّة إذا قام الباحثون الغربيّون ببيان دوافع مشروع استفادة أوربّا من العالم العربيّ والإسلاميّ في عصور الترجمة ، وآثاره المباشرة على الحضارة الأوربّيّة الحديثة سواء عن طريق أسبانيا المسلمة أم في أثناء الحروب الصليبيّة . ولابدّ من توفير الامكانات الماديّة والبشريّة المناسبة التي تتيح للعرب أنفسهم ترجمة نتاج عقولهم إلى لغات العالم المختلفة ، بما يدفع مؤسّسات الثقافة الغربيّة بإلقاء الضوء على الانتاج الفكريّ العربيّ بصورة تتوازن مع اهتمامها بالحركة الثقافيّة في أمريكا اللاتينيّة

٤ - (د. خوسيه مانويل كونتيننته فيّرير Jose Manuel Continente Ferrer) : **تأملات حول نشر وترجمة نصوص كلاسيكيّة عربيّة في الغرب خلال القرن العشرين** . قام الباحث بإيراد مسهب لقائمة كبيرة بأسماء المترجمين والمؤلّفين العرب الذين ترجمت أعمالهم - مع ذكر لهذه الأعمال - إلى معظم اللغات الأوربّيّة كالألمانيّة والإنجليزيّة والايطاليّة والفرنسيّة والأسبانيّة . ولا يتسع المجال هنا لايجاز شيء من هذه القائمة الطويلة .

٥ - (د. ألديفونسو غاريخو Ilfonso Garijo) : **« اشكاليّة الترجمة من اليونانيّة إلى العربيّة في العصور الوسطى في ميدان علم النبات»** . يتناول البحث بالتحليل والعرض اشكاليةّ ترجمة أسماء المستحضرات الطبّيّة اليونانيّة إلى اللغة العربيّة ، والصعوبات التي واجهها المترجمون وكيفيّة تغلّبهم عليها ، وبخاصّة في تحديد وتعريف المصطلحات العلميّة لأسماء هذه التراكيب والمستحضرات .

٦ - (د. ميرثه كومس Merce Coms) (أسبانيا) : **كتاب الكرة الثامنة لألفونسو العاشر هل كان ترجمة لكتاب الصوفيّ** ؟: إنّ كتاب الملك الفونسو العاشر الملقب بالحكيم ، المعنون بكتاب الكرة الثامنة (Libro de las Estrellas de la Ochoua Espera) ليس مجرّد ترجمة مبسّطة لكتاب صور الكواكب لمؤلّفه الصوفي الفلكي الفارسيّ الشهير أبي الحسين عبدالرحمن بن عمر (٩٠٣ - ٩٨٦) ، الذي كان بدوره مراجعة نقديّة لكتاب تصنيف النجوم الذي أنجزه بطليموس ، بل أعتقد أنّ معاوني الملك استخدموا محتواه الأساسيّ وعلّقوا عليه وأضافوا إليه تعديلات تتضمّن معرفتهم الخاصّة في مجال علوم الفلك ، ومن ناحية أخرى ، كذلك أظنّ أنّه تمّ وضع الجزء الأوّل من الكتاب بمعزل عن الجزء الثاني منه ؟

٧ - (د. ميكيل فوركادو Miquel Forcado) (أسبانيا) : كتاب الـ (El Picatrix) لألفونسو العاشر . إنّ كتاب (El Picatrix) في ترجمته اللاتينيّة هو النسخة المنسوبة إلى الفونسو العاشر نقلها عن كتاب **غايات الحكيم** الذي يعتقد بأنّ مؤلّفه هو أبو مسلمة المجريطيّ من منتصف القرن الحادي عشر ، ومثل جميع الترجمات المنجزة في عهد الفونسو العاشر فإنّ كتاب (El Picatrix) حظي بانتشار واسع في كلّ أوربّا ووصل تأثيره إلى عصر النهضة . وقبل الترجمة اللاتينيّة كانت هناك ترجمة إلى الأسبانيّة وهي الترجمة التي لم تصل إلينا ، ويعتقد أنّها إلى ما بين عامي ١٢٥٦ و١٢٥٨ ، ونحن لا نعرف من هم الذين قاموا بهذه الترجمة إلى اللاتينيّة أو الأسبانيّة .

٨ - (لوثيا مارتين Luica Martin (أسبانيا) : **اشكاليّات الترجمة من العربيّة إلى القطلانيّة** . تواجهنا اشكاليّة يقابلها المترجم في تفسير النّص العربيّ وترجمته إلى القطلانيّة . ونظراً لاختفاء الخبرة التاريخيّة في هذا المجال ، فقد أدّى ذلك إلى عدم انجاز ترجمات مباشرة من العربيّة إلى القطلانيّة ، ويضاف إلى ذلك الصعوبات التي تحيط باللغة القطلانيّة نفسها ، ومشاكل ملاءمة النحو العربيّ والتركيبات الدلاليّة للمفردات العربيّة عند ترجمتها إلى القطلانيّة بالإضافة إلى صعوبات أخرى .

٩ - (د. محمد زكريّا عناني (مصر) : **بحيرة «لامارتين» في الأدب العربيّ** . لقد اخترت عملا واحدا من أعمال « لامارتين » هو قصيدته « البحيرة » وترجماتها المتعدّدة إلى اللغة العربية سواء أكانت شعرا أم نثرا وأبرز بصفة خاصّة ترجمة كلّ من : أحمد حسن الزيّات ، محمد مهدي البصير ، منير العجلانيّ ، علي محمود طه الياحاوي ، وهي دراسة جمعت بين التأريخ والتحليل .

١٠ - (د. ماريّا ايوخينيا غالبث Maria Eugenia Galvez) (أسبانيا) : **الترجمة : مغامرة حتمية للمستشرق** . ان القدرة على ترجمة كتاب ما وتقديمه الى أولئك الأشخاص أو القرّاء غير الملمّين باللغة العربيّة تعتبر مهمّة جليلة القدر وتستحقّ الاحترام والتشجيع ، وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمهمّة التي أخذها المسلمون على عاتقهم منذ مئات السنين ، وحرصهم على نقل المعرفة إلى كلّ الراغبين في الاستفادة من ترجماتهم .

د , مواضيع متفرّقة :

لم يستطع أستاذنا الدكتور السيّد عبدالعزيز سالم أن يزيد متعتنا وهو يحدّثنا عن « **أربع أسرات من قادة البحر الأندلسيّين في العصر الاسلاميّ** » ، في محاضرته القيّمة التي لا يمكن لنا هنا إيجازها لأنّها مليئة بالأسماء والمعلومات الكثيرة المفيدة ، في حين كان حظّ أستاذنا الدكتور أحمد مختار العبّاديّ أوفر إذ تكلّم عن « التأثير المتبادل في الرواية التاريخيّة العربيّة الأسبانيّة» وممّا قاله : لا شكّ أنّ وضع الأندلس الجغرافيّ في الأطراف الغربيّة البعيدة للعالم الإسلاميّ ، وبجوار الغرب المسيحيّ في قلب أوربّا ، قد جعلها في مواجهة مستمرّة مع الدول اللاتينيّة المسيحيّة هناك . وهذا جعلها بالتالي من أكثر الدول الإسلاميّة معرفة وتأثّرا بها . وذلك لأنّ الحياة الإسلاميّة في أسبانيا لم تعرف الانفصال الجغرافيّ أو العنصريّ أو الحضاريّ بين المسلمين والمسيحيّين ، بل كانت حياة مشتركة بينهم .

وحاول الدكتور (الباروغالميس دي فوينتس Alvaro Galmez de Fuentes) أن يستعرض في مداخلته القيّمة « **أدب آخر من بقي من المسلمين في أسبانيا** » : بعد استقرار عمليّة الاسترداد الكاملة لأسبانيا في عام ١٤٩٢ ، بقيت في شبه الجزيرة الايبيريّة جماعات كبيرة العدد من المدجّنين في البداية ، ثمّ من الموريسكيّين بعد ذلك حتّى تمّ طردهم في عام ١٦٠٩ ، وطوال هذه الفترة ما بين الاسترداد والطرد وعلى مدار قرن ونصف من الزمن ، قام المدجّنون والموريسكيّون - وبخاصّة في قشتالة وبقدر أكبر في أراغون - بانجاز عمل أدبيّ هامّ ، حيث نقلوا إلى الأسبانيّة ومع الاحتفاظ بخصائص اللغة العربيّة ، أهمّ مظاهر الديانة والثقافة الاسلاميتين ، وتحدث زميلنا الدكتور جعيدي عمّا هو غربيّ في فنّ القصّة الفلسطينيّ فقال : عندما راح الاستعمار الغربيّ يلتهم تدريجيًا المقاطعات العربيّة من الامبراطوريّة التركيّة في أواخر القرن التاسع عشر ، أقبلت فلسطين كغيرها من الأقطار العربيّة على محاكاة أوربّا في مختلف أوجه الحياة فيها ، فظهرت الطبقة البورجوازيّة العربيّة التي راحت تقلّد مثيلاتها في أوربّا وتسرّبت فنون الغرب ومذاهبه الأدبيّة إلى الحياة الفكريّة والفنيّة في فلسطين .

وهناك مواضيع أخرى متشعبة متباينة منها السمين ومنها الهزيل ان دلّت على شيء فهي تدلّ على اختلاط الحابل بالنابل ، أو قل على الفوضى المنّظمة لغاية في نفس يعقوب .

لوحة « الكمان » بيعت بأكثر من أربعة ملايين بيسيته .

لوحة « الكمان » (Le Violon) للرسام الاسبانيّ (خوان غريس Juan Gris) بيعت يوم الخميس في الثاني والعشرين من آذار/مارس في المزايدة التي أقامتها مؤسّسة « ادموند بيل »(Edmund Peel) بمبلغ أربعة ملايين بيسيته . وقد صرّح على اثر ذلك المسؤول عن هذه المؤسّسة الدوليّة في مدريد بأنّ هذا المبلغ هو أعلى رقم بلغته لوحات هذا الرسّام المدريديّ ، ليس في اسبانيا فحسب بل في جميع أنحاء العالم ، إذ أنّ لوحة « الطبيعة الميّتة » (La naturaleza muerta) التي رسمها في ١٩١٦ كانت قد بلغت أعلى مبلغ وهو مائتان وثمانية وثمانون مليون بيسيته في مدينة نيويورك .

وهذه اللوحة هي أنموذج لما يسمى (papier colle) الذي بدأه (جورج براك Georges Braque) عام ١٩١٢ ، غير أنّ (بيكاسّو) و(خوان غريس) رفعا مستوى هذا النمط في الرسم إلى أعلى مستوى وذلك في عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ . انّ التفاعل بين (بيكاسّو) و(غريس) في تلك الأعوام يشبه إلى حدّ بعيد العلاقات التي قامت بين (بيكاسّو) و (براك) من عام ١٩٠٨ حتّى عام ١٩١٢ ، وهناك عدّة لوحات تعكس الالهام المشترك بين هذين الرسّامين الاسبانيّين اللذين عاشا وماتا في باريس ، وتبيّن مدى احترام (بيكاسّو) لابن بلده .

وهذه اللوحة هي آخر ما أمضاه (غريس) ، وهي موقّعة من لدنه ومؤرّخة بخطّ يده في ٣٠/١٠/١٤ (انظر الصورة المرفقة) ، وقد أهداها مع لوحة أخرى ذات حجم صغير توجد الآن في حوزة أحد مقتني الفنّ في باريس ، إلى صديقه (روماين ثوماس Romain Thomas) .

قام (غريس) بين شهر آب/ أغسطس وتشرين الأوّل/ أكتوبر من عام ١٩١٤ بتجارب باستعماله مزيجا من التقنية الفنّيّة ، فقد أضاف إلى « الـ بابير كولّه »

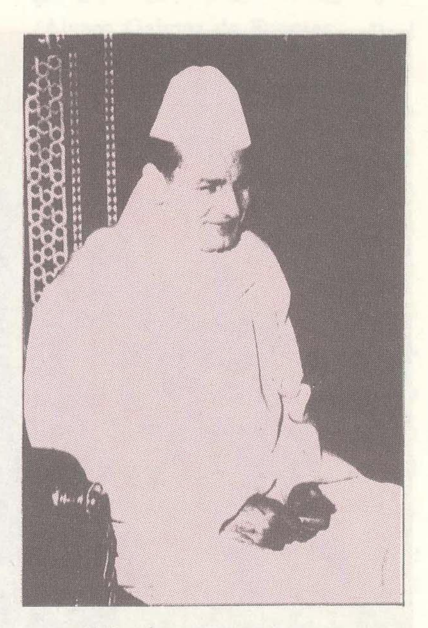


لوحة «الكمان» للرّسام الأسبانيّ (خوان غريس)

نقاطا أخرى من الألوان ، على أسلوب الانطباعيّة الجديدة ممّا أضفى على الصورة انطباعا من مجال رنّان في حدّة شديدة بين الأشكال المسطّحة والمطلقة للورق المرسوم عليه . وفعلا يبدو من خلال لوحة « الكمان » كما لو أنّ المادّة تتضاعف من الجانب الأيسر فاتحة مناظر صغيرة مثلّثة الأضلاع ، تطلّ على مجال فسيح فيما وراء مساحة اللوحة . وقد يعني هذا بحثا عن شيء أبعد من الصيغة التي استنفدت واستُغلت إلى آخر حدودها . هذه الموادّ التي تفسح المجالات هي التي سادت في أعماله خلال عام ١٩١٥ وكان لها صدى أيضا في أعمال (بيكاسّو) .

صدور كتاب « محمّد الخامس تجاه الانتداب » .

تفضّل مؤلّفا كتاب « محمّد الخامس تجاه الانتداب » (Mohammed V Frente al Protectorado) الأستاذ محمّد بن عزّوز حكيم وابنته فوزيّة بن عزّوز حكيم بإهدائي هذا الكتاب القيّم الذي يحتوي على وثائق هامّة تنشر لأوّل مرّة ، ومعظمها من مؤسّسة عبدالخالق طورّيس . وهو مكتوب باللغة الاسبانيّة ومطبوع في رباط الفتح في آذار/مارس من هذا العام ، تكريما للذكرى الثلاثين على وفاة العاهل المغربيّ المرحوم



صاحب الجلالة ملك المغرب محمّد الخامس .

محمّد الخامس ، من الحجم الكبير في خمسمائة صفحة ، بطباعة أنيقة ، وهو مليء بالصور التاريخيّة الفريدة من نوعها ، التي هي في حدّ ذاتها تأريخ لهذا البلد العربيّ الإسلاميّ العريق الحبيب إلينا جميعا .

وقد جاء في كلمة الافتتاح ما يلي : « انّ محمّد الخامس هو ، بلا ريب ، أبرز شخصيّة في المغرب الأقصى الحديث ، غير أنّ كفاحه في سبيل استقلال مملكته وفي سبيل حرّيّة شعبه وفي سبيل وحدة التراب الوطنيّ غير معروف من لدن الجمهور الناطق باللغة الاسبانيّة ، وحتّى صدور هذا الكتاب لم يكن ثمّة أيّة سيرة لحياة هذا المليك بالاسبانيّة .

ولا ينوي هذا الكتاب أن يكون سيرة كاملة لسيدي محمّد ، بل يقتصر على جهاد العاهل لالغاء نظام الانتداب والحماية الأجنبيّة بهدف أن يتخلّص المغرب من كونه مملكة تحت الوصاية وأن يستعيد استقلاله التنفيذيّ المسلوب وحرّيّته الضائعة ووحدته التي فرّقها ما أُصطلح على تسميته بالمعاهدة الفرنسيّة ـ المغربيّة ، الموقّعة في ٣٠ آذار/ مارس من عام ١٩١٢ والمعاهدة الاسبانيّة ـ الفرنسيّة ، الموقّعة في ٢٧ من تشرين الثاني/ نوفمبر من هذا العام ، ولذا فإنّ هذا الكتاب لا يتناول إلّا عهد محمّد الخامس منذ تولّيه العرش في ١٨ نوفمبر/ ١٩٢٧ إلى ٧ أبريل/ ١٩٥٦ ، وهو تأريخ الوحدة الترابيّة للمملكة بعد حصولها على الاستقلال في ٢ مارس ١٩٥٦ .

لتحبير هذا الكتاب اعتمدنا بصورة شبه كاملة على وثائق مختزنة ، كان من الصعوبة في مكان ، التوّصل إليها ، وهي في قسمها الأعظم غير منشورة . وكانت هذه الوثائق مستودعة لدينا وترجع إلى الفترة التي كان فيها مؤلّف هذا الكتاب ، بمساعدة ابنته طبعا ، أمينا خاصّا للقائد الوطنيّ الأستاذ عبدالخالق طوّريس ، وكذلك إلى الوثائق الموجودة في « مؤسّسة طوّريس » بتطوان ، وإلى وثائق الأستاذ طيّب بنّونة ، الذي كان أمينا عامّا للحزب الإصلاحيّ الوطنيّ ـ لعلّ اسمه هو حزب الإصلاح الوطنيّ ، إذْ نترجم عن الاسبانيّة ـ وإلى وثائق موجودة في مكتبات وأرشيفات أخرى » ـ يذكرها المؤلّف ، وهي عديدة . ونعمل الآن لتقديم هذا الكتاب إلى الجمهور الاسبانيّ في أحد المراكز الثقافيّة بمدريد ، عمّا قريب بحول الله .

○ **تتناول رسالة أوروبا الشرقية هذه المرة الكتب والاصدارات السوفياتية باللغة العربية لعام ١٩٩٠ الحالي . وحاولت أن ألقي الضوء على أهم الكتب التي يمكن أن تجذب اهتمام القارىء العربي أو التي يمكن لها أن تسد فراغاً في المكتبة العربية . وبما أن الموضوع جدي ومسهب ، فقد خصصنا رحلة الربيع في بلدان أوروبا الشرقية لأهم الأحداث العلمية والفنية في كل من ألمانيا الديموقراطية ويوغسلافيا وبلغاريا .**

الاتحاد السوفياتي :

كتب جديدة باللغة العربية لعام ١٩٩٠

● من الملاحظ أن قائمة عناوين الكتب السياسية والفكرية قد تقلصت هذا العام إلى حد كبير في كلا داري النشر باللغات العربية « بروغريس » و « رادوغا » .

ولكن ليس معنى ذلك : أن عام ١٩٩٠ سوف لن يقدم لنا أي كتاب سياسي أو فكري من الاتحاد السوفياتي بلغة الضاد . فإن (دار التقدم) ستضع بين أيدي القراء العرب عدة كتب .

١ ـ « من فضيحة الى فضيحة » :

فهذا الكتاب (٢٣٦ صفحة) من الحجم المتوسط سيفضح شبكات التجسس الاسرائيلية ، ولا سيما أعمالها الاجرامية ضد الفلسطينيين والعرب عموما .

ويتناول ي. كورشونوف ـ مؤلف الكتاب النشاط المحموم لشبكات التجسس الاسرائيلية : (موساد) ، و (أمان) ، و (شين ـ بيت) . واستناداً إلى وقائع فعلية مستفيضة تمتد لعشرات السنين (من الأربعينات وحتى أيامنا هذه) يتحدث الكتاب عن التجسس والاستفزازات والأعمال الإرهابية لهذه المنظمات الصهيونية ، وعن الاخفاقات المخزية التي رافقتها فضائح دولية مثيرة .

وتكمن أهمية الكتاب في أنه جاء في خضم تصاعد الموجة الصهيونية في الاتحاد السوفياتي وبلدان أوروبا الشرقية ، مستغلة الديموقراطية لتنفث سمومها في مجتمعات هذه البلدان التي تبحث الآن وبصوت

مسموع عن حلول لمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية .

٢ ـ « السادس من أكتوبر ـ ١٩٨١ » :

كتاب سياسي جديد تحت هذا العنوان يقدمه ي. دميتريف عبر دار النشر (التقدم) في موسكو إلى قراء العربية . ونعرف من البداية ـ من عنوان الكتاب : أن الحوادث تدور حول « تجربة السادات » ويتناول المؤلف بالتحليل تجربة السادات التي أفرزت سياسة (الانفتاح) في اقتصاد مصر واقترابها من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل . ويورد المؤلف عدداً كبيراً من وثائق فترة السبعينات التي تتضمن شهادات عن نظام السادات ، كما يتناول الكتاب لأول مرة بالتحليل العلمي مواد التحقيق في قضية اغتيال السادات وافادات الشهود .

● بالطبع لقد كتب عن السادات الكثير ، غير أن وجهة نظر سوفياتية ، وان جاءت بعد تسع سنوات ، لاشك ستكون مفيدة للقارىء العربي .

● وثمة كتابان عن الوطن العربي أو حوله عموماً سيصدران من موسكو عام ١٩٩٠ باللغة العربية هما :

أ ـ « سفن روسية في الخليج العربي » (١٨٩٩ ـ ١٩٠٣) ويقع الكتاب في (٣١٦) صفحة من الحجم المتوسط .

إن هذا الكتاب هو أول مطبوعة في التاريخ تفسر مواد الأرشيف الحربي ـ البحري الروسي عن رحلات مراكب روسية إلى موانىء الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهو يحتوي على عدد من التفاصيل المثيرة للاهتمام عن التطور التاريخي لشعب المنطقة وحياته ونمط معيشته . ونجد في الكتاب صوراً فوتوغرافية فريدة التقطها البحارة الروس في سواحل الخليج العربي ، ومن بينها صور لحكام الكويت ومسقط وعمان .

ب ـ « دراسات في تاريخ الثقافة العربية في القرون الوسطى (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر) .

إن أبحاث فريق من المستعربين ، في القسم اللينينغرادي لدى معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، في هذا الكتاب تشكل (اللوحة) التاريخية لعشرة قرون من الثقافة العربية على امتداد (٤٧٨) صفحة في هذا الكتاب القيّم .

فقد كرست سلسلة المقالات هذه لنواحٍ مختلفة من تاريخ الثقافة العربية في القرون الوسطى . وهي تتحدث عن تركيب اللغة العربية والمخطوطات والمكتبات العربية . وخصص فيها مكان كبير لحياة المدينة العربية في القرون الوسطى وأيديولوجية سكان المدن العربية آنذاك . وفي الوقت الذي تضيف موسكو مصدراً جديداً حول الحضارة العربية للمختصين والباحثين ، تقدم قسطا مثيراً لكافة القراء العرب لإعادة التفكير في تاريخهم العريق .

● من الممكن إضافة كتاب آخر إلى هذين الكتابين السابقين وإن كان وثائقيا بحتا وهو « تقسيم اليمن » .

فاستناداً إلى وثائق نادرة محفوظة في الأرشيف الوطني الهندي يستعيد المؤرخ السوفياتي أ. خدايبردييف تاريخ تقسيم

المستعمرين البريطانيين لليمن ، فيحلل الكتاب سياسة السلطات الاستعمارية البريطانية حيال السلاطين والقبائل والمنظمات السياسية في اليمن ، ويتحدث عن آلية إنشاء الإدارة الاستعمارية والجيش وجهاز الدولة . ويحتل مكاناً كبيراً في البحث تحليل أسباب انبثاق تنظيمات سياسية تقدمية في اليمن ، هبت للنضال في سبيل التحرر الوطني .

ومما يزيد من أهمية الكتاب : هو أنه استخدم لأول مرة في الاستشراق العالمي عدة وثائق هامة لم تدخل في التداول العلمي من قبل .

إن كل المهتمين بتاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية سيجدون في هذا الكتاب كثيراً من الأجوبة عن الأسئلة التي ظلت لحد الآن مطمورة ، عن قصد أو دون قصد .

مواضيع متفرقة في كتب جديدة :

● « **بحثا عن السعادة** » !!

منذ الأزل .. ومنذ شق الوعي الاجتماعي للإنسان طريقه لمعرفة المحيط بالإنسان بدأت مسيرة إنسانية عامة للبحث عن السعادة . ويعطي الكاتب الاجتماعي أ. اغناتنكو في كتابه : « بحثا عن السعادة » تصوراً كاملاً عن المذاهب التقدمية للتركيب الاجتماعي السياسي بالنسبة لعصرها عند الفارابي واخوان الصفا وابن سينا وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون .

والكتاب موجّه لشريحة واسعة من القراء ومكتوب بلغة سلسة ومفهومة ، ومزود بحواشٍ أدبية فنية ، وغني بالصور التوضيحية .

وضمن هذه المجموعة من كتب علم النفس وعلم التربية ، يمكن للقارىء العربي أن يغني مكتبته ببحث جديد للكاتب وعالم النفس السوفياتي ي. كولومينسكي « الفرد والآخرون » .

يتحدث العالم بأسلوب مبسط عن السيكولوجيا الاجتماعية ـ علم التخالط البشري . ويؤكد أن الإنسان الموجود بين الآخرين يتصرف دائماً كعالم نفسي ، يحاول فهم سلوك الناس الذين حوله ..

وإن حديث الكاتب عن السيكولوجيا الاجتماعية يساعد القارىء على رؤية شيء ما جديد في ظواهر مألوفة ومعروفة منذ زمن بعيد كظاهرة العلاقات البشرية .

إن الكتاب مصاغ بلغة حية ، ومطالعته مفيدة لا بالنسبة لعلماء النفس والمربين فحسب بل ولكل المثقفين .

● ويمكن للمكتبة العربية أيضاً أن تفيد من هذا الموضوع الذي طرقه كولومينسكي بكتاب غ. أوسيبوف « أصول علم الاجتماع » الذي سيصدر بـ (٣٧٨) صفحة ، أي بزيادة مائة صفحة تقريباً عن كتاب « الفرد والآخرون » . غير أن كتاب أوسيبوف يعطي تحليلاً انتقادياً للنظريات السوسيولوجية الغربية ، إذ هو ، على خلاف كتاب « الفرد والآخرون » مخصص لعلماء الاجتماع وسيصدر لهؤلاء وللفلاسفة وليس للقارىء العادي .

وإذا ما استطاع القارىء العربي أن يطلع على كتاب : « جغرافية العالم الاقتصادية » الذي هو مجموعة أبحاث (بـ ٢٩٠) صفحة ، لكوكبة من علماء

الجغرافية السوفيات ، عندها سيجد نفسه ملماً بالاقتصاد العالمي ، إذ سيتعرف على وصف جغرافي لبلدان معينة ، وهنا من المفيد أن يكمل القارىء معلوماته بقراءة كتاب : ل. لاريوشين « مجاعة متعددة الأوجه » ذلك الكتاب الذي يتحدث عن واحدة من أهم مشاكل العصر الراهن، القضاء على المجاعة التي يهلك بسببها عشرات الملايين من البشر في العالم. ويكشف المؤلف استنادا إلى مواد واقعية كثيرة أسباب التردي الحاد للحالة الغذائية في الدول النامية في ستينات - ثمانينات القرن العشرين .

إن تحليل الوضع الناشيء في العالم بأسره بالنسبة لانتاج وتوزيع واستخدام المواد الغذائية يدفع المؤلف إلى الاستنتاج : بأن التغلب على المجاعة أمر ممكن عن طريق إزالة التخلف الاجتماعي - الاقتصادي للبلدان النامية ، وايقاف سباق التسلح ، والتعاون المتكافىء والمتبادل للمنفعة بين جميع البلدان .

● « بطرس الأكبر : الشخصية والعصر » !!

لقد كرس البروفيسور ف . بوغانوف كتابه لحياة ونشاط بطرس الأكبر - أول امبراطور لروسيا ، والذي باتت روسيا في عهده دولة عالمية عظمى ، حيث اتسعت أراضي الامبراطورية الروسية آنذاك إلى حد كبير عن طريق اكتشاف ودراسة واستيطان أراضٍ في شرق وشمال السهوب الأوروبية الآسيوية الفسيحة .

والكتاب ثمرة دراسة طويلة لحلقة واسعة من المراجع والمطبوعات عن بطرس الأول شخصيا وعن عهده ، وهو مزود بصور مثيرة للاهتمام . والكتاب موضوع لجماهير واسعة من القراء الذين يهمهم تاريخ روسيا ودور الفرد في هذا التاريخ .

● « بطرس الأول » رواية !!

إن ألكسي تولستوي (۱۸۸۳ - ١٩٤٥) كان قد كتب رواية بهذا العنوان . وتقع الرواية في مجلدين : الأول (٤٠٨ صفحات) والثاني (٥٢٠ صفحة) .

إن مؤلفات الكاتب السوفياتي الكسي تولستوي معروفة في كثير من البلدان ، وقد ترجمت إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً روايته الثلاثية المعروفة «درب الآلام» ، وكذلك رواياته العلمية - الفنطازية . وتشغل مكاناً خاصاً في ابداع الأديب روايته التاريخية «بطرس الأول» التي تحكي عن روسيا على تخوم القرنين : السابع عشر والثامن عشر .

لذا فإن رواية الكسي تولستوي « بطرس الأول » ستكون لدى القارىء العربي المدخل الأدبي لـ « بطرس الأكبر : الشخصية والعصر » بقلم البروفيسور ف . غانوف . وخلال هذين الكتابين اللذين يكمل أحدهما الآخر ستكتمل « اللوحة » الروسية العامة أيام قيصر روسيا المحبوب بطرس الأكبر - بطرس الأول .

● وقبل أن نكمل الشوط في استقراءات الكتب الأدبية التي ستصدر في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩٠ ، لابد من التوقف عند كتابين يخصان الحياة السوفياتية الراهنة ، ويفيدان القارىء العربي المتتبع لتطورات إعادة البناء في الاتحاد السوفياتي .

أولا : « تشيرنوبيل »

لكاتبه أ. شيرباك . حيث تعتبر قصة الكاتب الاجتماعي هذا من مدينة « كييف » .. عاصمة أوكرينيا ـ المدينة القريبة من كارثة تشيرنوبيل ، واحدة من المحاولات الأولى في الأدب العالمي لإمعان الفكر في الحادث المأساوي لانفجار محطة تشيرنوبيل الكهرذرية على النطاق البشري ـ العام .

يصف المؤلف (وهو طبيب) الحالات التي نشأت في الوضع الحرج للغاية آنذاك ، ويمعن التفكير في ظواهر غير اعتيادية مثل الذعر الاشعاعي في منطقة يسكنها الناس .

وتحتل مكاناً هاماً في الكتاب مسألة الايكولوجيا البشرية ، ويستخدم المؤلف موادا وثائقية للّجنة الحكومية الخاصة بالقضاء على مضاعفات حادث تشيرنوبيل ، وتسجيلات المقابلات مع المشاركين في احداث السادس والعشرين (من أبريل ـ نيسان ١٩٨٦) . ونجد بين أبطال القصة : اطفائيين وأطباء سوفيات ومليونيراً أمريكياً وأكاديميين ووزراء بالاضافة الى أهالي تشيرنوبيل .

ثانيا :
« الحق والثقافة الحقوقية » !!

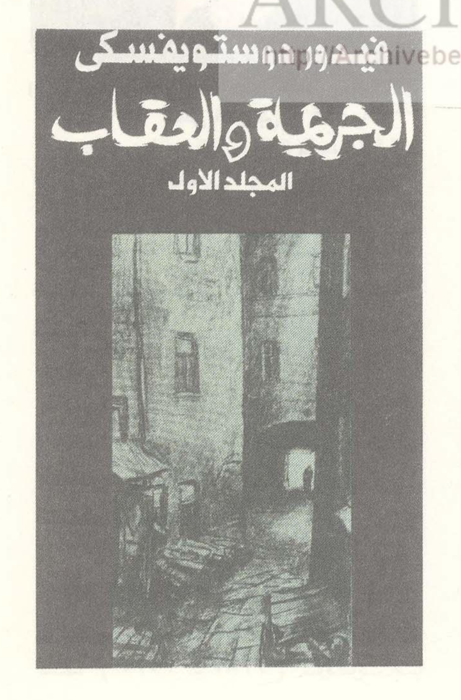
سيصدر هذا الكتاب للبروفيسور ـ عضو مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي س. الكسييف في خريف عام ١٩٩٠ .

ومن المفيد للقارىء العربي المتتبع لسير الأحداث في الاتحاد السوفياتي الاطلاع على هذا الكتاب الحقوقي الهام .

● **الأدب الروسي والسوفياتي باللغة العربية هذا العام :**

لقد كرس الشاعر والمؤرخ الأدبي ايغور فولغين من (مواليد ١٩٤٢) عدة سنوات لدراسة وابداع فيودور دوستويفسكي . وكتابه : « العام الأخير من حياة دوستويفسكي » مكرس لهذا الأديب الروسي والعالمي الرائع وروابطه مع التاريخ ، وعلاقاته بمشاهير الكتاب والشخصيات الاجتماعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . والكتاب عبارة عن مدونات تاريخية مبنية على قاعدة واقعية دون اختلاف أو ابتداع . أنه وقائع ووثائق ورسائل ، وشهادات المعاصرين للكاتب .

وكتاب فولغين هذا سيصدر في خريف هذا العام . إلا أن القراء هذا العام أيضا يستطيعون مطالعة « الجريمة والعقاب » الرواية الرائعة لدستويفسكي ، التي صدرت



في مجلدين بترجمة الدكتور سامي الدروبي الأديب والناقد والمترجم والدبلوماسي السوري المولود في حمص عام ١٩٢١ . وتصدر لؤلؤة دستويفسكي هذه ضمن اعادة اصدارات دستويفسكي باللغة العربية بترجمة الدكتور سامي الدروبي ومراجعة الدكتور يوسف أبو بكر . وقد صدر من هذه السلسلة : (الأبله) ، (والأخوة كرامازوف) .

الأديب والمترجم والدبلوماسي السوري الدكتور سامي الدروبي

● « مذلون مهانون » !!

هذه رواية أخرى من أشهر روايات فيودور دستويفسكي وأوسعها شعبية ستصدر أيضاً عام ١٩٩٠ الجاري .

وقد صدرت هذه الرواية للمرة الأولى عام (١٨٦١) بعد عودة الكاتب من الأشغال الشاقة ، حيث نفته الحكومة القيصرية لنشاطه الاجتماعي ـ السياسي .

ولقد جسد الكاتب دوستويفسكي كما في « الجريمة والعقاب » كذلك في هذه الرواية الألم بسبب حياة الإنسان المشوهة ومصيره المحطم الناجم عن الكرامة الإنسانية المهانة .

إن رواية « مذلون مهانون » هي تكملة لموضوع : « الجريمة والعقاب » . وهاتان الروايتان هما عن روسيا في ستينات القرن التاسع عشر ، حيث شهدت عصراً من التحولات الاجتماعية العميقة والهزات الأخلاقية العنيفة .

شاتروف يتحدث بالعربية !!

● تتضمن مجموعة الكاتب الاجتماعي السوفياتي المعروف ميخائيل شاتروف خمس مسرحيات ستصدر هذا العام باللغة العربية هي : «بلا شفة » ، « خيول زرقاء على عشب أحمر » ، « هكذا ننتصر ! » ، «صلح بريست » ، وأخيراً « إلى أبعد .. أبعد .. أبعد !! » .

إن مسرحيات شاتروف تثير معاناة ذاتية في داخل أبطالها وتنتقل عدواها بسرعة إلى المشاهدين ، ولذا فإنهم يترقبونها باهتمام بالغ . ولاشك أن مختارات شاتروف ستكون مفيدة للمكتبة العربية إذ تعتبر أحد المنابر التي خلقتها عملية « إعادة البناء » بالرغم من كل سلبياتها ونواقصها الكثيرة .

● « **المحقق البوليسي الحزين » رواية قصيرة !**

إن الكاتب السوفياتي المعروف فكتور استافييف المولود عام ١٩٢٤ : مؤلف « المحقق البوليسي الحزين » قد ألف قصصاً ترجمت إلى كثير من لغات شعوب العالم ـ: (السرقة ١٩٦٦) ، (التحية الأخيرة

١٩٧٣) ، (السمكة الملكة ١٩٧٥) ، وغيرها .

إن بطل رواية « المحقق البوليسي الحزين » الصادرة باللغة الأصل (الروسية عام ١٩٨٦) ليونيد سوسنين : موظف في الميليشيا ، وكاتب مبتدىء في غمرة الألم والغضب والارتباك والتوتر واليأس والاعجاب ومرارة خيبة الأمل ، في هذه الظروف والحالات القصوى يعيش البطل يندفع يومياً إلى مقارعة الشر .

ويطرح علينا الكاتب غير مرة في سياق الرواية مسألة الرحمة ، الحقيقية الموهومة ، دون أن تنثلم حدة هذه المسألة الصعبة والمعقدة للغاية .

● **أدب « الموجة الثانية » !!**

« الحديد والنار » قصص عن الحرب الوطنية العظمى . ستصدر هذه المجموعة النثرية باللغة العربية هذا العام ، وبذلك سوف يتمكن القارىء العربي من الاطلاع على ابداع أسطع ممثلي ما يسمى « بالموجة الثانية » من النثر الحربي في الأدب السوفياتي :- بيكوف ، وكوندراتييف ، والراحل فوروبيوف . وقصة فوروبيوف في هذه المجموعة هي سيرة حياته : (هنا نحن ، يارب) ! ولقد صدرت للمرة الأولى سنة ١٩٨٦ في مجلة (ناش سوفر يمينيك) ! أي (معاصرنا) مع انها كتبت عام ١٩٤٣ . يتحدث الكاتب عما عاناه وعاشه إبان الأسر ، في المعتقلات الفاشية .

أما الكاتب كوندراتييف فيتحدث في قصته « طريق سيليجاروف » عن أيام الحرب الساخنة ، وبطولة الجندي العادي وصلابته ووطنيته ..

أما قصة بيكوف « حادث في الجبهة » فتعكس درامية الحرب العالمية الثانية حيث التقت هناك الأضداد : الشجاعة والخوف ! النزاهة والجشع ، الشهامة الإنسانية وحب الذات ، الاخلاص للواجب والارتداد .

ونجد في الموضوع نفسه مجموعة أخرى من القصص بعنوان « القفزة المقطوعة » كلها عن مآثر اللجنة الاستثنائية لأمن الدولة السوفياتية ، وتحكي هذه القصص التي يضمها الكتاب عن مختلف المراحل ، ولا سيما زمن الحرب الوطنية العظمى التي خاضها الشعب السوفياتي ضد ألمانيا الهتلرية .

● **أما ب . بارموزين فيقدم لقراء العربية هذا العام :**

« غبار السهوب المرير » !

وتقع أحداث هذه القصة في أرض اوزبيكستان في الثلاثينات . من قديم الزمان اشتهر في العالم كله فروقرة قول الاوزبيكي المسمى حالياً بفرواستراخان . ولكن تكبدت تربية أغنام قرة قول وانتاج الفرو هناك زمن الحرب الأهلية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) وبخاصة في أراضي امارة بخارى السابقة ، خسارة فادحة ، إذ أن أصعب الظروف قد حلت بها بعد أن ساق ملاك قطعان الغنم مئات آلاف الرؤوس إلى الدول الأجنبية .

عن ذلك كله تدور حوادث هذه القصة بأسلوب جذاب وشيق .

● **« الحفرة » و« بحر الشباب »**

ستصدر دار (رادوغا) للقراء كتابا يضم روايتين غير كبيرتين للكاتب أندري بلاتونوف (١٨٩٩ ـ ١٩٥١) هما

● وتقدم دار (رادوغا) الكاتب ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١ ـ ١٩٤٠) في «قصص مختارة » بـ (٣٣٦ صفحة) مع صور إيضاحية .

لقدْ عاش ميخائيل بولغاكوف حياة مأساوية ، وتوفي قبل صدور مؤلفاته الرئيسة . فبعد موته صدرت روايته (الأسطى ومارغاريتا) التي استحوذت على قلوب المشاهدين في مسرح « التاغانكا » والتي مازالت تعرض بنجاح منقطع النظير بين الحين والحين ، وكذلك قصة (قلب كلب) وغيرها من أعماله . وقد صدرت الآن كتبه بكثير من لغات العالم ، وجاء دورها في اللغة العربية أيضاً .

وتضم طبعة اللغة العربية قصتين للكاتب بولغاكوف : « البيضات المشؤومة » و « قلب كلب » .



الكاتب ميخائيل بولغاكوف

« الحفرة » و « بحر الشباب » واللتان صدرتا بعد موت الكاتب . والروايتان مكتوبتان بأسلوب غير تقليدي ملازم لبلاتونوف وحدة ، حيث يجمع بين الحماسة والهجاء ، بين الحكايات وأسخن قضايا الزمن . وتأخذ هاتان الروايتان من روسيا السوفياتية في العشرينات والثلاثينات أعقد وأصعب ما في تاريخها المعاصر .

الكاتب الروسي فالنتين راسبوتين



إن هجاء بولغاكوف يحملنا المرة تلو المرة على امعان الفكر في العواقب الرهيبة التي قد يسفر عنها العنف حيال الطبيعة وحيال سيدها الإنسان . ويحتوي كتاب بولغاكوف كذلك على سلسلة « مذكرات طبيب شاب » و « منشفة بصورة ديك » و « الحلق الفولاذي » وغيرها من القصص .

● **وماذا سيقدم لنا فالنتين راسبوتين ؟!!**

لقد كرس فالنتين راسبوتين (ولد عام ١٩٣٧) كل إبداعه لبسطاء الناس في سيبيريا ، لأولئك الذين يرتبطون بكل جذورهم بالطبيعة البكر .

زمن أحداث القصة الجديدة « الحريق » هو ليلة واحدة ، حيث يختار الكاتب من حياة بلدة (سوسنوفكا) السيبيرية كارثة الحريق في احدى الليالي حيث التهمت النيران مستودعاً ضخماً للمأكولات ، الأمر الذي هدد بهلاك البلدة كلها . وفي بحث سلوك المشتركين في الأحداث ، يخلص الكاتب إلى تأملات عسيرة في التشويهات الأخلاقية التي نشأت في حياة المجتمع خلال السنوات الأخيرة .

إن هذه القصة المفعمة بالألم على مصير الوطن حظيت بتقدير الصحافة الرفيع .

● **ميخائيل شولوخوف و « الدون الهادىء » (يجري) هذه المرة باللغة العربية !!**

لربما أن خير هدية تقدمها دار النشر (رادوغا) لقراء اللغة العربية هي « الدون الهادىء » التي ستصدر بـ (١٧٩٢) صفحة وبأربعة مجلدات .

لقد ولد ميخائيل شولوخوف في رحم الثورة الروسية الفاشلة (عام ١٩٠٥) ومات ميخائيل قبل ثورة غورباتشيف (في عام ١٩٨٤) وعاش طيلة حياته عيشة الفلاحين والناس البسطاء مع قوزاق الدون

يقول الكاتب :

- « ... سيسعدني أن يرى القارىء فيما وراء وصف حياة قوازق الدون شيئاً آخر أيضاً . عنيت بذلك التطورات والتغييرات الهائلة التي طرأت في المعيشة والحياة والنفسية البشرية من جراء الحرب والثورة . ومهمتي لا تقتصر على تبيان مختلف شرائح السكان في منطقة الدون في زمن حربين وفي زمن الثورة .. لا تقتصر على تتبع المصير الفاجع الذي كان من نصيب أفراد مختلفين تلقفتهم احداث مرحلة (١٩١٤ ـ ١٩٢١) بدوامتها الجبارة العاصفة ، بل تقوم كذلك في تبيان الناس في زمن البناء السلمي .. هكذا كتب (صاحب) جائزة نوبل عن « الدون الهادىء » .

● **من « شارلوك » شكسبير إلى موت المرابي في طاجاكستان !!**

يعتبر صدر الدين عيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٤) من أعلام الأدب الطاجيكي السوفياتي . وقصة « موت المرابي » تحفة هجائية باهرة دخلت ما نسميه بالكنز الذهبي للأدب العالمي . فإن النموذج الواقعي الساطع للطماع المنفر والمستثمر القاسي كوري ايشكامبا قد وقف عن حق وجدارة في صف واحد مع شارلوك شكسبير ، وغوبسك بطل رواية بلزاك ويهود روشكاغولو فليف بطل رواية ميخائيل سالتيكوف ـ شيدرين . وفي أساس نموذج الكاتب هذا يقوم شخص

تاريخي فعلي كان مرابيا شهيرا في تلك الأزمنة البعيدة في بخارى .

● « الحرس الفتي » :

وتغتني المكتبة العربية عام ١٩٩٠ برائعة الكساندر فاديف (١٩١٠ ـ ١٩٥٦) برواية « الحرس الفتي » وسيقع المجلد الأول بـ ٤٦٤ صفحة ، فيما سيتألف المجلد الثاني من (٥٦٠ صفحة) .

عن الاستعداد في سبيل الدفاع عن الوطن وعن الإمكانات الخارقة لذلك الاستعداد سيقرأ العرب رائعة الكساندر فاديف الذي انتحر عام ١٩٥٦ بظروف غامضة .

أدب الأطفال باللغة العربية .

ولم تنس دور النشر السوفياتية أن تقدم باقة من أدب الأطفال للأطفال العرب :

« بدون تذكرة في أرجاء الدنيا » . كتاب شيق عن النباتات المترحلة . يقدمه كاتب الأطفال نيقولاي أو سيبوف بمساعدة الرسام سمولنيكوف الذي زينت رسومه الملونة الجذابة هذا الكتاب .

أما الرحالة والكاتب الصحفي روبرت بالاندين فيقدم مجموعة من القصص تحت عنوان « جبال التنانين النارية » ، وهي خمسون قصة مصورة للأطفال العرب ،، فهل سيجد أطفال الانتفاضة الوقت لقراءة هذه القصص ؟؟!!

ويمكن للأطفال العرب أن يذهبوا مع الكاتب فيتالي بيانكي في « رحلة صيد » وأن يتمتعوا بعالم الحيوان في « الحمل الأقرن » للكاتب بيشين علييف أو يفغيني شاروشين في «عالم الحيوان » بالرسوم . ويمكن لأطفالنا أن يطربوا مع « أغنيات شعبية ليتوانية » وأن يقرأوا « الناسك والوردة » لباريس زاخودر .. وعبر « السفن تمخر عباب البحر » وسيقرأون قصة سفياتوسلاف ساخارنوف . ومن الحكاية الشعبية الاوكرانية « السنبلة » سيلجأون إلى « حكايات الجاهل » للكاتب ن . نوسوف .

ومن الحكايات الشعبية اختارت (رادوغا) للأطفال العرب « حكاية السمكة » وهي قصة الداهية اميليا والقيصر الغدار الماكر وابنة القيصر الحسناء والسمكة السحرية التي تلبي جميع رغبات اميليا . وسوف تصدر هذه (الحكاية) برسوم الفنانة المعروفة تاتيانا مفرينا . والحكاية هذه ستطيب للصغار وللكبار سواء بسواء .

ثانيا ـ ألمانيا الديموقراطية :

قلوب اصطناعية !!

لقد بدأت الورشة الصناعية العائدة لمستشفى الأمراض الداخلية بجامعة روستوك التي تحمل اسم ويلغيل بيك ، بانتاج «قلوب» اصطناعية وذلك منذ بداية عام ١٩٩٠ الجاري . وتقول مجلة « جي. دي. ار » من ألمانيا الديموقراطية التي أوردت نبأ هذا النجاح العلمي :

ـ « .. لقد تمكن أطباء جراحة القلب ومهندسو التكنولوجيا من صناعة قلب على غاية من الدقة والكمال وقد تم صنعه بمساعدة تقنية نظرية وتطبيقية من قبل معاهد أبحاث جراحة القلب في كل من



« القلب الاصطناعي » (المانيا الديمقراطية)

الاتحاد السوفياتي وأمريكا وجيكوسلوفاكيا واليابان . » .

وتجري التجارب في الوقت الراهن على الحيوانات بنجاح . ومن المعروف أن هذه « القلوب » ما هي إلا موتورات لضخ الدم واستمرار الدورة الدموية لحين الانتهاء من اجراء العملية الجراحية للقلب المريض لعدة ساعات متواصلة

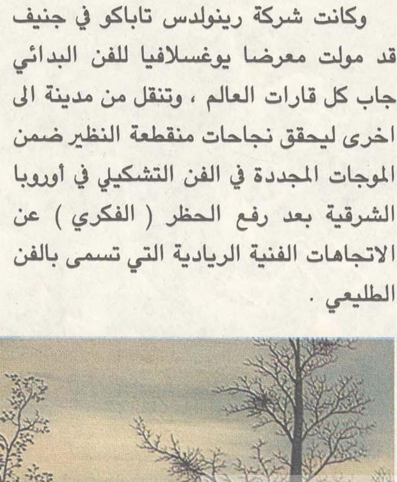
يوغسلافيا !!

« الفن البدائي »

استطاع هواة الفن البدائي في كل العواصم الأوروبية وفي مقدمتها عواصم أوروبا الشرقية التعرف على الفن البدائي اليوغسلافي ، ذلك الفن الذي أصبح الآن بداية لتشكيل مدرسة يوغسلافية قائمة بذاتها ، لها خصائصها الفنية الوطنية التي لا يمكن اختلاطها بغيرها من روائع الفن البدائي للبلدان الأخرى .

واستطاع المشاهدون في نهاية العام الماضي وبداية العام الجديد أن يشاهدوا معرض الفن البدائي في كل من برشلونة وروما وهامبرغ ونيويورك وموسكو وعدة مدن يابانية وكندية .

وكانت شركة رينولدس تاباكو في جنيف قد مولت معرضا يوغسلافيا للفن البدائي جاب كل قارات العالم ، وتنقل من مدينة الى اخرى ليحقق نجاحات منقطعة النظير ضمن الموجات المجددة في الفن التشكيلي في أوروبا الشرقية بعد رفع الحظر (الفكري) عن الاتجاهات الفنية الريادية التي تسمى بالفن الطليعي .

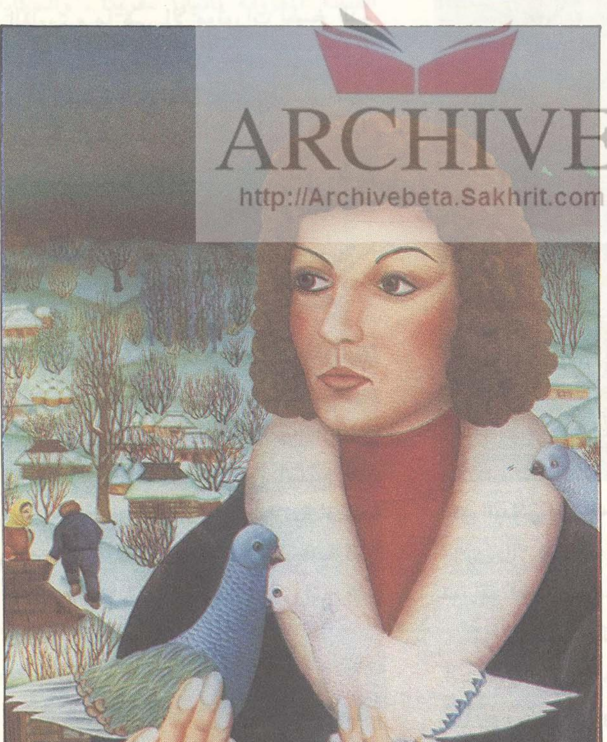




الفن البدائي اليوغسلافي لفنان غير معروف
بساطة إلى أبعد الحدود !!

ان لوحات الفنانين اليوغسلافيين البدائيين أمثال : بيوتر بريجيل وايوان ليتس كوفيج وجيورجي وبريج ، أصبحت الآن في مصاف أعمال الفنانين العباقرة أمثال ماتيس

غنائية وشاعرية الفنان
اليوغسلافي ميبوكوفاجيج
(الفن البدائي)



لوحة « فتاة وحمامتان »
(الفن البدائي اليوغسلافي)
للفنان جيورجي دوبريج

وسيزان وفان كوخ وغغان وغيرهم من مشاهير أساتذة الفرشاة .

إن غنائية لوحات مييو كوفاجيبج تسرق المشاهد من حيث يدري ولا يدري إلى عالم سحري جميل لا يمكن تصوره إلا خلال اطلاق جناح الفنطازيا الى أبعد الحدود . هذا الى جانب البساطة المتناهية في أعمال زميله دوبريج المتأثر الى حد كبير بالفنان الفرنسي - رائد اتجاه الفن البدائي جاك روسو .

ان تشكيل مدرسة فنية وطنية مسألة تطلبت من شعوب المكسيك عدة قرون ، غير ان اليوغسلاف يفعلون ذلك بسرعة يحسدون عليها ..!

ثالثا - بلغاريا :

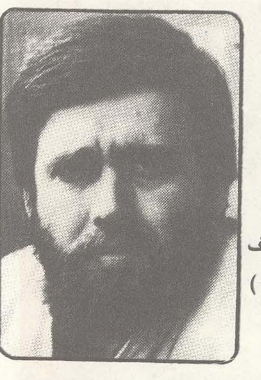
« أول تقويم في العالم » !!

كتبت مجلة «أغني بلغاري» .

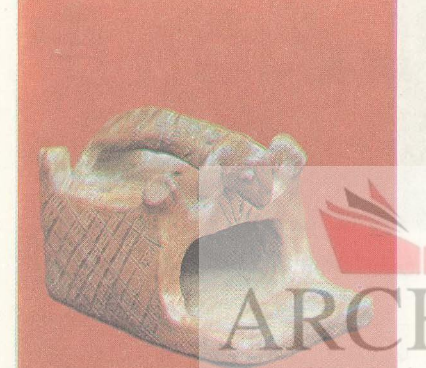
يرجع تاريخ حساب الزمن لأول مرة إلى العصر الحجري . واستعمل الرومان كلمة (KALENNAE) للأول من كل شهر . وبدأ التقويم في البداية بالأيام الأولى من الشهر ثم تطور إلى عدد الأشهر والفصول ».

وتقول المجلة : « .. من المعروف ان البابليين والفراعنة كانوا قد أوجدوا أنظمة أكثر تطوراً وكمالا من الرومان في حساب الزمن » .

وكتب عالم التنقيب البلغاري ستيافان جوخادجيف : « لقد تم التأكد تقريبا بأن أول حضارة قامت على الأرض البلغارية كانت في الألف الخامس قبل الميلاد ، وكانت



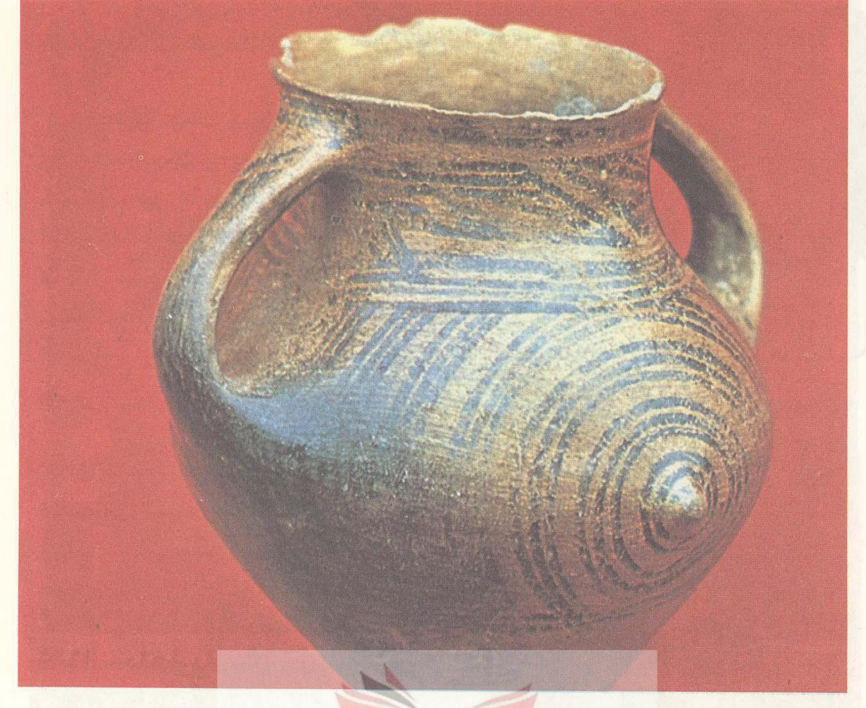
ستيافان جوخاجييف
(عالم آثار بلغاري)



تلك الحضارة قد نشأت قبل مرحلة قيام الدولة ، كما كان ذلك لأول مرة في أوروبا قاطبة .

من الطريف أن نعرف كيف رصد الناس الزمن في العصر البرونزي !!

لقد عثرت فرقة التنقيب البلغارية بقيادة عالم الآثار س . ا فجاروفو بالقرب من مدينة (ترغوفيشي) شمال شرقي بلغاريا على مواد تاريخية قديمة تحمل رموزاً تدل على الزمن أو على التقويم القديم) . ويجري في الوقت الراهن حل تلك الرموز وقراءة معانيها . غير



سيراميك ما قبل التاريخ (بلغاريا) سمك الاناء مليمتران .

أن هذا التقويم هو الآخر ليس الأقدم على كوكبنا الأرضي . ففي بداية الثمانينات عثر س . جوخادجييف على مواد تعود إلى العصر الحجري الأول قرب (سلاتينا) وليس بعيدا عن منطقة (كيوستنديل) والنتائج كانت واعدة جداً . وتم العثور على أوان حجرية يبلغ مجموعها قرابة (٣٠٠) في حالة رائعة ، هذا عدا أجزاء من أوان تقارب (٢٠ ألف قطعة) . وبالرغم من أن هذه القطع النادرة يبلغ عمرها سبعة آلاف سنة ، إلا أن الزخارف الملونة قد حافظت على نوعيتها بشكل مدهش ، كما أن سمك بعضها لا يتعدى مليمترين فقط .

ونتيجة للنتائج التي توصل إليها علم الآثار البلغاري حتى الآن ، فإن أولى رموز التقويم القديم أو (العد الزمني) تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد . أي بعبارة أخرى أن عمر التقويم القديم هو (٧٠٠٠ سنة) .



بقلم : فرانك سنودن هوبكنز
ترجمة : حسين على بندر

● ما يراه المستقبليون

يشكل كتاب **ما يراه المستقبليون** مادة ممتعة للقراءة لكل من يستشعر رغبة قوية في معرفة ما يحمله القرن الحادي والعشرون في طياته من أحداث ، وهو الكتاب الذي ألفه جوزيف كوتس وجينفر جرات ، ونشرته «مطبوعات لوموند » بالاشتراك مع جمعية المستقبل العالمية . ويقدم الكتاب عددا من التراجم النابهة لسبعة عشر شخصية من طليعة المستقبلين ، وما يستشرفونه من أحداث .

ولكل من المؤلفين كتاباته المتعددة عن الأحوال الاقتصادية والأحداث السياسية والحركات الاجتماعية والانجازات العلمية والتقنية المستقبلية . وتقدم شركتهما المعروفة باسم ج .ف . كوتس الخدمات الاستشارية للمؤسسات التجارية وغيرها من المؤسسات الأخرى .

وسعيا إلى جمع مادة الكتاب ، قام المؤلفان بتشكيل لجنة ضمت مجموعة من

WHAT
FUTURISTS
BELIEVE

غلاف الكتاب

رجال الأعمال الذين أعدوا بدورهم قائمة لـ ١٢٥ فردا من المستقبليين المتخصصين ممّن نالوا قدرا من الشهرة كمحللين للاتجاهات الاجتماعية والتكنولوجية . وقد وقع اختيار اللجنة على عدد قليل جدا من أفراد هذه

العنوان الأصلي للمقال :

What Futurists Believe, by : Frank Snowden Hopkins.

وهو عرض لكتاب :

What Futurists Believe, by : Joseph F. Coates and Jennifer Jaratt. Lomond/ World Future Society. 1989, 340pp.

عن مجلة :

The Futurists, November/ December 1989.

القائمة باعتبارهم أفضل فئة من المستقبليين . وأما المعايير التي قام على أساسها الاختيار ، فهي شهرة هؤلاء المستقبليين ونزاهتهم في الأوساط المعنية بالجوانب المستقبلية ، فضلا عن ثراء آرائهم وقدرتهم على التعبير عن الفرضيات والآراء المستقبلية المتصلة بالأنشطة التجارية .

وفي رأي كاتب هذه السطور ان المجموعة المختارة من المستقبليين مجموعة مرضية إلى حد معقول ، وان خلت للأسف من عدد من الأسماء (التي كان ينبغي أن تضمهم) ، وإني أكن اعجابا كبيرا للكثيرين من هؤلاء المستقبليين الذين ضمتهم ، فضلا عن أن بين السبعة عشر مستقبليا الذين اختصهم الكتاب بالترجمة لهم ، أعرف أعمال اثنى عشر منهم ، وأقدرها .

ان ما يقدمه الكتاب عبارة عن ترجمة مختصرة لكل فرد من أفراد المجموعة المختارة من المستقبليين موضوع الدراسة ، فضلا عن ذكر أهم أعمالهم . وفي البداية يطرح الكتاب عددا من المفاهيم المستقبلية التي اتفقت عليها المجموعة ، ثم التعرف على أوجه الإتفاق في وجهات نظرهم حيالها ، كذلك التعرف على أوجه الاختلاف التي قد تبدو في بعض الأحيان حادة .

وقد كانت نقاط الإتفاق مباشرة تماما : فقد أجمعوا على أن المستقبل يتزايد تعقيدا ـ مثلما كان عليه الوضع منذ وقت مضى . على أن عجلة التغير سوف تعمل على تنمية العلم والتكنولوجيا بسرعة مذهلة ، ويرون كذلك ان التقنيات المستقبلية الرائدة سوف تضم فيما تضمه « **التليماتكس ـ telematics** » ، وهو مصطلح يتضمن معنى الاتصالات عن بعد، والحاسوب والتطبيقات الالكترونية بشتى أنواعها ؛ كما تضم **التكنولوجيا الحيوية** bio technology ، وبخاصة تأثيرها على المجالين الزراعي والصحي ؛ وتضم ثالثا المنتجات المصنعة وتنمية أبحاث الفضاء .

ويشعر هؤلاء المستقبليون بالقلق إزاء تفجر النمو السكاني والدمار البيئي والتلوث ، وصعوبة الحصول على مصادر الطاقة نظرا لأن احتياطي النفط لم يعد كافيا ، كما يشعرون بالقلق إزاء ما يؤسف له من قصور في التعاون السياسي / الاقتصادي في العالم ، وإزاء الأخطار الناجمة عن الاستمرار في إنتاج الأسلحة النووية وترويجها . ويتفق الجميع على توقع المزيد من التعقيد في الجهود الإنسانية ، في الوقت الذي لا يجدون المؤسسات الاجتماعية والحكومية معدة بما يكفي لمواجهة هذه الظاهرة ، ويلتقي عدد منهم والرأي القائل بافتقار الحكومات إلى نظرة عالمية ، وبتخلفها في كثير مما تضطلع به من وظائف ، كما يشعرون بأنه يتعين على المجتمعات العمل على ايجاد مؤسسات أكثر مرونة على نحو يمكنها من مواجهة ما يستجد من مشكلات عالمية . ويتوقع عدد آخر أن المؤسسات سوف تضطلع بعدد من الوظائف الموكولة إلى الحكومات ، وتقدم إلى المجتمع مزيدا من الخدمات .

ويتوقع المستقبليون السبعة عشر تباطؤا في معدل النمو الاقتصادي العالمي ، تبعا لتزايد تكاليف الطاقة وتزايد النمو الكاني ، فضلا عن تزايد الحاجة إلى المصادر الطبيعية والغذاء . ومع ذلك فلا يبدو عليهم في الوقت الحالي الاهتمام بعدم الاستقرار في البنى العالمية ، فهم يرون بأن التغيرات سوف تحدث في نطاق الاستمرارية . ولسوف تقوم هنالك صراعات وثورات ، وان كانوا

يتوقعون ، بصورة عامة ؛ بأننا سوف نذير مختلف أنظمتنا ونوفق في تيسير أمورنا .

تلك هي التوقعات التي يراها المستقبليون بالنسبة للعالم بصورة عامة . أما بالنسبة لما يختص منها بالولايات المتحدة ، فهم يتوقعون لها قدرا من التدهور النسبي في قوتها على المستوى الاقتصادي والعسكري ، ويشعرون على وجه التحديد ، بالقلق إزاء عجز نظام التعليم الأمريكي عن تلبية الحاجات التعليمية المرجوة في المستقبل . ويصرحون بأن المجتمع المعلوماتي الذي أصبحت عليه الولايات المتحدة في حاجة إلى مستويات جديدة من التعليم والمهارات العلمية والتكنولوجية ، وفي حاجة إلى نظرة عالمية موسعة . ويتفق المستقبليون على أن الجامعات والمؤسسات لا تعمل كما ينبغي على المساعدة في تلبية الحاجات العلمية للعمالة المستقبلية .

عندما عبّر هؤلاء المستقبليون عن قلقهم واهتماماتهم أبدوا نوعاً من الاختلاف في وجهات نظرهم . على سبيل المثال ، هناك تضارب في الآراء حول موضوع مدى الحاجة إلى إصلاح البنى المؤسساتية الجديدة ومدى إمكانية التحكم في العلم والتكنولوجيا أو توجيههما ، وما هي الافتراضات التي أدت إلى النظرة التفاؤلية والتشاؤمية للمستقبل . ويميل هؤلاء المستقبليون السبعة عشر إلى النظر إلى المشكلات العالمية نظرة شاملة ، ذلك إن هذه النظرة لا تركز فحسب على مصير أمة بعينها أو جماعة ما من الجماعات البشرية بل تتعداها إلى العالم بأسره . هذا بالإضافة إلى النظرة النسبية للنساء والأقليات أو الصراعات الثقافية . وبالمثل ، فإنهم غير معنيين إلى حد كبير بالتغيرات الاجتماعية وأسلوب الحياة أو الدين . وبالرغم من وعيهم التام بالمخاطر المحيقة بالبيئة ، إلّا أنهم لم يوضحوا على عاتق من تقع مسؤولية إيجاد علاج ناجح للمحافظة على صحة البيئة . ويبدو هنا طغيان الاهتمامات العلمية على الاهتمامات السياسية جليا .

يختتم كل من كوتس وجارات الكتاب بفصل تحت عنوان « كما نرى المستقبل » حيث يقدمان مفهومهما الخاص عما سيكون عليه المستقبل خلال الفترة القادمة المقدرة من ١٥ الى ٣٠ عاماً . كما عمل المؤلفان على توجيه جل اهتمامهما بالمؤسسات التي يعبران عنها بقولهما « أنه العامل الأعظم والأوحد في مجتمعنا القادر على تشكيل برنامجنا الاجتماعي والسياسي بصورة ايجابية ، على الرغم من أن أهداف هذا البرنامج ما زالت في بدايتها وينقصها التنسيق » .

ولمعرفة الاتجاهات العالمية والأمريكية الرائدة ينظر المؤلفان أولًا إلى الإمكانات الديموغرافية . فبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية نجدهما يعيران اهتماماً خاصاً بالنمو المطرد لأفراد الطبقة الوسطى وكذلك اهتماما بالزيادة المطردة في عدد النساء في القوى العاملة . ويتنبأ المؤلفان بأن مشاركة النساء للرجال في العمل ستكشف عن الصفات الحسنة لكلا الجنسين والتي ستؤدي إلى زواج من نتاجه خلق صفوة مؤثرة في الحياة المستقبلية. وينظران كذلك إلى إتجاهات الحياة السياسية في الولايات المتحدة ملاحظين تدهور نوعية القيادة الحكومية . أما في مجال التعليم فقد لوحظ نفس التدهور النوعي الذي أصاب الحياة السياسية .

ويعتقد المؤلفان أن التقدم التكنولوجي سيكون هبة من الله للشعب الأمريكي حيث سيؤدي إلى إنتاج بضائع ذات جودة عالية ، كما ستزيد التكنولوجيا الحيوية من حصانة البشر ضد الأمراض وتقلل من العيوب الوراثية . ويرى كل من كوتس وجارات أيضاً تقدماً ملحوظاً في وسائل الاتصال عن بعد مما يترتب عليه تحسن وزيادة كفاءة الإتصالات التجارية وزيادة كبيرة في أعداد الرجال والنساء العاملين في البلاد أو في مكاتب إقليمية صغيرة على خلاف ما هو متبع من تنقل إلى أماكن عمل مركزية وكبيرة . واستمرارا في هذا العمل المبدع يواصل المؤلفان إبراز النزعات الخاصة بالمساواة بين الجنسين والتطلع إلى حياة معيشية أفضل وتحقيق الذات الهادف . فكل هذا يمكن تحقيقه على حد قولهما . وقد صاحب هذه الملاحظات بعض الانتقادات الصادقة للأمور المميزة للمجتمع الحديث والتي تتمثل في التلوث البيئي والنظرة الاقتصادية القاصرة والنفايات الحربية والتلكؤ في مواجهة بعض المشاكل المروعة كالحرب النووية .

لعل الهدف الأساسي لكتاب « **ما يراه المستقبليون** » هو تزويد القراء بتصور جيد عن مجال الدراسات المستقبلية وتقديم عرض لما يراه بعض هؤلاء المستقبليين ذوي الأفكار النيرة بعد سنوات عديدة من الدراسة . لقد حقق الكتاب هذه الغاية بأسلوب حيوي وممتع .

المستقبليون المختارون

- Roy Amara, president, Institute for the Future.
- Robert U. Ayres, professor of engineering and public policy, Carnegie Mellon University.
- Daniel Bell, Henry Ford Professor of social sciences, Harvard University.
- Kenneth E. Boulding, professor emeritus, University of Colorado.
- Arthur C. Clarke, author and chancellor of the University of Moratuwa, Sri Lanka.
- Peter Drucker, Clarke Professor of social science, Claremont Graduate School, California.
- Victor C. Ferkiss, professor of government, Georgetown University.
- Barry B. Hughes, professor at the graduate school of international studies, University of Denver.
- Alexander King, president, Club of Rome
- Richard D. Lamm, former governor of Colorado.
- Michael Marien, editor, *Future Survey*.
- Dennis L. Meadows, professor of engineering, Dartmouth College.
- James A. Ogilvy, director of the Revisioning Philosophy Program, Esalen Institute.
- Gerard K. O'Neill, president, Space Studies Institute.
- John R. Pierce, emeritus professor of engineering, California Institute of Technology.
- Peter Schwartz, strategic planner and futures researcher.
- Robert Theobald, chairman, Knowledge Systems, Inc.